محاضرات فى
تاريخ الشعوب الاسلامية
فى العصر الحديث

الأستاذ الدكتور
عمر عبد العزيز عمر
نائب رئيس جامعة الاسكندرية سابقا
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦

محاضرات فى
تاريخ الشعوب الاسلامية
فى العصر الحديث

الأستاذ الدكتور
عمر عبد العزيز عمر
نائب رئيس جامعة الاسكندرية سابقا
أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - الأزاريطة - ت ٤٨٣٠١٦٣
٣٨٧ ش قنال السويس - الشاطبى - ت ٥٩٧٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

يصعب على المؤرخ أن يقدم دراسة متكاملة عن تاريخ العالم الإسلامى فى العصر الحديث فى عدة صفحات محددة، ولذلك فاننا سنركز فى محاضراتنا هذا العام على بعض قضايا معينة فى تاريخ هذا العالم. ودراسة تاريخ العالم الإسلامى تتطلب بالضرورة دراسة المفاهيم الدينية والسياسية والاستراتيجية فى منطقة شاسعة من العالم تمتد من اقليم سينكيانج وتركستان الصينية وجمهوريات الاتحاد السوفيتى (الإسلامية السكان) إلى وسط آسيا فتضم الملايو وبورما والفلبين واندونيسيا وأفغانستان وشبه القارة الهندية وايران والعالم العربى والدولة العثمانية (تركيا) وأجزاء عديدة من البلقان وشرقى أفريقية ووسطها الصحراوى وشبه الصحراوى حتى الحزام الزنجى الممتد من السنغال إلى الكونغو. واذا حاولنا أن نعطى مفهوما أدق للعالم الإسلامى فإنه عبارة عن المناطق التى يسكنها العرب والترك والفرس والتركمان والأكراد والهنود المسلمون ومسلمو افريقيا السوداء وقبائل الصحراء الكبرى والأندونيسيون والصوماليون والبربر.

ويبلغ تعداد مسلمى العالم حوالى مليار نسمة تقريبا موزعين أساسا على قارتى آسيا وأفريقيا. وتضم آسيا أكبر الدول الاسلامية (أندونيسيا وباكستان)، ويشكل مسلمو آسيا حوالى ثلاثة أرباع مسلمى العالم، بينما يبلغ عدد مسلمى أفريقيا أقل من الربع[1]. وينتمى هؤلاء المسلمون إلى الغالبية العظمى من الأجناس البشرية المعروفة، فمنهم جنس البحر المتوسط، ومنهم من توالد

---

(١) تتمثل الأقليات الاسلامية فى مسلمى غرب الصين والتتار والمنغوليين والأوزبك فى الاتحاد السوفيتى ومسلمى يوجوسلافيا والجيوب الاسلامية البلقانية والارتريين ومسلمى الفلبين ومسلمى الهند الصينية (فيتنام وكمبوديا وسيام) إلى جانب اقليات متناثرة فى مختلف أجزاء العالم ونمت أخيرا بسبب الهجرات المتتالية من العالم الاسلامى مثلما حدث للمسلمين فى استراليا أخيرا.

عن امتزاج هذا الجنس بالعناصر الزنجية وبوجه خاص فى أفريقية الصحراوية أو وراء الصحراء وفى أندونيسيا والهند وباكستان اختلطت العناصر القوقازية بالزنجية والعربية والمغولية والآرية والملاوية وهؤلاء المسلمون يتبعون عناصر وقوميات ودول شتى ويتحدثون لغات عدة هى: العربية والتركية والفارسية والسواحلية (فى شرق أفريقيا) ولهجات بربرية (فى أفريقية) والأوردية فى (الهند وباكستان) والصينية وبعض اللغات المحلية فى مواطنها فى آسيا وأفريقية[1].

حقيقة أن انتشار الاسلام فى اتجاه الهند ووسط اسيا وقلب أوروبا لقى مقاومة شديدة من جانب القوى الدينية الموجودة على أطراف العالم الاسلامى وهى: أوروبا المسيحية والهند الهندوسية والصين البوذية، غير أن الاسلام تمكن من كسب أرض جديدة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادى فى اندونيسيا وأفريقية السوداء وراء الصحراء على يد رجال الطرق الصوفية والتجار المسلمين كما يرجع الفضل فى تحضير أفريقية إلى الهجرات العربية التى نمت عن طريق وادى النيل وشمال أفريقية عبر الصحراء الكبرى وعبر البحر الأحمر وشرق أفريقية. وبفضل انتشار الإسلام فى أفريقية عرفت تلك المنطقة – القارة السوداء – الحضارة وأصبح لها تاريخ مدون وتغلغلت بسرعة اللغة العربية فى اللهجات المحلية الافريقية ولكن انتشارالاسلام كان أكثر وأوسع من انتشاراللغة العربية، لقد انتشر الإسلام فى أفريقية ببطء ولكنه لم يتم عن طريق مؤسسات تولت ذلك بعكس المسيحية التى ساندتها مؤسسات أوروبية دينية ومالية سياسية فكان ذلك من عوامل تفوق انتشار المسيحية فى عدة مناطق فى النطاق الزنجى.

(١) فى بعض الأحيان كتب المسلمون اللغة الواحدة بعدة أشكال ، فاللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية منذ عهد مصطفى كمال أتاتورك وكانت من قبل تكتب بالحروف العربية، أما السواحلية فكانت تكتب بالحروف العربية ثم أصبحت تكتب منذ عام ١٩٧٢ بالحروف اللاتينية.

الأفريقى وأيا ما كان الأمر فقد ظهر فى أفريقية عدد من الدول الإسلامية وظهر فى مدنها العلماء والفقهاء وخرج من هذه المدن الإسلامية الأفريقية الحجاج إلى الحجاز أو إلى مراكز الثقافة فى العالم الإسلامى فى القيروان والقاهرة ودمشق وبغداد. ويعلل بعض الكتاب الأوربيين سرعة انجذاب الزنجى إلى الإسلام فيقول أن الدخول فى الإسلام لا يستلزم أن يفقد الواحد قوميته ولا يستلزم تغييرات انقلابية فى الحياة الاجتماعية ولا يقوض نفوذ الأسرة أو سلطة الجماعة، وليست هناك هوة بين الواعى إلى الإسلام والمتحول اليه فكلاها متساو مع الآخر لا نظرياً بل عملياً أمام الله: وكلاهما ينفذ مبدأ التآخى الانسانى تنفيذاً عمليا والإسلام يمنح الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الانسان فى العالم المحيط به ويحرره من ربق الف عام من الأوهام الخرافية.

والمتفحص لخريطة العالم الاسلامى يدرك أن هذا العالم هو بمثابة القلب بالنسبة للعالم كله. هذا الموقع الهام وهذا الامتداد العظيم للعالم الاسلامى لايفيد الا اذا كان هذا العالم على مستوى القدرة اللازمة للافادة من مميزات هذا الموقع وذلك الامتداد. ولقد أفاد المسلمون الأول فعلا منها ولكن التدهور المادى والحضارى للعالم الاسلامى جعل هذه الفوائد من نصيب القوى الجديدة فى أوروبا وأمريكا. فسيطرت البرتغال ثم بريطانيا على مفاتيح البحار والمحيطات ثم استعمرت بريطانيا وفرنسا وايطاليا العالم الاسلامى وأفادت من امكاناته الجغرافية والاقتصادية، واحتكرت الشركات الملاحية الأوروبية انهار دجلة والنيل والنيجر والسند، كما تولت استغلال موانى العالم الاسلامى فى النقل البحرى والجوى ومدت خطوط السكك الحديدية وطرق السيارات لخدمة أهدافها العسكرية والاقتصادية مما يغض النظر عن حقيقة مصالح أهل البلاد ومتطلبات تطويرها. واستغلت الشركات مطاط أندونيسيا وأخشاب تركيا

ونيجيريا وقطن مصر والسودان وأخيرا بترول وغاز اندونيسيا وايران والبلاد العربية ونيجيريا الذى يمثل ٥٥ ٪ من احتياطي البترول في العالم وهكذا قضت الدول الأوروبية على أية فرصة لنهضة الاسلام صناعيا رغم توفر مقومات نهضته ولذلك استمرت أساليب الانتاج التقليدية (الزراعة بالأساليب المتأخرة والرعى الذى تقوم به العشائر الرحل) هى الشائعة فى العالم الإسلامى.

وقد أدى ضعف العالم الإسلامى إلى تقلص أطرافه تدريجيا، فقد وصلت جموع العرب المسلمين إلى قلب فرنسا فى أوائل القرن الثامن الميلادى، ودقت الجيوش العثمانية أبواب مدينة فينا عام ١٦٨٣ ولكن هذا المد الإسلامى بدأ فى التقهقر والتراجع، وكانت أولى المناطق التى فقدها العالم الإسلامى هى الاندلس الأرض الإسلامية العربية التى وعت الحضارة وحفظتها وعلمت الأوروبيين ألف باء المدنية. وهناك العديد من المناطق التى فقد فيها المسلمون أكثريتهم فقد تناقصت أعداد مسلمى الحبشة وتنزانيا بسبب العوامل الطائفية والظروف الاستعمارية. لقد كان المسلمون سادة الحبشة حتى جاء البرتغاليون إلى المياه الاسلامية الجنوبية فى القرن السادس عشر وتحالفوا مع الحبشة ضد المسلمين فى تلك المناطق، اما تنزانيا وكانت تعرف باسم تنجانيقا - فظلت تحت الحكم العربى حتى القرن التاسع عشر عندما سيطر الانجليز على أسرة البوسعيد الحاكمة هناك (١٧٤١ - ١٨٦١)[1]. فلم يقتصر ممتلكات دولة البوسعيد على الساحل الشرقى لافريقية، وانما امتدت امتداداً واسعا إلى أواسط القارة الافريقية خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر،

---

(١) انظر جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد فى عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١ - ١٨٦١) القاهرة، ١٨٦٧.

- E.D. Morel; Nigeria, its people and its problems

واستطاعت أن تساهم فى نشر الإسلام والحضارة العربية، والقاء كثير من الأضواء على مجاهل القارة الافريقية بواسطة قوافل التجارة التى كانت تربط بين الساحل والداخل بمراكزها الحضارية المتناثرة التى كانت عونا كبيرا لرواد حركة الكشف والارتياد الأوروبى. غير أن هذه الدولة لم تستطع أن تصمد فى وجه التنافس الأوروبى، والصراع الذى احتدم بين الدول الامبريالية للسيطرة على القارة الافريقية مما ترتب عليه تقسيم اجزائها فانفصل قسمها الآسيوى عن الافريقى (١٨٦٢)، ثم تقاسمت كل من انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا القسم الافريقى ١٨٨٦ و ١٨٩٠ ولم يعد هناك سوى بقايا متناثرة لهذه الدولة فى جزيرتى بمبا وزنجبار.

كما كانت هناك أجزاء من الوطن العربى - وهو جزء من العالم الإسلامى - معرضة للضياع، ونقصد بذلك ادعاء فرنسا أن الجزائر قطعة من فرنسا ومحاولاتها المستميتة لخلق شعب فرنسى على طول الساحل الجزائرى - على الأقل - ولقد حاولت ايطاليا الفاشستية أن تفعل بليبيا نفس الشيء ولكن باءت محاولتها - مثل المحاولة الفرنسية - بالفشل وذلك ليس فقط بسبب قوة المقاومة المحلية ضد الفرنسيين والايطاليين ولكن بسبب الدور الذى قام به المصريون فى الدفاع عن حقوق عرب الجزائر وعرب ليبيا حتى لقد كانت الفرصة الأخيرة لفرنسا فى الجزائر تتوقف على انتصار عسكرى حاسم على مصر فى عام ١٩٥٦، ولكن باء العدوان بالفشل واضطر الفرنسيون إلى الجلاء عن الجزائر.

ولاينبغى أن يخفى ذلك التراجع عن الأرض - فى تلك البقاع التى سبق الاشارة اليها - تراجعا آخر عن الفكر الاسلامى الحقيقى، فهناك اتجاهات علمانية قوية فى بعض البلاد الاسلامية مثل تركيا منذ عهد مصطفى كمال

أتاتورك الذى ألغى الخلافة وركز على اللغة التركية غاضا الطرف عن اللغة العربية لغة القرآن الكريم. لقد ولع الأوروبيون بتضخيم الفوارق بين المسلمين سواء من حيث العنصر أو من حيث المذهب أو الأرض التى يعيشون عليها. قد يكون هذا الاتجاه مقصودا من بعض المؤرخين الأوروبيين، وقد يكون انعكاسا لمنهج البحث التاريخى لديهم، حيث أن الأوروبى يعامل الأقطار العربية على أنها وحدات قومية قائمة بذاتها. فلا علاقة بين اليمن وجاراتها مثلا - من وجهة نظر غالبية المؤرخين الأوربيين - سوى العلاقات المادية بين دولة ودولة. ولقد قوى هذا الاتجاه بسبب الاستعمار الأوروبى فى العالم العربى والاسلامى. فأصبحت الحدود دولية، وأصبحت قوانين الجنسية والاقامة تطبق بدقة متناهية. بل لقد ظهرت إلى جانب ذلك مشكلات طائفية عمقت من هذه الفواصل الحديثة.

كانت هناك طوائف اسلامية متعددة منذ صدر الاسلام، وكانت هناك مذاهب متعددة كذلك، ولكن غالبيتها العظمى تختلف فى التفاصيل وليس فى الأصول. وعمل الاستعمار الأوروبى على تعميق هذه الخلافات المذهبية وتحويلها إلى مفاهيم متناقضة فى بعض الأحيان. فعندما جاء نابليون بونابرت إلى مصر عام ١٧٩٨ وقوبل بثورات كثيرة تأكد أنه يعيش على أرض معادية ولجأ إلى التفرقة الطائفية. وأقدم الفرنسيون على تكوين فرقة عسكرية من أقباط مصر مستغلين العاطفة الدينية. كما تبنى الانجليز بعد احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢ شعار حماية الأقليات، واعتبروا أقباط مصر من الأقليات وليسوا مواطنين الأمر الذى رفضه الأقباط أنفسهم وتجلى ذلك فى مشاركتهم فى ثورة ١٩١٩ متجاهلين بذلك دعوى الطائفية التى حاولت بريطانيا بذرها فى مصر. وقد كشف أحد الوطنيين السودانيين فى نشرة له ما كان يفعله الانجليز من أجل التفرقة بين المسلمين والمسيحيين ومن أجل القضاء على الاسلام وايقاع الفرقة بين أهله تمكينا لسياستهم الاستعمارية فى مصر والسودان. وقد

أورد مدثر عبد الرحمن (فى كتابه: الامبريالية والقومية فى السودان، ص ٩٢ - ٩٣) هذه النشرة التى جاء فيها:

«ان هدف السياسة (البريطانية) خلق انقسامات بين مختلف القبائل لاكتساب مساعدة الواحدة ضد الأخرى.... جردوكم من أراضيكم التى تملكونها بحقوق قانونية.... بغية اعطائها إلى الشركات الانجليزية... انظروا إلى مدارسهم فى الخرطوم وأم درمان حيث يرغم الطلبة على حضور التبشير بالانجيل ثم ان الحكومة آخذة أيضا فى ادخال المسيحية إلى جميع أنحاء السودان الجنوبى.. فى الخرطوم ذاتها ست كنائس وجامعا واحدا فقط وهو الذى لم يتم بناؤه بعد طوال عشرين سنة.... ان الانجليز قد تبنوا سياسة التفرقة بين المحمديين والأقباط فى مصر، ناشرين الدسائس بين.... الفريقين على أنه متى عرف الفريقان ذلك واتحدا معا فانهما يتوصلان إلى تحقيق غايتهما والله هو المعين اتحدوا مع اخوانكم المصريين واعملوا من أجل استقلالكم..... ان اخوانكم المصريين يعملون الآن من أجل أنفسهم ومن أجلكم».

وطالب بعض الوطنيين فى السودان بازالة «القيود المفروضة على الاسلام فى السودان الجنوبى» ولم يقتصر الأمر على ذلك ففى العراق مثلا اجتهد الاستعمار فى خلق سلسلة من المشاكل المعقدة أمام الأخوة الاسلامية فقد خلق من النساطرة قوة ضاربة طائفية لم تصف مشاكلها الا بعد صدام دموى عام ١٩٣٣[1]. كما لم يكتف الاستعمار بتعميق النزعة القومية بين العرب

---

(١) فى أغسطس ١٩٣٣، ثارت هذه الاقلية المسيحية لانها كانت تعتقد أنها ستصبح ذات امتيازات خاصة مستمرة فى العراق وأن السلطات البريطانية ستظل باستمرار تمدها بالحماية ولكن بعد توقيع معاهدة ١٩٣٠ بين بريطانيا والعراق لم تعد هناك حاجة من جانب الانجليز لهذه الأقلية وكان عليهم أن يعيشوا مواطنين عاديين لا امتيازات معينة لهم فأبوا ذلك وثاروا فكانت ثورتهم امتحانا للحكومة العراقية المستقلة وللجيش العراقى الذى كان فى دور التكوين وقد تمكن بكر صدقى - القائد العراقى المكلف باخماد التمرد - من التغلب على المتمردين واعتبر ذلك عملا وطنيا كبيرا.

والأكراد، بل تحدث المؤرخون البريطانيون واداريو الانتداب فى العراق عن هوية العراق الشيعية، وعن أنه مكون من أكثرية شيعية تحكمها أقلية سنية، وتحدثوا عن أن ارتباطه مع ايران على أساس الطائفية الشيعية هو الارتباط الأوفق. وهكذا استغل الاستعمار هذه الثغرة فوسعها وباركها. وأصبحنا نرى السنى يخاصم الشيعى، والشيعى يلعن السنى، بل أن الشيعة انفسهم متفرقون هذا إمامى ، وذاك زيدى، وذاك درزى، مذاهب مختلفة وعقائد متعددة فى ظل دين واحد ورسول واحد يستغلها ذوو النيات السيئة وأصحاب المقاصد المغرضة فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض ومن المؤسف أن الاستعمار استطاع أن يجد أعواناً فى بعض البلاد الاسلامية من أبناء المسلمين أنفسهم ففى الهند والباكستان كان ينادى ميرزا غلام القاديانى علناً وفى مقالاته بمهادنة الانجليز وتعطيل الجهاد من اجل بقاء الاستعمار فى ارض يعيش فيها اكثر من مائة وثلاثين مليون مسلم، وفى سوريه استطاع الاستعمار الفرنسى أن يستخدم بعض ابناء المسلمين من العلويين وأن يستعين بهم فى خلق فتنة بعد الاستقلال مباشرة.

ومن هذا العرض المختصر تتضح لنا جهود خصوم الاسلام لتعمين الفوارق بين أهله، ولكن ذلك كله قد فتح اعين العالم الاسلامى على مواطن عجزه ونقصه، وتعلم قهراً ما كان يأبى أن يتعلمه باختياره، فأدرك حاجته إلى التغيير العاجل، وأدرك ما هو الزم له من ذلك وهو حاجته إلى علم يجهله، واعتقاده أن امم الغرب قد انتصرت بذلك العلم عليه، وأنه لا غنى له عن ذلك العلم ليستعيد القوة التى انتصر بها على اعدائه، قبل أن ينتصروا عليه ويأخذوا عليه كل طريق غير طريق الفناء أو التغيير، ومن لم يطلب التغيير بعلم يتعلمه من المنتصرين عليه فقد آمن بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. لقد

كان نظام الإسلام هو «الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي» [1]. ولذلك أدرك جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) ومحمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) القوة الكامنة في الاسلام فاستهدفت دعوتهما حفز الهمم والاستمساك بآصرة الوحدة الاسلامية، فكان العداء التاريخي المعروف بينهما وبين المستعمر، وكان «تهييج الخواطر» تهمة التهم التي شرعها في وجهيهما، يريد بها ان يمسكهما عن ايقاظ المشاعر والابقاء على العالم الاسلامي جثة هامدة تجرى الامور لغاياتها، وهو لا يجرى إلى غاية واحدة.

كان الاستعمار لا يعنيه منطق الظروف ولا حكم التاريخ لأنها ظروف الشعوب المستضعفة وتاريخ الأجناس الدنيا، فكانت «الجامعة الإسلامية» دعوة إلى التعصب ودعوة إلى العصور الوسطى، ونسى الاستعمار أنه هو الصليبية بعينها، بل هو أخطر استمرار لها في التاريخ الحديث، وإنما أراد بذلك الاتهام أن يصرف الناس عن كل ولاء يجمعهم عليه في الحرب والكفاح. ومع هذا فقد رد الأفغاني والامام هذه التهمة وأزاح كلاهما هذه الشبهة، فقد جاء عنهما في «العروة الوثقى» عام ١٨٨٤ [2]:

«ولا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين، بالذكر أحياناً، ومدافعتها عن حقوقهم، تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في اوطانهم. ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة، فليس هذا من شأننا ولا نميل إليه ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا، ولكن الغرض تحذير الشرقيين والمسلمين خصوصاً من تطاول الأجانب عليهم، والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم

(١) عمر فروخ، التبشير والاستعمار، ص١٧٨.

(٢) تاريخ الاستاذ الامام، جـ١ / ٩٨٩.

العنصر الغالب فى الأقطار التى غدر بها الأجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين».

ولا يقال هذا كلام من باب السياسة واستقطاب الاتباع، لأن الأفغانى والامام كليهما كان منفياً عن وطنه، ولا يطمع فيه طامع، ولا هو زعيم سياسى يعنيه استجلاب الرضى أو اجتناب السخط، وإنما هو وجه الحق الكامن فى هذه الدعوة، وما فيها من القيم السياسية والانسانية الجامعة التى لا اختلاف عليها بين عامة المنصفين.

وبرغم أن الوحدة الاسلامية كانت هدفاً كبيراً خلال القرن التاسع عشر إلا أنها انهارت بفعل عوامل مؤثرة من أهمها الزحف الاستعمارى وانتشار الفكر القومى والأيديولوچيات الحديثة، وقد رأى البعض أن إثارة فكرة الوحدة الإسلامية كفيل بأن يثير مشاكل طائفية أكثر، وأن القوة الجديدة كامنة فى الاسلام كدين ومدى علاقته بالقومية المحلية نفسها. وهناك من وضع الدين وجها لوجه مع القومية ولكن هناك من رأى أيضاً «أن الدين عنصر والقومية مركب ... وليس من تناقض أو تعارض بينهما ... إن الاسلام يعطى القومية العربية لونها الخارجى ... أن النمط العلمى والشرعى ... للعالم الإسلامى هو أن مجموعة من الدول القومية المكتملة، المتصلة دستورياً المتعاونة روحياً»، ولا شك أن كافة الامكانيات التى يمكن أن يقدمها المسلمون لأنفسهم وللعالم الحضارى تكمن فى قدرتهم على شعور المواطن المسلم فى أى بلد بقدرته على العمل انتاجياً مع اخوة لهم حتى ولو كانوا فيما وراء البحار، أى ظهور نوع من وحدة الدين والعمل بين المسلمين تتعدى القيود القائمة ولا تصطدم بها وتضع المسلمين أمام عدوان طائفى من قبل الامبريالية والاستعمار.

القسم الأول
الدولة العثمانية

١- الدولة العثمانية : خصائصها ومميزاتها.

٢- الفكر الغربى الجديد وأثره فى الدولة العثمانية الإسلامية.

٣- موقف بريطانيا من حركة الجامعة الإسلامية والخلافة.

١ - الدولة العثمانية: خصائصها ومميزاتها :

شهد العالم الإسلامى فى القرن السادس عشر تغييرات اساسية، ففى السنوات الأولى من هذا القرن اصطدمت الدولة العثمانية بدولة المماليك، وعقدت ألوية النصر للدولة الأولى وورثت ملك المماليك فى مصر والشام. ثم امتد ملك العثمانيين بعد هذا وفى هذا القرن أيضاً، حتى شمل بلاد العرب واليمن فى آسيا، والجزائر وتونس وطرابلس فى افريقيه، ولم يبق خارجا عن ملك العثمانيين غير مراكش (المغرب). وقد كان لهذا التوسع اثره البالغ فى تاريخ العرب، ففقدوا فى مطلع القرن السادس عشر كيانهم الدولى الخاص وتحددت علاقاتهم مع بقية دول العالم الأخرى عن طريق الدولة العثمانية صاحبة السيادة. واصبح الأوروبيون فى علاقاتهم مع العالم العربى يخلطون بين العربى والتركى، حتى كادت فكرة العربية تزول من أذهانهم بانزواء العرب عن ميادين السياسة الدولية والاقتصاد العالمى.

ولقد استفاد العثمانيون الكثير من التوسع فى داخل العالم العربى، فقد جعل هذا التوسع من العثمانيين اعظم الحكام فى العالم الاسلامى إلى الغرب من ايران ومكنهم من حيازة قوة بحرية تكون لهم فى المحيط الهندى كما فى البحر المتوسط. واهم من ذلك أن هذا التوسع قد جعل الحكومة العثمانية فى تماس وثيق واحتكاك وشيك بأقدم حضارة اسلامية، عن طريق مدارس العلم العظيمة فى القاهرة ودمشق وحلب، وبالمنبع الأصلى لعلوم أصول الدين وعلوم الشريعة، وبطبقة من طبقات المجتمع المدنى تضيف إلى الدولة الإسلامية الجامعة الجديدة مالها من تقاليد خاصة بها فى ميدان الزعامة الإجتماعية، وفى احداث توازن بين الحكومة من جهة والقوى الإجتماعية فى الامة من جهة أخرى. ولكن الأهم من هذا كله أن العثمانيين

اصبحوا منذ ذلك الوقت فصاعداً حكام المدن المقدسة مثل القدس، والمدن الشيعية فى العراق كالنجف وكربلاء، ومكة المكرمة والمدينة المنورة وطرق الحج الكبرى المؤدية إلى هذه المدن جميعها. وكان الحجاج فى كل سنة من مصر وشمال افريقيا يجتمعون فى القاهرة وكانوا من تركيا والقفقاس وسوريا والعراق وايران يجتمعون فى دمشق، ثم بعد ذلك يسيرون بقيادة المسئولين فى طريقهم إلى مكة المكرمة تحت الحماية. وكانت المدن المقدسة وسكانها فى حاجة إلى الحماية والقوت، لا بد من توفيرهما لها، كما كان لا بد من المحافظة على سلامة الدين القويم الذى كان الحج شعاراً من شعائره.

وكانت الدولة العثمانية، من هذا الوقت حتى نهايتها، تتميز بصفة لها مركبة من عوامل مختلفة. فهى أولاً كانت دولة من أسرة واحدة، يتركز الولاء فيها على اسرة آل عثمان وليس على فرد معين من افرادها حيث تكون السيادة مطلوبة من الأسرة بأجمعها وكانت ثانياً دولة تركية، فالأسرة الحاكمة اسرة تركية تدعى الانتماء فى الاصل إلى قبيلة أو غوز التى تحدر منها السلجوقيون ايضاً من قبل. وقد تتشبث بهذه الوحدة العرقية لتستهوى بها رجال القبائل الأتراك. وكانت فى جميع ادوارها التاريخية تستعمل بعض الرموز والأساليب المستمدة من اصول قبلية تركية، كأذناب الخيل التى كانت علامة على الرتبة فى الحكومة.

وكانت لغة البلاط ولغة القيادة فى الجيش ودوائر الحكومة اللغة التركية، وكانت ثالثاً دولة إسلامية وهذا لا يعنى ان السلطان كان يرى نفسه أنه خليفة المسلمين، ولو ان العثمانيين كانوا فى بعض الأحيان يستعملون لقب الخليفة، فإنهم كانوا يستعملونه بدون أن يقرنوا به معنى من المعنى التاريخى المعروف، وإنما استعملوه بمعناه العام المتأخر لاطلاقه على أى سلطان يكون

في مقدوره المحافظة على أوامر الدين وشرائعه. واستعملوا اللقب في بعض الاحيان رمزاً للاحترام والثناء في كلامهم عن الحكام المسلمين الآخرين وحذفوه في بعض الأحيان الأخرى من القابهم الخاصة بهم، وإليكم على سبيل المثال جدولاً بالألقاب التي ورد ذكرها في مجموعة من المراسلات الدبلوماسية العثمانية: البادشاه الذي مجده في العلاء يباري السماء، ملك الملوك الذين هم نجومه تاج رأس الملك، ظل المعطي، ذروة الملك خلاصة كتاب حسن الحظ، حظ العدل المستوى كمال المد الاعلى للجلالة، بحر الاحسان والانسانية، معدن جواهر الكرم منبع مآثر البسالة، كاتب العدالة على صحائف الزمان سلطان البرين والبحرين وخاقان المشرقين والمغربين وخادم الحرمين الشريفين.

لقد ارسل السلطان سليم الأول الخليفة العباسي المتوكل على الله وابناء عمه خليل الى استانبول بعد أن تم له فتح مصر عام ١٥١٧. وعاش الخليفة في عاصمة الدولة العثمانية حياة ملؤها الاسراف والبذخ، وكان دائم الخلاف مع اولاد عمه، مما جلب عليه غضب السلطان سليم، فأمر بابعاده خارج العاصمة ولما ولي السلطان سليمان عرش العثمانيين اعاده الى استانبول، ثم اذن له فيما بعد بالعودة إلى القاهرة التي عاش فيها وكان لا يزال يحمل لقب الخلافة إلى أن مات عام ١٥٣٨ وبموت المتوكل على الله انتهت الخلافة العباسية بمصر.

ولقد سكتت المصادر التركية والعربية التي عاصرت فتح الشام ومصر عن ذكر شئ عن الخلافة أما المصادر التي لم تعاصر الفتح، فمنها ما قال بتنازل الخليفة العباسي عنها الى السلطان سليم العثماني ومنها ما نفى هذا التنازل واكد على عدم انتقال الخلافة إلى العثمانيين. ولا يوجد لدينا دليل يؤكد

انتقال الخلافة إلى السلطان سليم فكتاب التاريخ من العثمانيين الذين واكبوا الحملة على مصر وعاصروا الفتح امثال ابن كال وحيدر ومترقجى نصوح (فتح انامه ديار العرب) وجلال زادة قوجة نشانجى مصطفى (مآثر سليم خانى طاب ثراه) لم يذكروا شيئاً عن الخلافة. ولو كانت انتقلت إلى السلطان سليم. لذكرها هؤلاء فى كتبهم فهى من المسائل الهامة التى لا تغفل. كما لم يذكر مؤرخا العرب وهما ابن اياس (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) وابن زنبل (آخرة المماليك – وقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى) شيئاً عن انتقال الخلافة على الرغم من ان ابن اياس ذكر سفر الخليفة العباسى الى استانبول وحزن على فراقه كما ذكر اخباره فى استانبول فى مختلف المناسبات. وكان ابن اياس فى كل مرة يلقب المتوكل بالخليفة ويسمى سليماً وسليمان باسم السلطان. ولو كانت الخلافة انتقلت إلى السلطان سليم لأفرد لها المؤرخان المذكوران الصفحات الطوال، نظراً لأهمية هذا الموضوع عند العرب والمسلمين قاطبة.

وتفيض بعض كتب المؤرخين المحدثين المعاصرين لنا فى ذكر العديد من الحكام والسلاطين من العثمانيين وغيرهم الذين كانوا ينعتون انفسهم بلقب الخلافة فى مراسلاتهم أو عملاتهم ، أو يلقبون سواهم بهذا اللقب فى مراسلاتهم، ولكن هذا كان على نطاق محلى من وجهة نظرى، لم يتعد حدود ارض الحاكم أو السلطان، فلا يعنى أن يلقب احدهم نفسه أو غيره بهذا اللقب أن يصبح فعلاً خليفة على المسليمن قاطبة لكنه كان من قـ الفخر واظهار العظمة والأبهة لا غير. أما لماذا لم يتلقب من فتح مصر بلقب الخلافة، فيعزى ذلك فى نظرى إلى أنه اعتبر مقام الخلافة لا يكون إلا فى الدوحة النبوية أو فى بنى قريش وأمامه دليل قوى من عدم تلقب المماليك بهذا اللقب.

وهكذا فإن لقب الخليفة غير وارد فى هذا الذكر، بل ان السلطان العثمانى لم يبدأ فعلاً إلا فى القرن التاسع عشر فى الادعاء جدياً بالخلافة على جميع المسلمين، ليتخذ ذلك وسيلة يجتمع بها المسلمون فى داخل الامبراطورية وخارجها على تقديم العون والمساعدة وينذر بها الدول الأوروبية من عاقبة التجرؤ والتجاوز عليه بشدة فوق الحد المعقول. وكان المنوال الذى سارت عليه الدولة العثمانية حتى ذلك الوقت هو ان السلطنة كانت دولة تحكم فى نطاق الشريعة الاسلامية وتعكف على تحقيق اغراض الاسلام الكبرى، وكانت سنية المذهب عن شعور زاده حدة طول الصدام مع الدولة الصفوية التى كانت شيعيه. وبفضل ما كان للاتراك من قريحة وحب للترتيب والوضوح قامت الدولة العثمانية بتنظيم العلماء على شكل سلسلة من المراتب بدرجات معينة معلومة وبوظائف رسمية لها مرتبات تجرى عليهم بانتظام. وكان رؤساء هذه المراتب الدينية وهم شيوخ الاسلام وكبار شيوخ القضاء والافتاء، يستشارون فى شئون الدولة العليا وكان القضاة فى الأقاليم السبيل الاكبر الذى كان يجرى عن طريقه الاتصال والترابط بين الحكومة المركزية والرأى العام لمسلمى المدن الكبرى. وأولت الحكومة رعايتها وحمايتها للمدارس الاسلامية فى المدن العربية، وقامت هى من قبلها بتأسيس مدارس جديدة فى استانبول لتخريج رجال الدين وملء المراكز العليا فى الإدارات والمصالح الدينية. ومدت الدولة أيضاً يد العون المالى الى بعض الطرق الصوفية أو على الأقل إلى الطرق الصوفية القوية المذهب، واحظتها بتفضيلها لها.

ولكن الامبراطورية العثمانية، رابعاً كانت لا تزال دولة من نوع آخر، اى امبراطورية عالمية جامعة متماسكة فى اطار موحد من النظام والإدارة وبولاء مفرد لأسرة حاكمة واحدة فى مناطق مختلفة عديدة: البلقان وآسيا الصغرى

وبلاد آسيا الغربية ومصر وساحل شمال افريقيا، وجماعات من اعراق متباينة : اليونان والعرب والبلغار والرومان والترك والعرب والاكراد والأرمن وطوائف دينية متغايرة: الروم والارثوذكس والارمن والاقباط والموارنة وغيرهم من المسيحيين واليهود من فرق غير واحدة، وانظمة اجتماعية متفرقة بين سكان المدن والفلاحين فى السهول والوديان والقرويين فى الجبال - (كالالبانيين والأناضوليين الشرقيين والاكراد واللبنانيين) ورجال القبائل البدوية فى السهل والصحراء. وفى معاملات هذه الدولة مع هذه الجماعات والطوائف نراها تقترب من مثال للحكم كان شائعاً فى العهد المتأخر من التاريخ الإسلامى، وهو مستمد من بعض الوجوه من رأى فارسى قديم عن الملكية ومستمد من بعض الوجوه الأخرى من فكرة افلاطون (فى كتابه القوانين وليس فى كتاب الجمهورية) وهى المثال الاكمل للحاكم المستبد الذى يكون فى معزل عن المجتمع المحكوم له ويكون غير مسئول إلا امام الله وامام نفسه الخاصة به فى اسمى حالاتها، وينظم طبقات ذلك المجتمع المختلفة بهدى من مبادئ العدالة حتى تتمكن كل طبقة منها من أن تسير بحسب طبيعتها الخاصة بها وأن تعيش فى وفاق مع غيرها وأن تسهم بنصيبها من أجل الخير العام.

وإذا نظرنا إلى الدولة العثمانية من وجهات النظر المختلفة، باعتبارها دولة إسلامية وتركية وعالمية وجدنا أنه لم يكن فيها حواجز وحدود معينة تحجب العرب وتقصيهم عن الانخراط فى هذه الدولة (أو تحجب وتقصى على الاقل الأغلبية العظمى من الشعوب المسلمة الناطقة باللغة العربية). وقد سبق أن ذكرنا أن - الجماعة الحاكمة فى هذه الدولة تركية ولكن تركيبتها هذه لم تكن على اساس الجنس والعرق وكانت الوظائف العليا فى الدولة مباحة لجميع المسلمين ولو أن الذين ملأوا هذه الوظائف العليا فى الدولة، كما يبدو

كانوا من اصل عربى، كانوا قلة ضئيلة. ويستثنى من ذلك بعض الحالات ومنها على سبيل المثال ابن فخر الدين المعنى الثانى امير لبنان فى القرن التاسع عشر، فقد دخل هذا فى خدمة القصر العثمانى بعد مقتل ابيه فى اعقاب خروجه على الدولة واصبح موظفاً مشهوراً بين موظفى البلاط وسفيراً للسلطان لدى امبراطور المغول فى الهند. ومن ذلك ايضاً ما سمعناه عن وضع ولاه من اصل محلى فى الأقاليم، كأسرة الجليلى التى حكمت فى الموصل مدة استغرقت معظم القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وهى فى الاصل اسرة مسيحية من شمال العراق ثم اعتنقت الديانة الإسلامية، ومع ذلك فإن العرب بصورة عامة لم يكن لهم سلطة سياسية مباشرة فى إدارة الحكم فى الدولة العثمانية.

ولكن العرب وجدوا مجالاً أوسع لهم فى سلك الوظائف الدينية وكانت مراتب هذا السلك وسيلة للتنقل والعمل فى المجتمع لأن لغة علوم الدين والشريعة كانت العربية وكان العلم والتمسك بالدين من حيث المبدأ الواسطتين الوحيدتين اللذين يحتاج إليهما للوصول إلى الوظائف الدينية، هذا مع العلم بأن حقيقة الأمر لم تكن على هذا القدر من البساطة ويدلنا على ذلك أن المراكز العليا فى سلك الوظائف الدينية كانت اقرب تناولاً لخريجى المدارس السلطانية فى استانبول ولافراد الاسر التى لها عهد قديم مأثور فى خدمة الدولة حتى أن القضاة فى الولايات كانوا يختارون من هذه الطبقة المفضلة ويرسلون من استانبول للعمل هناك لمدة محدودة، ومن هذا يتبين لنا مرة اخرى ان العثمانيين بحكم الغريزة كانوا يمنعون الفرد من رعاياهم أن تكون له سلطة اكثر مما يجب أو أن تكون له مدة اطول مما يجب. ويأتى بعد القضاة فى عواصم الولايات موظفون آخرون كنواب القضاة والمفتين

للمذاهب المختلفة ونقباء الأشراف الحافظين لانساب الاشراف من سلالة النبى «ﷺ»، وهم طبقة الارستقراطيين الوحيدين من حيث النسب وكان هؤلاء جميعاً من سكان الولايات المحليين وكانوا فى المدن العربية فى اغلبهم من الاسر العربية العريقة الشريفة التى اشتهر عنها العلم والسيادة والزعامة وهى اسر ينتهى النسب ببعضها إلى ما قبل زمن العثمانيين وكان لها دور فى المقدمة حتى الأزمنة الحديثة - كآل البكرى فى القاهرة وآل الخالدى والعلمى فى القدس وآل الجابرى فى حلب وآل الكيلانى فى بغداد. وكان هؤلاء الاشراف فى عهد العثمانيين وقبله يقومون بدور الوسيط بين رجال السيف والسكان المحليين من عامة الناس. وكانوا فى اهم الأمور موالين للسلطان مخلصين له، مع كونهم فى الوقت نفسه الزعماء فى مدنهم وورثة الحضارة المدنية الإسلامية. وقد حاول هؤلاء فى بعض الاحيان أن يحدوا من جماح السلطة العثمانية أو نفوذها، وكانت الوسائل لهذا العمل متاحة لهم لأنهم كانوا يستطيعون تعبئة الرأى العام وتجنيده عن طريق استخدامهم للوعاظ ومشايخ الحارات وزعماء المنظمات الشعبية، بالإضافة إلى ما كان لهم من تأثير ونفوذ عن طريق الروابط المتصلة بينهم وبين اصحاب الوظائف الدينية على اختلاف درجاتهم فى جميع انحاء الامبراطورية وعلى رأسهم الرؤساء الدينيون فى استانبول.

والذى استطاعه هؤلاء فى المدن كان زعماء العشائر وشيوخ الجماعات العرب يستطيعونه فى الريف والصحراء ومن هؤلاء شيوخ القبائل البدوية وزعماء الجماعات الجبلية وأصحاب القلاع والحصون كالذين تولوا منهم على قلاع الصليبيين فى سوريا وأخذوها منهم من بعدهم وفرضوا من هذه القلاع سلطتهم على ما جاورها من البلاد، وكانوا كما كان زعماء المدن

واشرافها، فى وضع مبهم يقومون فيه بدور ثنائى: فكانوا يعترفون بالحكومة العثمانية فى صورة من الصور وينسجمون مع الإدارة والنظام المالى ولا يحاولون عادة الخروج عن طاعة الدولة ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يبذلون مقاومتهم للحد من زيادة التدخل من الدولة فى مقاطعتهم أو فى حكمها - وهنا ايضاً ترد علينا اسماء لا تزال مألوفة لدينا مثل آل شهاب .. وآل جنبلاط فى لبنان وآل عبد الهادى وطوقان فى نابلس، ومثلهم الاشراف فى مكة الذين يتصل نسبهم بالنبى (صلى الله عليه وسلم) والذين كانت لهم سلطة محلية فى الحجاز اعترفت بها بعض الاعتراف الحكومة العثمانية فى استانبول وهؤلاء هم اجداد الأسرة الهاشمية.

اصل العثمانيين ونشأتهم :

تلك نظرة سريعة وشاملة سنتناولها بالبحث والدراسة فى المحاضرات التالية ولكن لا تزال هناك مسألة هامة ينبغى الإشارة إليها فى هذا المجال وهى تتعلق بأصل العثمانيين ونشأتهم. والمتتبع لتاريخ الاناضول يلاحظ أنه قد اختلفت على هذا الاناضول الاسلامى وفى اماكن مختلفة منه دول تركية كثيرة، فبعد عام ١٠٧١ قامت فى شرق الاناضول دولة الدانشمنديين*، ودولة منكوجك (١٠٧١-١٢٥٢)، ودولة بنى سلدق (قامت فى أرضروم ١٠٧١-١٢٠١) وكانت كلها تجاهد البيزنطيين تحت حماية السلاجقة ثم قامت دولة سلاجقة الروم فاندثرت هذه الدول جميعاً. ولقد ظهرت فى فترة اضمحلال دولة السلاجقة، وبعد تمام انهيارها كدولة تركية جديدة فى غرب الأناضول

* كان لهذه الدولة شعبتان أحداهما فى سيواس (١٠٧١-١١٧٤) والاخرى فى ملطية (١١٤٢-١١٧٧).

وجنوبه، وكان مجموع المشهور من هذه الدول ست عشرة دولة من بينها دولة العثمانيين. ولكن هذه الدولة العثمانية قدر لها من بين الدول التركية ان تصبح امبراطورية مترامية الاطراف وان تحكم كما أوضحنا - شعوباً ومللاً ونحلاً غير متجانسة وأن تكون أطول دول الترك بقاء إذ عمرت ٦٢٣ عاماً (١٢٩٩-١٩٢٢) واختلف على عرشها اربعون حاكما الثلاثة الأول منهم بكوات - والباقى سلاطين.

ولقد ورثت هذه الدولة حضارة السلاجقة وحضارة الدول التركية الاناضولية واخذت نظم الادارة عن دولة المماليك وعن الايلخانيين وتأثرت بالبيزنطيين والصقالية وتبع من العثمانيين فى عهد سليمان القانونى طائفة من مشاهير علماء الاسلام اشهرهم شيخ الاسلام ابن كمال باشا صاحب المكانة المرموقة منذ أيام سليم الأول وابو السعود افندى صاحب التفسير وتؤيد دراسة الفنون التركية تأثير العثمانيين أيام السلطان محمد الفاتح بحركة النهضة (Renaissance) فى ايطاليا. ولكن الدولة اخذت فى الضعف منذ ايام سليمان القانونى نفسه فبدأت تعانى من انتفاضات الانكشارية والصراع على العرش، ودسائس الجوارى ثم ظهور النزعات الاستقلالية ومقاومة المسيحيين فى البلقان. وكان الجمود والتمسك بالنظم البالية من أكبر عوامل الانهيار والضعف. فبينما قضت أوروبا على الاقطاع واقامت الحكومات المركزية القوية، وأخذت سفنها تجوب البحار حتى غيرت مسالك التجارة البحرية وفى ذلك الوقت ازدادت الدولة العثمانية استمساكاً بتقاليدها القديمة وبتكتيكها الحربى القديم فتوالت عليها الهزائم وحاولت الامبراطورية العثمانية اصلاح نفسها، ولكن كل الحركات الاصلاحية باءت بالفشل وقد درست هذه الحركات ونشر الكثير من وثائقها. كما بحث المؤرخون فى اسباب انهيار

الامبراطورية العثمانية واصبحت مقدمة تقليدية لكل من تناولوا تركيا الحديثة. ولكن مشكلة قيام الدولة العثمانية ظلت مختلطة بالاساطير، ولم تحل حلا نهائياً. إذ تندس فى التاريخ المبكر للعثمانيين روايات ادنى إلى الاساطير منها إلى الحقائق، وعلى الرغم من أن المؤرخين استقوا هذه الروايات من الحوليات العثمانية القديمة فإنهم لا يزالون على خلاف عميق حول قيمتها التاريخية منهم من يلقى عليها ظلالاً كثيفة من التشكك فيها ومنهم من يعتبرها حقائق لا تشوبها شائبة من ارتاب تأسيساً على أنها دونت بمعرفة إناس عاصروا احداثها.

وفى عام ١٩٣٤ ألقى محمد فؤاد كوبريلى ثلاث محاضرات فى مركز الدراسات التركية بالسربون وحاول فى تلك المحاضرات ان ينفى عن هذه المشكلة خبث الاساطير وقدم لها بدراسة ببيليوجرافية نقدية تناول فيها ما رجع إليه مؤرخو هذه المشكلة من مصادر وما غفلوا عنه أو جهلوه ولم يحسنوا استغلاله. ولقد حاول الأستاذ بول وتيك (Paul Wittek) فى محاضرات القاها فى جامعة لندن عام ١٩٣٧ ونشرتها الجمعية الاسيوية الملكية عام ١٩٣٨ بعنوان «قيام الامبراطورية العثمانية» (The Rise of the Ottoman Empire) أن يعقب على كوبريلى ولكن إذا استثنينا قوله ان انتماء العثمانيين إلى قابى اسطورة صدقها كوبريلى، أمكن القول بأنه لم يعقب بشئ ذى بال، بل يمكن القول بأنه أفاد من محاضرات كوبريلى. وقد استعرض كوبريلى الآراء السائدة فى موضوع نشأة الدولة العثمانية وخصوصاً آراء جيبونز (Gibbons) التى وردت فى كتابه الذى نشره عام ١٩١٦ بعنوان تأسيس الامبراطورية العثمانية The Foundation of the Ottoman Empire .

وتتلخص آراء جيبونز فى النقاط الاساسية التالية :

١- كان أرطغرل ابو عثمان الذى نسبت إليه الامبراطورية رئيس قبيلة صغيرة وفدت علي الاناضول فى عهد السلطان السلجوقى علاء الدين الأول فارة من خوارزم أمام زحف جنكيز خان واستقرت فى سكود فى شمال غرب الاناضول.

٢- وكان عثمان وقبيلته اتراكا كفاراً يزاولون الرعى، فلما عاشوا فى بيئة اسلامية دخلوا فى الاسلام كأبناء جلدتهم من الترك السلاجقة، وآثار فيهم هذا الدين الجديد رغبة فى ادخال الناس فيه فأرغموا جيرانهم الاغريق الذين كانوا يعيشون معهم فى صداقة على الدخول ايضاً فى حوزة الاسلام، ولم يكن تحتا امرة عثمان قبل دخوله فى الاسلام إلا اربعمائة محارب يقيمون فى دورهم ويزاولون حياة فارغة وادعة.

ولكن عدد العثمانيين ما لبث أن ضوعف بين سنتى ١٢٩٠ و ١٣٠٠ وامتدت حدودهم حتى صاقبت حدود البيزنطيين وأدى ذلك إلى ظهور جنس (Race) جديد انتسب إليه رئيسه وذلك هو الجنس العثمانى، ولم يكن هذا الجنس تركياً خالصاً منذ بداية امره ولكنه كان جنساً جديداً مختلطاً ناشئاً عن ذوبان العناصر الاصلية وقوامه الاتراك الوثنيون والاغريق المسيحيون.

٣- وزاد جمهور العثمانيين بنسبة عظيمة فى وقت قصير، ومن الخطأ أن يعلل ذلك بالامدادات البدوية الجديدة الوافدة من الشرق لأن أراضى العثمانيين كانت تقع فى اقصى غرب الأناضول، وكان لا بد للكتل البشرية لكى تبلغ ذلك المكان أن تلتحق أولاً بخدمة حكام آخرين فى

شرق الأناضول وأن تأخذ منهم اراضى ومن هنا لا يمكن شرح هذه الزيادة إلا بذوبان العنصر المحلى المكون كله من الاغريق.

٤- ولا يمكن أيضاً أن تعلل سرعة تأصل الامبراطورية العثمانية فى البلقان بهذه الاسباب المذكورة وحدها فقد ساعد ايضاً على ذلك التأصل الموقف فى بيزنطه وفى البلقان وفى العالم الغربى.

ولما كان نصارى البلقان الذين دخلوا فى حوزة الحكم العثمانى لم يعيشوا مثل نصارى الاناضول قرزوناً فى جوار المسلمين فقد اتبعت فى عهد مراد الاول طرق جديدة لإدخالهم في الاسلام، ومن هذه الطرق ان اسرى الحرب كانوا يعتقون من الرق إذا هم دخلوا فى الاسلام. ولكن لما كانت هذه الطريقة لا تطبق إلا فى دائرة محدودة فقد كانت نتائجها ايضاً محدودة وظهرت الضرورة لتأسيس الجيش الانكشارى (الذى يتكون من ابناء النصارى) ولوضع نظام الدفشرمة الذى يدخلهم كرهاً فى الاسلام ولقد كانت العناصر الاغريقية والصقلية فى البلقان تفضل ان تدخل فى الاسلام افواجاً على ان تسلم ابناءها للعثمانيين. وهكذا يتضح ان جيبونز يحاول أن يرجع قيام الدولة العثمانية إلى سبب دينى خالص، وأنه يعتقد أن الدخول فى الدين الجديد اظهر جنساً جديداً هو الجنس العثمانى.

ويرى كوبريلى ان ارجاع واقعة تاريخية لها هذه الخطورة إلى العامل الدينى وحده أنما هو التعليل من جهة واحدة وأنه حتى إذا احتوى على حقيقة جزئية قاصراً دائما وغير مقنع أمام تعقد الحقيقة التاريخية. ويرى كذلك ان فكرة جيبونز القائلة بأن الامبراطورية العثمانية وضعت نظام الدفشرمة خصيصاً لنشر الاسلام فى البلقان فهى فكرة متعسفة لا تتفق مع

الوقائع التاريخية. ويضيف كوبريلى قائلاً : إذا أردنا أن نفهم حق الفهم كيف قامت الدولة العثمانية فيجب ... أن نوجه لدراسة التاريخ الاجتماعى للأناضول فى القرن الثالث عشر من العناية مالا يقل أن لم يكثر عن عنايتنا بدراسة تاريخية سياسية فى نفس الفترة ذلك بأننا لن نستطيع الوقوف على منشأ القوى المادية والروحية التى خلقت الدولة العثمانية فى القرن الرابع عشر الميلادى وهيأت لها اسباب التطور السريع ولا على منشأ العناصر الاساسية التى قامت عليها تلك الهيئة السياسية إلا إذا عرفتا الظروف الاجتماعية لسكان الاناضول فى القرن الثالث عشر فقد ورث القرن الرابع عشر - مع تغييرات طفيفة بطبيعة الحال - كثيراً من الأوضاع الاجتماعية لأناضول القرن الثالث عشر سواء من ناحية التكون الاثنوغرافى أو من ناحية التشكيلات الصناعية أو المؤسسات الاجتماعية أو النظم الاقتصادية وأنواع النشاط الثقافى، والواقع أن هذا القرن الثالث عشر - وهو أجدر فترات اناضول العصور الوسطى بالعناية وأحفلها بالحركات السياسية يعتبر - من حيث التبلور الاجتماعى - مرحلة من مراحل الانتقال والنشوء امتد أثرها إلى القرون التالية وبخاصة إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر قرن تأسيس الامبراطورية العثمانية، وقد شهد هذا القرن الثالث عشر دولة سلاجقة الروم تتسم الذروة فى ميدانى السياسة والثقافة وشهد - بعد الحرب الصليبية الرابعة - قيام امبراطوريتين اغريقيتين بالأناضول على انقاض - الامبراطورية البيزنطية وهما امبراطورية نيقية وامبراطورية طرابزون، وشهد المغول يقبضون فعلاً على ازمة الحكم فى الاناضول فيتحول الحكم السلجوقى إلى ظل تابع، ورأى عدا ذلك اتراك الاناضول يدمجون فى الامبراطورية الايلخانية، وحكومة القبيلة الذهبية وهى حليفة المماليك (بمصر وسوريا) وعدوة الايلخانيين تحاول ان تلعب فى

الاناضول دوراً سياسياً ورأى الامبراطورية البيزنطية تبعث من جديد في استانبول.

والنتيجة التى استطاع كوبريلى الوصول إليها هى ان العشيرة الصغيرة التى خرج - منها عثمان تنتمى إلى قبيلة قابى، وكان البعض قد أخذ بهذا الرأى ومنهم العالم الألمانى ماركوارت (J. Marquardt) [1] ولكنه اصر على أن يدعى أن قبيلة قابى هذه مغولية لا تركية، ولكن قبيلة قابى، وهى تكون منذ القدم شعبة هامة من شعب الغز، كانت تشارك الغز مضربهم الواسع ايام السلاجقة، وهاجرت من الشرق إلى الغرب، وقد توطن قسم من قابى بين ظهرانى التركمان فيما وراء بحر الخزر وتوطن قسم فى ماقدزان، وقسم فى اذربيجان واران (جنوب قفقاسيا) وامتزجوا فى هذه المواطن بقبائل تركية اخرى. ومن المعروف ان القسم الذى ورد على الاناضول تقسم وتفرق ووطن بدوره فى اماكن مختلفة، ولا زال عدد من القرى المتباعدة فى الاناضول يحمل اسم قابى، ففى شمال الاناضول توجد قرى تحمل هذا الاسم فى المنطقة المحيطة بأرزبجان وصوشهرى، وفى اماسيا وجوروم وايلغار وجانقيرى وكره دى وبولى وكذلك فى اسكى شهر وميحاليج وأورخان ايلى. وفى جنوب الاناضول توجد مجموعة اخرى تحمل نفس الاسم فى منطقة كيليكياء واسبرطة زبوردور وفتحية. وفى اتجاه الغرب توجد قرى اخرى تحمل نفس الاسم فى دنكيزلى ومغلة وايدين وأوده مش، وتدل اسماء هذه القرى على مواطن اسكان قابى كما تدل على الطرق التى سلكوها فى هجرتهم نحو الغرب.

وتبين لكوبريلى من هذا أن الشعبة القليلة الأهمية التى احاطت بأرطغرل

---

(١) شاركه فى هذا الرأى نيميه (J.Nemet) وكارل بروكلمان (K.Brockelmann).

ثم بعثمان من بعده، والتى كانت بقية ضئيلة من قايى الذين تفرقوا فى كل الاتجاهات ولم تؤثر مع أنهـا النواة الاولى للتشكل السياسى الجديد- وفى صبغة الدولة، وربما كان الدور السياسى الخالص لهذه الحفنة من الترك (وهو دور يعتمد كثيراً على الصدفة) هو أنهم انجبوا رئيس الدولة وأنهم كانوا سنداً له فى بداية الأمر ومن المستحيل من كل وجهات النظر أن - يكونوا قد أثروا - كما يدعى - فى القاء اسس اللهجة العثمانية ويقرر كوبريلى بصفة قاطعة أن فصل هذا القسم القليل من العشيرة عن سائر الترك الموجودين فى غرب الأناضول فى ذلك الوقت، ثم محاولة اضفاء بعض الصفات عليهم أو اسناد بعض التأثيرات الخاصة إليهم، مستحيل من وجهة النظر التاريخية. وفى ضوء ما تقدم يخرج كوبريلى بنتيجة ثابتة وهى أنه «فى أواخر القرن الثالث عشر كان أرطغرل ثم عثمان من بعده رئيسين لعشيرة صغيرة من عشائر الحدود وهى تنتمى إلى قبيلة قايى وكانت هذه العشيرة تخضع نظرياً لا عملياً لسلاطين قونية ثم للايلخانيين وكان موطن هذه العشيرة هو منطقة اسكيشهر الواقعة بشمال غرب افروجيا على الحدود التركية البيزنطية» وفى نفس ذلك الوقت كان على حدود الاناضول الغربية عدد من أمراء الحدود[1] يغيرون - كلما وجدوا الفرصة - على حدود بيزنطة ويعملون فيها السلب، بل كان من بينهم من استولى على بعض الاستحكامات والعصبات واسس القواعد لتشكلات سياسية جديدة وتعرض كوبريلى كذلك إلى عدة مسائل هامة، منها ما هو خاص باعتناق العثمانيين الدين الاسلامى، وحاول ارجاعه إلى عصور سابقة على قدومهم إلى آسيا الصغرى.

(١) جرت عادة الحكومة المركزية فى دولة سلاجقة الروم على أن تمنح اى رئيس من رؤساء العشائر يعظم امره ويلتحق به عدد من العشائر الصغيرة لقب «أوج بكى» اى حاكم الحدود ولكن الدولة كانت تحرص فى نفس الوقت على أن تعين من بين رجالها رئيساً أو عدد من الرؤساء يلقب كل منهم بلقب «أوج أميرى» أى امير الحدود.

وتبدو في آراء كوبريلي الرغبة في ابعاد كل ما يرى فيه مساساً بالعثمانيين في هذا الدور المبكر من تاريخهم. ومن ثم كان تحامله الشديد على آراء جيبونزيل وتجريحه ومن الصعب أن تقبل كل الآراء التي تتصل بنشأة الدولة العثمانية والتي وردت في دراسته لسببين روح التحامل الشديد، واعترافه بأن النتائج التي وصل إليها ليست حاسمة فقد سجل عليه قلمه هذه الفقرة المعبرة «ومهما يكن من امر فلا بد أن نعترف بأن النتائج التي حصلنا عليها ليست كافية لا كيفاً ولا كماً، وبأننا لا نزال بعيدين على أن نكون قد حللنا لغز تأسيس الامبراطورية العثمانية أو حتى نكون قد وضحناه بعض الشئ ومما يذكر في هذا الصدد أن محمد فؤاد كوبريلي كان من اعوان مصطفى كمال واستعان به في دعم فكرة القومية التركية الحديثة عن طريق كتابة التاريخ على النحو الذي اراد مصطفى كمال من تخليه عن المفاهيم الإسلامية كتأكيد الإجراءات العلمانية. وقد عينه مصطفى كمال وزيراً للخارجية في الثلاثينات من القرن العشرين. وبسبب مجموعته الضخمة في التاريخ التركي اصبح محمد فؤاد كوبريلي يلقب بأستاذ الجيل في تركيا الحديثة.

وعلى أية حال، فإن نشأة الإمارة العثمانية في الشمال الغربي للاناضول على حافة العالم المسيحي – وهو ما يسمى دار الحرب – قد فرضت عليها سياسة حربية معينة ذلك أن هذه الامارة كانت على الحدود واستطاع الامير عثمان ان يحرز انتصارات عسكرية على البيزنطيين وقد ابدى علاء الدين كيقباذ الثالث سلطان دولة الروم السلاجقة تقديره العميق لخدمات عثمان فمنحه لقب «عثمان غازي حضرتلوي مرزبان عاليجاه عثمان شاه»[1] وكان

(١) أي «حضرة عثمان المازي حارس الحدود، العالي الجاه عثمان شاه» وكلمة مرزبان فارسية تتكون من (مرز) ومعناها حد ثم (بان) ومعناها حارس، وهكذا يكون معنى الكلمة حارس أو محافظ الحدود. أما (عاليجاه) فكلمة تركية معناها عالي الجاه أو صاحب المقام الرفيع. وأما (شاه) فهي لفظة فارسية ومعناها عاهل.

من حظ عثمان أن أغار المغول عام ١٣٠٠ على دولة سلاجقة الروم وزالت الدولة وتوفى السلطان علاء الدين كيقباذ الثالث عام ١٣٠٧ وأعلن عثمان استقلاله مقتدياً بغيره من الأمراء الذين اسس كل منهم حكومة مستقلة على انقاض دولة سلاجقة الروم. وكانت التحركات الحربية التى قام بها العثمانيون فى هذه المرحلة الأولى من تاريخهم نتاج عدة عوامل هى :

١- الروح الدينية الجياشة .

٢- الطبيعة العسكرية الصارمة.

٣- الموقع الجغرافى لإمارتهم.

٤- الأوضاع السياسية فى المنطقة المحيطة بهم.

وكانت هذه التحركات الحربية بداية لسياسة حربية نشيطة حرصوا على الالتزام بها فى بقاع آسيا وأوروبا وأفريقيا فاتحين.

خصائص الدولة العثمانية :

وقد نظرت أوروبا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح اسلامية وكان العثمانيون فى تقدير أوروبا - هم الرمز الحى المجسد للإسلام، واختلط الامر على الأوروبيين فى ذلك الوقت فكانوا يطلقــون على المسلم لفظ تركى، وخلطوا بين العرب والاتراك، وكان هذا الخلط فى اذهانهم نتيجة طبيعية. فقد كانت فتوح العثمانيين فى البلقان ووسط اوروبا فتوحا اسلامية، وباسم الاسلام استولى العثمانيون على جزر البحر المتوسط التى كانت قواعد عسكرية صليبية. وباسم الإسلام فتح السلطان محمد الثانى القسطنطينية وباسم الاسلام قاد السلطان سليمان القانونى ست عشرة حملة عسكرية فى جوف أوروبا

ووصل بها إلى اسوار فينا وباسم الاسلام والانتصار للاسلام تقدم العثمانيون لمساعدة العرب فى شمال افريقيا فى كفاحهم ضد الاسبان، وهكذا زالت فكرة العروبة من اذهان الأوروبيين أو كادت وحلت محلها فكرة الاسلام فى عمومه تمثلها قوة الاتراك العثمانيين. ولم تعد العروبة كما سبق الإشارة إلى ذلك تثير فى اوروبا سوى ذكريات بعيدة ترجع إلى ظهور الإسلام فى شبه الجزيرة العربية والفتوح الأولى للمسلمين العرب والحضارة العربية على عهد الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية.

وهكذا اعتبر الأوروبيون أى نصر عسكرى تحققه القوات العثمانية سواء فى البر أو البحر إنما هو نصر للإسلام وهزيمة للمسيحية وتأسيساً على هذه النظرة الأوروبية إلى الاتراك العثمانيين فإن المحالفات الدولية التى تكونت ضد الدولة العثمانية عبر تاريخها الحافل كانت محالفات صليبية ضد الاسلام أملتها روح صليبية. وعلى ذلك فإن الحروب الصليبية التى شهدها الشرق الاسلامى لم تنته بسقوط عكا آخر معقل للصليبيين فى يد المسلمين عام ١٢٩١، بل استمرت متجددة متيقظة فى نفوس الأوروبيين فى العصور الحديثة وإن اختلفت ميادينها وشخصيات الدول التى شاركت فيها. ومن ناحية أخرى فإن الانتصارات العسكرية الرائعة التى احرزها الاتراك العثمانيون على الأوروبيين قد اضفت عليهم هالة من المجد فى أرجاء العالم الإسلامى، ونظر المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها إلى الدولة العثمانية على أنها دولة الاسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل ونظروا إلى السلطان العثمانى وهو يخوض الحروب تباعاً ضد الدول الأوروبية على أنه الأمل المرتجى فى إعادة مجد الإسلام الغابر، فكانت عواطف المسلمين وآمالهم متعلقة بالدولة العثمانية وعاهلها. ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت فى نفوس الشعوب الإسلامية فى هذا الوقت المبكر من العصور الحديثة.

وكانت الوشيجة الدينية هى التى ربطت بعروة وثقى بين الدولة العثمانية وبين الشعوب الإسلامية سواء التى دانت لحكمها أو ظلت بمنأى عن سيطرتها.

وتتميز الدولة العثمانية بعدة خصائص من أهمها أنها كانت دولة عسكرية وإقطاعية من نوع خاص وتيوقراطية (أى دينية) أما لكونها دولة عسكرية فلأن الشعب العثمانى كان مدرباً للحرب مطواعاً للسلاطين، نظر إلى الحرب على أنها واجبه الأول. واستأثر الجيش بالمكانة الأولى من عناية السلاطين وجعلت الدولة للجيش وظيفتين : الحرب والاشتراك فى الحكم فهى تعتمد على الجيش وقت السلم كما هو عناية زمن الحرب - ويقول المؤرخ الانجليزى ارنولد توينبى (Arnold Toynbee) أن العثمانيين يستمدون طريقتهم فى الحكم من بيئتهم الأصلية وهى بيئة البرارى فى أواسط اسيا فالسلطان العثمانى كان يمارس حكم الشعوب التى دانت للدولة كما كان العثمانى يمارس الرعى للماشية فى الأستبس أو البرارى، ويضيف قائلاً أن ممارسة الرعى كانت تتكون من ثلاث ؟؟؟ الراعى والماشية وكلب الحراسة ، فالسلطان فى رأى توينبى هو الراعى أما الماشية فهى الشعوب التى خضعت له أما كلب الحراسة فهو الجيش العثمانى. ولقد تكون الجيش العثمانى من وحدات نظامية ووحدات غير نظامية. فالوحدات النظامية تكونت من فيالق المشاة الانكشارية ثم السباهى. (Les Spahis) وهم الفرسان أو الخيالة ثم وحدات تابعة خاصة بالمدفعية، أما الوحدات غير النظامية فكان أهمها الاكنجى وهم عناصر المدفعية والعرب وهم المشاه، وقد رابطت الوحدات غير النظامية على حدود الولايات الأوروبية، ولم تدفع الدولة لهم مرتبات فى اوقات السلم أو الحرب لأنهم كانوا يعيشون على حصيلة الغنائم زمن الحرب

وقد وصف بوسبيك (Busbecq) السفير النمساوى فى الاستانه عام ١٥٥٤ الجيش العثمانى بقوله : وأفراد هذه الجيوش مدربون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد والتيقظ، أما المؤرخ الامريكى ألبرت ليبيير (Albert Ly-byer) الذى توفر على دراسة النظم العثمانية - فقد كتب يقول : أن الجيش العثمانى كان يجمع افراده، جميعاً شعور الولاء العميق للسلطان. وإذا صدرت الاوامر باستدعاء الجيش لحملة عسكرية كبرى اجتمع الجيش على بكرة ابيه حول السلطان وفى مسيرة الجيش وفى مرابطته فى المعسكرات وفى خوضه المعارك كان كل فرد فى فرق الجيش يأخذ مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان. وكان السلطان أيضاً هو المحور الرئيسى الذى ينظم جميع عمليات التشكيل التى تتم فى المعركة، والكل يدين بالولاء التام حجماً وعقلاً وروحاً.

أما كون الدولة العثمانية دولة اقطاعية من نوع خاص، فقد تمثل طابعها الاقطاعى فى نظامين: نظام الاقطاع العسكرى من ناحية، ونظام الالتزام من ناحية اخرى، وطبقاً للنظام الاقطاعى العسكرى كان رجال الجيش يمنحون ارضاً زراعية مساحتها صغيرة لزراعتها والاستقرار فيها. وقد قسمت الاقطاعات الى ثلاث فئات رئيسية هى :-

١- تيمار وهو اقطاع مساحته صغيرة نسبياً وكان يطلق على التابع الاقطاعى تيمارجى أى تيمار صاحبى «وكان هذا التيمار يدر على صاحبه إيرادا يبلغ ثلاثة آلاف اقجه (وهى عملة فضية صغيرة الحجم واسمها بالكامل «اقجة عثمانلى») وكان على التابع الاقطاعى أن يقدم إلى الجيش العثمانى وقت الحرب عدداً من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة بخيولهم واسلحتهم.

٢- زعامت «وهو اقطاع اكبر مساحة من الاقطاع السابق، وكان يطلق

على صاحب الزعامت اسم «زعيم» وكان هذا الاقطاع يدر على صاحبه دخلاً يصل إلى مائة ألف اقجة.

وفى مقابل هذا الدخل كان الزعيم يقدم للجيش العثمانى وقت الحرب عدداً من الفرسان بخيولهم واسلحتهم وكان هذا العدد يتحدد بنسبة فارس عن كل خمسة آلاف اقجه.

٣- خاص «وهو اقطاع اكبر مساحة من النوعين الأولين وكان يمنح للولاه الذين فى الخدمة الحكومية فإذا ما تركوا مناصبهم نتيجة الوفاة أو العزل أو الترقية إلى منصب آخر نزع منهم الاقطاع «الخاص» وقد رحبت الدولة العثمانية بهذا النظام الاقطاعى لمزاياه العديدة : فهو يضمن زراعة الارض من جهة ويضمن حصول الدولة فى زمن الحرب على قوات من الفرسان دون تكاليف تذكر من جهة اخرى، لأن التابع كان يذهب للحرب ومعه جواده وسلاحه، ولأن هذا النظام كان يوفر على الدولة مرتبات الجنود فى اوقات السلم من جهة ثالثة، وقد طبق هذا النظام الاقطاعى على سلاح الفرسان دون سلاح المشاة. وكان يشترط فى الأتباع الاقطاعيين أن تكون اصولهم عثمانية صرفة فإذا تطرق الشك إلى أن اصولهم غير عثمانية سرحوا فوراً . وكان الاقطاعيون العسكريون يندرجون تحت النظام الآتى :

١- الضباط ذوى الرتب الصغيرة ابتداء من نقباء يسمون صوباً شيه، ومهمة كل صوباشى وقت السلم حكم مدينة صغيرة وتحت تصرفه بعض الجند للمحافظة على الأمن.

٢- الضباط ذوى الرتب الكبيرة ويسمى كل منهم آلاى بك (اميرالاى) ويحكم مدينة كبيرة.

٣- صنجق بك ويحكم عدة مدن كبرى.

وكان يرأس الصناجق أول الامر البكلربكوات.

أما المناطق التى لم تخضع لنظام الاقطاع العسكرى، فقد طبقت الدولة فيها نظام الالتزام وبمقتضاه تولى حكام الولايات مناصبهم التزاماً أى أنهم يشترون مناصبهم لقاء مبلغ معين يدفعون بعضه عاجلاً والبعض الآخر آجلاً، ثم يقوم الوالى بتلزيم المقاطعات فى ولايته أو اجزاء من هذه المقاطعات اى يقوم هؤلاء الملتزمون بدفع الضرائب المقررة عنها لحكومة الوالى ويتولون هم جباية الأموال من الممولين. وجدير بالذكر أن الدولة العثمانية لم تبتكر نظام الالتزام، فقد وجدته معمولاً به فى بعض الأقاليم التى خضعت لها سواء فى الاناضول أو البلقان أو فى شمال العراق.

أما القول بأن الدولة العثمانية دولة طبقية فلأنها كانت تضم افراداً من العبيد أو الأرقاء، (واقولار من كان يطلق على كل الهيئة المملوكة الحاكمة لفظ قول أى العبد) [١] وافراد من الاحرار. وكانت الهيئة الحاكمة العثمانية بأكملها من أصغر فرد فيها إلى الوزير عبيد للسلطان،. وكان هؤلاء العبيد مسيحيين أصلاً يحصل عليهم السلطان اطفالاً وهم فى سن غضة ويحولون إلى الاسلام، وكان السلطان يحصل على هؤلاء الاطفال بثلاث رسائل : أما

(١) تمتع القولار بعدة مزايا كان من اهمها :

(أ) كان شغل المناصب فى الدولة مقصوراً على طبقة القولار، وكانوا يتدرجون فى هذه المناصب إلى أعلاها.

ب - تمتع القولار بالاعفاء الصريح.

جـ - الاعفاء من الخضوع للقضاء العادى الذى كان يخضع له رعايا الدولة الذين هم خارج نطاق العبيد افراد الهيئة الحاكمة.

الشراء واما الهدايا، واما ضريبة الابناء أو الغلمان وهذه كانت اخصب الوسائل الثلاث حصيلة. ويطلق على هذه الضريبة فى اللغة التركية اسم ديوشرمة «وهى اصلاً كلمة يونانية تعنى جمع الأولاد من العائلات المسيحية» ،وكان هؤلاء يمثلون خمس اطفال الشعوب المهزومة فى مقدونيا والصرب وبلغاريا وألبانيا والمجر وغيرها كحصة بيت مال المسلمين، وكانت الدولة ترسل وكلاء إلى المناطق المسيحية فيجتمع كل منهم بقسيس القرية ويطلب منه كشفاً بأسماء الأطفال الذكور الذين قام بتعميدهم، ولم يكن هناك قانون معين أو لائحة تحدد طريقة اختيار الاطفال، وكان العثمانيون يمارسون فى العادة جمع الأولاد من الريف والقرى وكانوا يأخذون أولاد المزارعين، ولكن العثمانيين كانوا يستجيبون لدواعى الرحمة : فلا يأخذون الطفل الوحيد لوالديه وكانوا لايأخذون الاطفال الذين فى سن الرضاعة لان امثال هؤلاء الاطفال يكونون عالة على الحكومة، ولا يأخذون الأولاد الذين تجاوزوا الحلم، لأنه يصعب فصل امثال هؤلاء الاطفال عن ماضيهم وعن اهلهم وعن بيئتهم الأولى. ولذلك كانوا يأخذون فى معظم الاحوال الأولاد الذين تتراوح اعمارهم بين سن الثامنة وسن العاشرة. ومنذ ان يتحرك الوكيل بهؤلاء الاولاد إلى العاصمة تنقطع الصلة نهائياً بين هؤلاء الأولاد وبين ذويهم واختلفت اراء الباحثين حول ضريبة الابناء فبعضهم دافع عنها من حيث المبدأ وبعضهم هاجمها هجوماً عنيفاً، أما الفريق الأول فقال ان الحروب فى الاقاليم التى فتحتها الاتراك العثمانيون قد نشرت الدمار والخراب فيها، واستهدفت عدد كبير م. العائلات المسيحية إلى خطر الهلاك جوعاً. وكان معظم الاطفال المسيحيير الذين اخذتهم الدولة العثمانية قد فقدوا اباءهم، ولولا اخذ الحكومة لهم لتعرضوا للهلاك أو الانحراف ،كما أن عادة بيع المسيحيين أرقاء كانت

معروفة ومنتشرة، فلم تكن ضريبة الابناء بالشئ الجديد ويذهب البعض إلى القول بأن هذه العادة لم تكن إلا استمراراً لحالة مماثلة كانت قائمة فى ظل الدولة البيزنطية. ويضيف البعض الآخر إلى تلك الآراء أن الآباء أو عدداً كبيراً منهم كانوا مشوقين إلى تقديم أولادهم عن طواعية السلطان العثمانى إذا كانوا موقنين أن اولادهم سيظفرون برتبة راقية وثقافة رفيعة وان مستقبلاً زاهراً ينتظرهم عندما يخرجون إلى الحياة العملية رجالاً نضجت عقلياتهم واكتملت شخصياتهم فيتقلدون المناصب الرفيعة وتحيط بهم اسباب السعادة والثراء. أما الفريق الآخر الذى هاجم ضريبة الابناء فقد صور الآلام المبرحة التى كان يشعر بها الآباء الذين كانوا يذرفون الدموع غزيرة عند انتزاع اولادهم منهم، ووصف الضريبة بأنها جزية اللحم الانسانى يفرضها منتصر على قوم شاء سوء حظهم أن تلقى الحكومة المسيحية التى كانت تحكمهم هزيمة عسكرية على يد العثمانيين ويدفع الشعب ثمن هذه الهزيمة فى صورة تتنافى مع الاخلاق والمبادئ الانسانية. وبالاضافة إلى طبقة العبيد وجدت فى الدولة العثمانية الهيئة الاسلامية وكانت تضم ايضاً الاشراف وهم الذين ينحدرون من اسرة النبى صلوات الله عليه. كما لحقت بالهيئة الاسلامية ايضاً طائفة الدراويش وكانوا كثرة عددية كبيرة.

والدولة العثمانية دولة دينية لأنه كان للهيئة الاسلامية وضع معترف به فى الدولة وهو وإن كان أقل مرتبة من وضع الأرقاء أو العبيد، إلا أنه كان لهذه الهيئة مركز مرموق على كل حال. وكان السلاطين حريصين على تدعيم سلطة شيخ الاسلام. كما تركت الدولة العثمانية مشايخ الطرق الصوفية يمارسون سلطات واسعة على المريدين والاتباع، وانتشرت هذه الطرق انتشاراً واسعاً أول الامر فى آسيا الصغرى، ثم انتقلت إلى معظم اقاليم الدولة

وخضعت الحياة الدينية للجماهير لتأثير مشايخ الطرق اكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة الرسميين. وكانت اهم هذه الطرق الصوفية : النقشبندية والمولوية والبكتاشية[1] والرفاعية والاحمدية والخلوتية، والكازرونية نسبة إلى المتصوف الايرانى أبى اسحق الكازرونى ولذا تسمى ايضاً الطريقة الاسحاقية أو المرشدية[2].

وإلى جانب هذه الطرق الصوفية ادت اعمال العثمانيين إلى ظهور نظام الفتوة الذى كان الطابع الاسلامى للفروسية العربية وقد اخذ هذا النظام مظهراً جديداً فى الاناضول على يد الأتراك، وعرف المنتمونَ إليه باسم «آخيان روم» وكلمة آخيان ترادف لفظة اخوان العربية ولكن المستشرق الفرنسى دنى (J.Deny) ذكر أن كلمة آخى جاءت من اللفظة التركية «آقى» بمعنى الرجل الذى يجمع بين الشهامة والكرم وأنها ليست مأخوذة من الكلمة العربية «آخى» ، وايا ما كان الامر فقد اتصف افراد هذه الجماعة بالشهامة والكرم، فقد شاهدهم ابن بطوطة وتحدث عنهم حديثاً شيقاً تحت اسم «الاخية الفتيان»، وقال انهم كانوا مثلاً فريداً فى الشهامة والكرم والوقوف فى وجه الظلم والاقتصاص من الظلمة وذكر انهم كانوا يتنافسون على استضافة الغريب الوافد إلى بلدتهم. وكان نظام هذه الجماعة أن ينتخب أهل كل صناعة أو حرفة رئيسا لهم «بلقى اخى» ويشترط أن يكون الرئيس وجماعته

---

(١) نسبة إلى حاجى بكتاشى (الحاج بكتاشى)، شيخ الطريقة السوفية البكتاشية.

(٢) كان اتباع هذه الطريقة يعتنقون مبدأ مجاهدة الكفار بالدعوة الدينية وقد دخلوا الاناصول النصف الثانى فى القرن الثالث عشر بعد الغزو المغولى مباشرة، وزاولوا نشاطهم فى منطقة الامارات الاناضولية الغربية وظفروا بمركز ممتاز فى دوائر الحكومة العثمانية واضفى السلاطين العثمانيون حمايتهم على اتباع هذه الطريقة.

من الشبان العزاب المتجودين ويقدمون رئيسهم عليهم. ويبنى الرئيس زاوية للضيافة ويشترك الجميع فى نفقاتها وخدماتها ونفقات ضيوفها. ووصف ابن بطوطة زواياهم بأنها كانت منتشرة فى كل مدينة وقرية كما أنهم كانوا يذهبون سوياً إلى المسجد فى صلاة الجمعة والعيدين وفى المناسبات الاخرى ويحيطون بحاكم الاقليم أو المدينة وكل منهم يحمل سلاحه وقد اختلط افراد هذه الطائفة بطوائف الصناع فى المدن، واتصلوا بأصحاب الاراضى فى الريف اتصالاً وثيقاً واختلط الامر على كثير من الباحثين فذهب البعض إلى أن «الأخيان» كانوا يشكلون منظمة لأرباب الحرف، واعتقد البعض الآخر أنهم كانوا احدى الطرق الصوفية ولكن الحقيقة ان افراد طائفة الاخيان قد اصطبغوا بالطابع الصوفى ولكنهم لم يشكلوا طريقة صوفية خاصة بهم.

ومن ناحية اخرى كانت الدولة العثمانية دولة دينية لأن رعاياها غير المسلمين كانوا يخضعون لنظام «الملل» الذى قام على تصنيف رعايا الدولة غير المسلمين تصنيفاً غير مرتكز على الجنس أو القومية أو اللغة، بل على أساس المذهب الدينى الذى كان يدين به هؤلاء الرعايا. وكان يطلق على كل مذهب دينى «ملة» وكان لكل ملة رئيس ينظر فى المسائل الدينية. وقد منح نظام الملل الرعايا غير المسلمين كياناً ذاتياً خاصاً. وكان الروم الارثوذكس - اتباع الكنيسة الشرقية اليونانية - أهم ملة غير اسلامية فى الدولة العثمانية. واندرج تحت هذا الاسم اليونانيون والبلغار وسكان البوسنة والهرسك والجبل الاسود وبعض الألبانيين وغيرهم. وكان مقر رئيس هذه الهيئة فى استانبول ويسمى البطريرك ويطلق عليه ايضاً بطريرك الفنار نسبة إلى حى الفنار وهو احد احياء العاصمة فى استانبول وكان يقوم فيه مبنى البطريركية وكانت تسكن هذا الحى عائلات يونانية عريقة تتمثل فيها ارستقراطية المال والثقافة والمجد

والمجد الاصيل ويسمون «الفناريون» (Les Phanariotes) وكانوا يختلفون عن اليونانيين الموجودين فى شبه جزيرة البلقان. وكانت الملة الثانية هى ملة الروم الكاثوليك، وكانوا اقل شأنا من الروم الارثوذكس، ثم الملة الثالثة وهى ملة الأرمن، وأخيراً ملة اليهود.

أما الاجانب من رعايا الدول الأوروبية غير المسلمين فكانوا يخضعون لنظام «الامتيازات الاجنبية» فقد خطا السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠-١٥٦٦) خطوات هامة فى سياسة انفتاح الدولة العثمانية تجارياً مع عدد من الدول الأوروبية فعقد مع فرانسوا الأول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨ كفلت لتجار فرنسا ورعاياها الامن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم فى أثناء تواجدهم فى ممتلكات الدولة ونظمت إقامتهم فى أحياء أو خانات خاصة بهم وعدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليها. وكان ابرام هذه المعاهدة مشجعاً لملك فرنسا فرانسوا الاول والسلطان سليمان القانونى على عقد معاهدة هامة أكثر شمولاً عرفت باسم «معاهدة صداقة وتجارة بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا (وقد عقدت فى فبراير عام ١٥٣٥) وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون إلى اقاليم الدولة العثمانية. شتى الامتيازات فى مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مماثلة لها تقريباً. وعرفت هذه المعاهدات وغيرها من المعاهدات المماثلة مع الدول الأوروبية الاخرى باسم «معاهدات الامتيازات الاجنبية» وقد اعتقد بعض المؤرخين الأوروبيين أن معاهدات الامتيازات الاجنبية استمدت جذورها التاريخية من اصول بيزنطية تأسيساً على أن الدولة البيزنطية كانت تمنح رعايا جمهورية البندقية وغيرها من الكيانات السياسية فى شبه جزيرة إيطاليا مثل هذه الامتيازات فى اثناء اقامتهم فى الاراضى البيزنطية. ويهدف هذا الفريق

من المؤرخين إلى القول بأن الدولة العثمانية قد نهجت نهج الدولة البيزنطية فى عقد معاهدات الامتيازات الاجنبية.

وهذا الرأى لا يمثل الحقيقة لأنه يجهل اصول الفقه الاسلامى ويغفل حقيقة هامة هى أن الدولة العثمانية كانت حريصة على الالتزام بقواعد الشريعة الاسلامية.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد قامت بعمليات حربية فى اوروبا، ووصلت عن طريقها إلى اسوار مدينة فينا عاصمة النمسا فإنها اخفقت فى مسألتين هامتين كان يمكن أن يكون لهما اثر كبير فى التاريخ الحضارى والسياسى لأوروبا وهما :

١- عظمة الشعوب الأوروبية التى دانت لحكمهم.

(L' Ottomanisation)

٢- نشر الدين الاسلامى بين افراد هذه الشعوب.

وبالنسبة للمسألة الأولى فقد تقوقع العثمانيون اجتماعيا، ولم يحدث انصهارا وامتزاج بينهم وبين الشعوب المحكومة، وبجانب هذه العزلة الاجتماعية لم يسهموا بنشاط يذكر فى الحياة الاقتصادية من زراعة أو صناعة أو تجارة فى البلاد التى دانت لحكمهم واكتفوا بأن اقاموا فيها كطبقة حاكمة. وكانوا أقلية عددية بالنسبة لأصحاب البلاد الأصليين. وكان الاستعلاء سمة بارزة فى صفات العثمانيين اشترك فيها السلاطين وأفراد الشعب على السواء فكان السلاطين يرفضون تعيين سفراء للدولة العثمانية لدى الدول الأوروبية اعتقاداً منهم أنهم فى غنى عن سائر العالم وأن على رجال الدولة التى تحتاج إليهم أن يحضروا إلى القسطنطينية بإعتبارها عاصمة العالم كله. ويقول المؤرخ

الانجليزى فيشر (Fisher) أن العثمانيين لم يقيموا للحضارة الأوروبية الغربية وزنا، ولم يدركوا قيمتها يوماً من الأيام ولذا عاش العثمانى غريباً اجنبياً فى اوروبا، لا تصيب له فى تقاليدها ولا يتعدى تفكيره فى لزوميات الحكم الامبراطورى مبادئ الأوليجركية الاستشارية، وهى المبادئ التى تعتمد على الرقيق، وتنظر إلى البشرية المحيطة بها كأنها لا تصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية». وقد ادى الاستعلاء إلى عدم الاختلاط الذى ادى بدوره إلى عدم نشر اللغة التركية بين تلك الشعوب الأوروبية لأن الدولة العثمانية لم تعمل على توفير المناخ الصحى لانتشار اللغة التركية، فظلت الشعوب الأوروبية التى خضعت للعثمانيين محافظة على لغتها وثقافتها وديانتها وعاداتها وتقاليدها وغير ذلك من عناصر حضارتها، ومن هنا كان الأثر الحضارى للعثمانيين فى تلك الشعوب الأوروبية قليلاً للغاية، ومن هنا أيضاً كانت الشعوب الأوروبية لا تدين لهم ثقافياً أو حضارياً. ولذلك يمكن القول أن تأثير العرب الحضارى فى اسبانيا وصقلية كان يفوق بكثير تأثير العثمانيين فى البلاد الأوروبية التى غزوها، فقد أنشأ العرب فى اسبانيا شتى المعاهد العلمية وتردد عليها شباب من الاوروبيين دارسين، وبفضل العرب تكشف للغرب التراث الفكرى اليونانى، فأقبل الأوروبيون عليه وتزودا منه، فكان هذا الاتصال الحضارى مما ساعد على بعث النهضة الفكرية والعلمية فى أوروبا .

ويرجع بعض المؤرخين والباحثين سلبية العثمانيين فى هذا الصدد إلى أنه لم يكن لهم تراث حضارى متفوق يلقنونه للشعوب الأوروبية أو العربية التى خضعت لحكمهم وعلى رأس هؤلاء المؤرخين هربرت فيشر، وجوستاف لوبون، إذ قالا أن الاتراك العثمانيين قد اكتسبوا اسباب العظمة فى ساحات الحرب، وقد ارتعدت فرائص اقوى ملوك أوروبا احقاباً طويلة فزعاً من سلاطين

الدولة العثمانية الذين قاموا مقام القياصرة وأحلوا الهلال محل الصليب البيزنطى فوق كاتدرائية آيا صوفيا فى القسطنطينية ولكنهم – مع هذا الالحاح الذى حققوه – اثبتوا عجزهم عن ابداع حضارة فى كل زمن.

أما المسألة الثانية وهى عدم نشر الاسلام على ايدى العثمانيين فى اوروبا فتنبغى الاشارة أولاً إلى حقيقتين هامتين هما :

أولاً : أنه على الرغم من أن العاطفة الدينية كانت قوية بارزة ملحوظة فى العثمانيين إلا أن التوسع الاقليمى كان هو الهدف الأول من العمليات الحربية التى قاموا بها فى أوروبا خلال تاريخهم الحافل. أما نشر الاسلام فى المناطق الأوروبية التى فتحوها فكان مسألة جانبية لهم لم تشغل حيزاً كبيراً من تفكيرهم وكان حكمهم لمعظم الاقاليم الأوروبية حكماً عسكرياً صارماً ولم تكن تربطهم بالمحكومين آصرة من ود أو تعاطف. حقيقة كان العثمانيون يحولون اكبر كنيسة أو كاتدرائية فى المدينة التى يستولون عليها إلى مسجد، وكان السلطان العثمانى الذى يسير على رأس الجيش يحرص على أن يؤذن المؤذنون للصلاة فى الكنيسة وهو واقف فى ردهتها يحيط به كبار رجال الجيش، فإذا فرغ المؤذنون من الآذان اتجه السلطان ومن معه إلى داخل الكنيسة لأداء الصلاة فيها جماعة، ومن تلك اللحظة تتحول الكنيسة إلى مسجد تقام فيه الشعائر الاسلامية وقد حرص العثمانيون على هذا التقليد.

ثانياً : الزحف العسكرى العثمانى على الأقاليم الأوروبية قد تم فى وقت كانت المسيحية قد رسخت فى نفوس الأوروبيين وتبلورت اذهانهم بحيث كان تحويل الأوروبيين إلى الدين الاسلامى امراً متعذراً إن لم يكن فى حكم الاستحالة ويحاول بعض الباحثين تأكيد هذه الحقيقة بالقول بأن الصليبيين

اقاموا مثلاً قبل ذلك فى الشرق الاسلامى زهاء قرنين من الزمان ولم ينشروا المسيحية فى ربوعه، ولما تساقطت معاقلهم فى بلاد الشام وأخرجوا منها لم يكن قد طرأ تغيير ما على الأوضاع الدينية فى المناطق التى امتد إليها النفوذ الصليبى. ورغم ذلك فلا يمكن أن تقبل تلك الحقيقة الثانية على علاتها، لأنه بفضل الاتراك العثمانيين اعتنق الاسلام جماعات من السكان فى أقاليم البلقان ووسط أوروبا وبفضل الاتراك العثمانيين لا تزال تعيش إلى اليوم اقليات اسلامية فى بولندا وبلغاريا ويوجوسلافيا وألبانيا وغيرها.

والاسلام لم يكن غريباً على مسيحى آسيا الصغرى لأن هؤلاء المسيحيين كانوا قد تجاوروا مع الاتراك السلاجقة وألفوا الحياة معهم مدة تقرب من القرنين من الزمان ونجمت عن هذا التجاور ظاهرة هامة اتسم بها تاريخ الاناضول فى هذه الفترة بالذات هى انعدام العداء الدينى بين المسلمين وبين المسيحيين. وكان هؤلاء المسيحيون بعيدين عن مقر الكنيسة الشرقية اليونانية الارثوذكسية فى القسطنطينية وعن نفوذها وعن ضغطها بسبب صعوبة المواصلات، ففقدت سلطانها عليهم الأمر الذى ادى إلى خلق حالة وجدانية كانت بالإضافة إلى المصالح الاقتصادية تبرراً وتساعد على الدخول فى الإسلام، كما كان هؤلاء المسيحيون فى حالة انهيار معنوى نتيجة التدهور الشديد الذى اصاب الدولة البيزنطية نفسها. ولذلك سهل على العثمانيين – أيام عثمان وأورخان – جذب المسيحيين نحو الاسلام أو تحولهم إلى الاسلام، وخلال المعارك التى خاضها العثمانيون مع الدولة البيزنطية وقع فى [illegible] عدد من الأسرى اصبحوا عبيداً للسلطان بحكم الأسر. وكان السلطان حريص على تعزيز الجيش العثمانى، فالدولة لا تزال فى دور التكوين يتربص جيرانها بها الدوائر ووجد السلطان فى اولئك الاسرى مدداً لا ينضب معينه فأدخلهم

فى جيشه بعد أن اعتنقوا الدين الاسلامى واكتسبوا الجنسية العثمانية وتقررت لهم المرتبات والامتيازات العسكرية. وبفضل هذه الركائز الثلاث: الوشيجة الدينية التى تربطهم بالعثمانيين والجنسية العثمانية، والانخراط فى سلك الجيش، تدعم وضعهم فى الدولة العثمانية واجتمعوا تحت راية واحدة واصبحت لهم قضية واحدة يتحمسون لها ومصيراً واحداً يعملون على بلوغه. ومعنى هذا أنه فى هذا الدور المبكر من ادوار التوسع الاقليمى عمل العثمانيون على نشر الدين الاسلامى بين البيزنطين وعلى عثمنتهم اى صبغهم بالصبغة العثمانية. وسارت هاتان العمليتان - التبشير بالاسلام والعثمنة جنباً إلى جنب. ونجم عنهما أن زاد عدد الرعايا المسلمين فى الدولة العثمانية وزاد عدد الجيش العثمانى. ولا ننسى أن العثمانيين كانوا يعانون من قلة عددهم، لأنهم حين نزلوا أول الأمر فى آسيا الصغرى جاءوا خفافاً من ناحية ولم تكن معهم عائلاتهم من ناحية أخرى. وهكذا استفاد الطرفان من عمليات التبشير بالإسلام والعثمنة والانخراط فى سلك الجيش العثمانى.

وبالنسبة للمسيحيين فى البلقان، فقد واجهت الدولة العثمانية مشكلة شائكة بشأنهم، لأن فى هذه البقعة من أوروبا تتزاحم الدول والشعوب المسيحية منها من يخضع دينيا للكنيسة الشرقية فى القسطنطينية، ومنها من يخضع للكنيسة الغربية فى روما، فكانت البلقان منطقة مسيحية قلباً وقالباً، ولم يكن سكانها يدرون شيئاً عن الاسلام أو عن حكامهم الجدد من العثمانيين. وللتخلص من مشكلة الرعايا المسيحيين فى البلقان ووفرة اعدادهم، فكر السلاطين الأوائل فى عدة وسائل منها اجراء مذابح عامة بين المسيحيين فى البلقان ثم تهجير العثمانيين من الاناضول إلى البلقان. ولكن حالت دون تنفيذ ذلك عدة اعتبارات منها أن تعداد العثمانيين فى ذلك الوقت لم يكن

كبيراً بحيث يكفى ملء الفراغ الذى ينجم عن إجراء مذابح عامة، وأن هذا التهجير العثمانى من الاناضول إلى البلقان يؤدى إلى اضعاف مركز العثمانيين فى اسيا الصغرى التى كانت لا تزال تزخر بعدد من المناطق البيزنطية والامارات السلجوقية تتربص بالعثمانيين الدوائر، كما أن مثل هذه المذابح العامة تؤدى إلى إثارة شعور العالم المسيحى الشرقى والغربى وتكتل أوروبا ضد العثمانيين. واستقر رأى العثمانيين على وسائل اخرى تتلخص فيما يلى :

١- تحويل الأسرى إلى عبيد تستخدمهم الدولة فى الزراعة أو أعمال مدنية اخرى ولكنها لا تجندهم، لأن الجيش العثمانى لا يضم فى صفوفه سوى المسلمين. وكانت الدولة تعرض على هؤلاء الاسرى العبيد اعتناق الدين الاسلامى فى مقابل عتقهم.

٢ - الزواج من المسيحيات الأسيرات وقد كن أدوات لزيادة عدد العثمانيين وبالتالى لنشر الاسلام.

٣- ضريبة الابناء (الغلمان) التى شاء لها العثمانيون أن تتخذ طابعاً دينياً اسلامياً وطابعاً عسكرياً حربياً.

وكان من بين الرعايا الذين اعتنقوا الاسلام اليونانيون والألبانيون والصربيون والبلغاريون وكانت هناك أقاليم فى مقدونيا تحول اهلها إلى الاسلام أو من العوامل التى كانت تشجع المسيحيين على اعتناق الاسلام :

١- رغبتهم فى التخلص من الاعباء المفروضة على الرعايا غير المسلمين مثل ضريبة الأبناء وجزية الرأس.

٢- التخلص اجمالاً من دين غير رسمى والدخول فى طبقة ممتازة فى المجتمع العثمانى .

٣- اجرى العثمانيون الأرزاق بسخاء على الذين يعتنقون الاسلام حتى يكون الرزق الرغيد دافعاً للغير على اعتناق الدين الاسلامى وقد ضعف كثير من المسيحيين امام هذا الاغراء فغيروا عقيدتهم رغبة فى رفع مستواهم الاقتصادى وتحسين وضعهم الاجتماعى.

٤- تهجير افواج من سكان البلقان إلى الاناضول، وهناك يحملون على اعتناق الاسلام.

ولما توغل العثمانيون فى زحفهم العسكرى على أوروبا بعد إخضاع الشعوب البلقانية اتبعوا سياسة التسامح الدينى، وهى سياسة تقوم على الدهاء السياسى. واستهدف منها العثمانيون اضعاف المسيحيين اذ تركوهم نهباً للمنازعات المذهبية بين انصار الكنيسة الكاثوليكية وانصار المذاهب المسيحية الاخرى التى انبثقت عن حركة مارتن لوثر فى المانيا.

وعلى هذا فقد تميز الحكم العثمانى فى اوروبا بطابعين هما الصراحة والتساهل. وقد يبدو أن هذان الطابعان متعارضين ولكنهما فى الحقيقة ليسا على تعارض فالطابع الاول يتمثل فى طغيان الحكم رغبة فى تدعيم النفوذ العثمانى وابقاء السيادة العثمانية ويتمثل الطابع الثانى فى الحرية الدينية ينعم بها الرعايا غير المسلمين. واسفرت هذه السياسة عن نتيجة هامة هى ان العثمانيين لم يجعلوا من الاسلام المحور الذى تتجمع حوله الشعوب الاوروبية التى دانت لهم عسكرياً وسياسياً ، بل ظلت هذه الشعوب لا تدين للعثمانيين دينيا.

٢ - الفكر الغربى الجديد وأثره فى الدولة العثمانية الاسلامية :

بنهاية القرون السابع عشر، وعلى اثر الهزائم العسكرية والسياسية المتتالية التى منيت بها الدولة العثمانية، بدأ واضحاً أن الغرب الأوروبى قد سبقها بأشواط بعيدة فى مجالات التقدم العسكرى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى. وأدرك العثمانيين أن مجتمع العصور الوسطى قد ولى، وإنه إذا لم تستيقظ الدولة، فإنها ستتحطم وتنهار ان عاجلاً أو آجلاً - فلقد تبين أن المشكلة تكمن فى الناحية العسكرية إذ أن الجيوش العثمانية قد هزمت فى المعارك بالسلاح الأوروبى، وكان عليها إذن ان تتبنى التسلح والتدريب العسكرى والتقنية الأوروبية. ويرى بعض المؤرخين أن تلك المحاولات قد قصد بها من جانب السلاطين وأعوانهم من دعاة التجديد اقناع الدول العربية بأن ثمة اصلاح يجرى فى الدولة العثمانية لعل ذلك يرفع من شأن الدولة ويقنع الدول الأوروبية بصلاحية بقاء الدولة العثمانية، وبالتالى يوقف التدخل الأوروبى تحت شعار حماية الأقليات المسيحية المضطهدة داخل الدولة الاسلامية.

وعلى أية حال انحصرت بداية الاصلاح فى الناحية العسكرية لرغبة الدولة العثمانية فى المحافظة على كيانها فى عالم يسيطر ويتوسع ويتقدم فيه الأوروبيين. وكان هذا يتطلب جيوشاً على الطراز الأوروبى. ويرى المؤرخ البريطانى برنارد لويس نقلاً عن بوسبك (Busbecq) فى عام ١٥٦٠ أنه لم توجد أمة فى العالم اظهرت استعداداً كبيراً مثل الأمة التركية للاستفادة من اختراعات الاجانب فى ميدان استخدام المدافع وغيرها من الاسلحة التى اخترعها الغرب المسيحى. وعن طريق السلاح والتقنية الأوروبية جاء استيراد الافكار الغربية.

لقد كانت الثورة الفرنسية أول وأعظم الحركات الفكرية فى الغرب المسيحى التى كان لها تأثير حقيقى على عالم الاسلام. فحتى القرن الثانى عشر، كان العالم الاسلامى منعزلاً عن مجالات الفكر والثقافة فى الغرب الأوروبى. فالنهضة الأوروبية والتعليم الجديد والعلوم والتقنية والحركات الفكرية فى أوروبا المسيحية لم تجد لها أى صدى او استجابة من قبل الشعوب الاسلامية التى نظرت إليها على انها حضارة ونظريات غريبة عنها، فقد ظلت النظرة نحو الغرب على أنه امبراطورية منافسة وحضارة منافسة ومركز لديانة منافسة. ولقد ادت هذه النظرة إلى صراع طويل بين عالمين مختلفين واحتكاك مباشر بين نظامين ودينين متناقضين وبالتالى إلى النتائج الوخيمة التى اصابت الدولة العثمانية وجعلتها تزداد انغلاقاعلى تخلفها وسلبياتها. والواقع أن العلاقات العثمانية – الأوروبية لم تكن دوماً علاقات عدائية فخلال الفترات الفاصلة بين الحروب كان هناك سلام وعلاقات تجارية ودبلوماسيون اوروبيون يقيمون فى استانبول وتجار وعلماء أوروبيين يتجولون فى اراضى الدولة العثمانية. فكثير منهم جاء للإقامة مغامرون مرتدون عن الدين المسيحى يسعون للعمل فى الدولة العثمانية ولاجئون من الاضطهاد الدينى والسياسى يفتشون عن ملجأ تحت سلطة الدولة العثمانية.

وبالرغم من أن حركة الاصلاح والتجديد قد بدأت فعلاً فى أوائل القرن التاسع عشر إلا أن ذلك لا يعنى أن التأثير الغربى فى الدولة العثمانية لم يكن موجوداً قبل ذلك القرن. فالمدافع التى استعملها محمد الفاتح لدك اسوار القسطنطينية والخرائط البحرية وفن العمارة من مسجد «نور العثمانية» فى استانبول، كلها تشهد على التأثير الغربى فى الدولة العثمانية.

وبمجئ السلطان احمد الثالث (١٧٠٣–١٧٣٠) اخذت محاولات

الاصلاح والاتصال بالغعرب تجد طريقها وسط تحديات الانكشارية والعناصر الرجعية. ففى عام ١٧٨١ وصل ابراهيم باشا إلى منصب الصدارة العظمى وأخذ يعمل طوال اثنتى عشر عاماً على ادخال الاقتباسات الغربية إلى الدولة العثمانية فبدأ عمله بأن قدم مذكرة إلى السلطان حذره فيها من ان الحرب التى نشبت مع النمسا فى السنوات السابقة مباشرة على تعيينه صدراً اعظم سوف تؤدى إلى نهاية سريعة للامبراطور. وحث السلطان العثمانى على البدء بالاصلاحات العسكرية حالما يوقع الصلح، وتنفيذاً لهذه السياسة قام فرنسى فى عام ١٧٢٠ ويدعى دافيد (تحول إلى الاسلام وعرف باسم جرشك) بإنشاء فرقة مزوده بالاسلحة النارية فى استنبول وفى سلاح البحرية حدث تغير مهم، فقد تحسنت صناعة السفن واختفت السفن الشراعية من البحرية العثمانية.

ولم يكتف الصدر الاعظم ابراهيم باشا بما قدمه هؤلاء الاجانب من خدمات للدولة بل أنه ارسلا فى عام ١٧١٩ بعثة إلى فينا للاطلاع على التقدم العسكرى والعلمى فيها وفى عام ١٧٢٠ ارسل محمد سعيد شبلى إلى فرنسا وطلب منه أن يزور الحصون والمصانع وأن يرسل التقارير عن الخطوات العلمية التى يجب على الجيش العثمانى أن يطبقها وعند عودته من باريس، قدم محمد شلبى إلى الصدر الاعظم كتيباً بعنوان «سفارة نامة» وصف فيما شاهدة وتعلمه، وأخذ التبادل والاتصال مع الغرب يظهر تأثيراً فى الحياة الاجتماعية والثقافية فى الدولة العثمانية.

وفى عام ١٧٣٠ انهزم العثمانيون على يد نادر قولى خان، الذى استطاع أن يتقلد السلطة فى فارس فى ثورة شعبية فى استانبول حيث كان الاستياء شديد ضد تبذير البلاط وتصرفات دوائر القصر المريبة. وقد تزعم الثورة التى شارك فيها الانكشارية، الالبانى خليل باترونا وقد ارغم احمد الثالث على

التنازل عن العرش واعدام الصدر الاعظم وبعض الشخصيات. ولكن خلال السنتين التاليتين قام ابراهيم متفرقة، المجرى الاصل باكمال برنامج الاصلاح. وكان تأييد الصدر الاعظم السابق ابراهيم باشا لابراهيم متفرقة ومحمد شبلى قد ساعد على انشاء أول مطبعة تركية، فقد استمر الحظر على الطباعة بالتركية والعربية بشكل فعال حتى القرن الثامن عشر عندما حدث بعض اللين فى موقف السلطات العثمانية. ويعود الفضل فى ذلك إلى جهود محمد سعيد شبلى الذى كان قد سافر إلى باريس واكتسب معرفة فى فن الطباعة واقتنع بفائدتها، وعند عودته إلى استانبول نجح فى انشاء أول مجلة مطبوعة باللغة التركية رغم معارضة رجال الدين والجماعات المحافظة وبالتعاون مع محمد شلبى وضع ابراهيم متفرقة مذكرة حول فوائد الطباعة قدمها إلى الصدر الاعظم. وقد حصل شبلى ومتفرقة على تأييد غير متوقع من شيخ الاسلام عبد الله افندى عندما ا قتنع باصدار فتوى تجيز طباعة الكتب باللغة التركية، وهى الكتب العلمية والتاريخية والقواميس واستثنى من ذلك كتب الدين والشريعة.

وقام ابراهيم متفرقة بتوعية السلطات وطبقات الشعب المثقفة بالتطورات التى طرأت على العالم الخارجى فى مختلف المجالات وخاصة العسكرية، ونوضح مركز الدولة العثمانية بين دول العالم وفى بداية حكم السلطان محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) قدم متفرقة مذكرة إلى السلطان مكونة من ٤٩ صفحة شدد فيها على أهميةوجود حكم صالح لكل الشعوب والدول، وابان اهمية العلوم الجغرافية كعلوم مساعدة للفنون العسكرية وطالب بدراسة جميع اشكال وفروع القوات المسلحة الأوروبية وطرق تدريبها وتنظيمها فى معسكراتها، وفى ساحات القتال. وفى عام ١٧٣٢ كتب مقالاً صغيراً بعنوان «اصول الحكم فى نظام الامم»، وأوضح فيه كيف أن الأوروبيين كانوا

محرومين من الفوائد العلمية التى قدمها الاسلام كمصدر للوحى والالهام، ورغم ذلك عملوا من اجل حل مشكلاتهم اليومية. وانتقد متفرقة العقلية العثمانية المنغلقة، وقال ان الأوروبيين استطاعوا اختراع نظريات فى التدريب العسكرى والقتال مكنتهم من هزيمة العثمانيين والواقع ان مقال متفرقة كان اول عمل يظهر فى الدولة العثمانية يحث، إلى حد ما، على تقليد الغرب والدفاع عن التفكير العقلانى.

وخلال حكم السلطان محمود الثانى، قدم الى استانبول الكونت الفرنسى دى بونيڤال (De Bonneval) ، الذى كان قد خدم فى جيوش فرنسا واستراليا ليصبح جنرالاً فى سلاح المدفعية العثمانية. وبعد وصول بونيفال إلى الدولة العثمانية اعتنق الاسلام وسمى «خمبرجى احمد باشا»، وطلب من الصدر الاعظم طوبال عثمان باشا اصلاح فرق المدفعية على النمط الأوروبى. ونتيجة لجهوده، تم افتتاح «مدرسة العلوم الهندسية» فى سكتارى عام ١٧٣٤ ، وتبع ذلك انشاء مدرسة لتدريس الرياضيات لضباط الجيش، ولكن تم اغلاقهما بسبب موقف الانكشارية العدائى من حركة التجديد والاقتباس عن الغرب.

ولكن هذه الجهود لم تذهب سدى، وتزايد الاهتمام بالاصلاح فى عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧-١٧٧٣) . ولما كان السلطان يتخوف من اصلاح فرق الانكشارية فإنه اتجه نحو اصلاح البحرية والمدفعية واستعان ببعض الضباط والخبراء الاوروبيين، ومما شجع السلطان على الاتجاه نحو هذا الاصلاح، هو اقتناع العناصر البيروقراطية فى الدولة العثمانية بذلك. ففى عام ١٧٧٤ نشرت الطبقة البيروقراطية كتاباً قالت فيه «أن النظريات الجديدة تتعارض مع المؤسسات القديمة، وأن الامبراطورية بحاجة إلى مؤسسات جديدة»ونتيجة لضم روسيا للقرم فى عام ١٧٨٣ ، دفع برنامج الاصلاح دفعة جديدة إلى الامام بتشجيع من فرنسا.

وخلال الحرب مع النمسا وروسيا وصل إلى العرش السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧) وبدأ تهد جديد لحركة الاصلاح فى الدولة العثمانية، فكان رجلاً على مقدرة واطلاع كبيرين. فقد ارتبط بصداقة مع طبيب ايطالى يدعى لورنزو (Lerneze) وعن طريقة وطريق غيره استطاع الحصول على معلومات عن الامم في غرب أوروبا، وعن المؤسسات العسكرية والمدنية واسباب التفوق الذى حصل عليه الأوروبيون على العثمانيين. فبدأ يراسل شوازيل (Cheiseiul) المبعوث الفرنسى فى استانبول، فى عام ١٧٩٦ كما استطاع عن طريق صديقه الحميم اسحق بك ان يراسل الملك الفرنسي لويس السادس عشر وعى عن طريق ذلك للحصول على معلومات سياسية عن هؤلاء الذين قيل عنهم أنهم اعظم أمة فى الغرب.

وقد جاء السلطان سليم إلى العرش فى وقت كانت تتعرض فيه الامبراطورية لأخطار جسام. فمناطق الدانوب الشمالية باستثناء موالداقيا وولاشيا - قد تخلت عنها الدولة العثمانية للنمسا فى معاهدة كارلوفيتر عام ١٦٩٩ قبل قرن من الزمان على وجه التقريب. كما أن معاهدة كوتشيك ف ينارجه فى عام ١٧٧٤ ، قد أوصلت الروس إلى البحر الاسود ووضعتهم فى موضع جعلهم يحتلون القرم فى عام ١٧٨٣ ويتدخلون في الولايات الحدودية. ولقد ادت جهود كاترين الثانية إلى تحطيم الدولة وإقامة دولة يونانية جديدة على انقاظها إلى حرب جديدة بين الدولة العثمانية وبين روسيا والنمسا من ١٧٨٣ إلى ١٧٩٢ . وبإعتلاء السلطان سليم الثالث العرش استولى الروس على قلاع الدنيستر العظيمة واجتاحوا بسارابيا وغزوا مولدافيا. وخلال بضعة شهور قضى الحلفاء على المقاومة العثمانية فى فوكشانى (Fockshani) واستولوا على بلغراد وخلال الحرب تقدم قاضى العسكر تطويق

عبد الله افندى بمذكرة إلى السلطان سليم يطالبه بإصلاح القوات العثمانية المسلحة عن طريق تبنى العلوم والتدريب العسكرى الغربى، وترجمة الأعمال التقنية الأوروبية إلى اللغة التركية، واستخدام خبراء ومرشدين اجانب، وكان كبار العلماء يصرون على هذه الناحية الاصلاحية، فخلال كتاباتهم وخطبهم فى مجالات مجالس الدولة عبروا عن تأييدهم للاصلاح، وأيدوا اقوالهم ودافعوا عن نظرتهم بحجج اخذت من الشريعة الاسلامية والتاريخ الاسلامى المبكر وارتكزت على مببرات عقلية وأدراكية. فقد برهنوا على الجهاد ضد الكفار هو من واجبات المؤمن، وأن تقوية الجيش الاسلامى هو واجب دينى هام. وقد اصبحت هذه النظرية ضرورية فى الوقت الذى اخذت فيه الدولة العثمانية تعانى من الهزائم العكرية على ايدى القوات المسيحية المتفرقة فالاسلام لن يكون بسلام بدون تبنى التقنية العسكرية الاوروبية، فإن التعلم من «الكفار» يجب زلا يبرز أى شعور بالنقض بين المسلمين. فإن عليهم ان يتذكروا ان تقدم الغرب فى النواحى العسكرية كان انعكاسا لخوفه من التفوق العثمانى وانتطارات المسلمين لقرون كثيرة مضت. وأنه بإمكان الشريعة أن تكون ملائمة ومتكيفة مع ظروف الدولة، لأن الشريعة فى رأيهم انزلت لهدف مساعدة الدين الاسلامى على الانتشار وليس لوضع العقبات فى طريقه .

ولقد حاول السلطان سليم فى بداية الاتمر ان يجعل الانكشارية تنقل السلاح الجديد والمناهج العسكرية الغربية، ولكن الانكشارية عارضت بعناد طالمكا أن مركزها ووضعها فى المجتمع العثمانى كان يعتمد على احتكار تلك الاساليب العسكرية القديمة وهكذا كان على السلطان سليم أن يتخلى عن جهود الانكشارية وأن يركز على انشاء جيش جديد قصد منه أن يحل محل الانكشارية وفى عام ١٧٩١و اصدر السلطان امر إلى اثنين وعشرين مدنياً

وعسكرياً [١] طلب منهم فيه أن يعرضوا آراءهم عن اسباب ضعف الامبراطورية العثمانية وكيفية اصلاح الوضع فاتفقوا على ان الجيش القديم لم يعد صالحاً للحرب الحديثة، وبالتالى لا يمكن اصلاحه كما حثوا السلطان على انشاء جيش جديد مدرب ومجهز على النظام الأوروبى.

أن نواة الجيش الجديد جاءت فى الواقع بطريق الصدفة وقبل أن يتخذ السلطان سليم قراراً محدداً بتنظيم هذه الفرقة الجديدة. ففى اواخر عام ١٧٩١ كان الصدر الاعظم يوسف باشا ما يزال فى ساحة القتال ضد الروس، واجتمع فى معسكره مع عدد صغير من الضباط الروس الاسرى. وكان من بينهم احد الاتراك الذى كان قزد انتقل فى صغره إلى موسكو وتحول إلى المسيحية. وقام هذا الضابط وغيره من الضباط الروس الاسرى بالتعاون مع حرس الصدر الاعظم فى التدريب على المعدات الروسية المستولس عليها أما الصدر الاعظم مستخدمين اسلوب المناورات العسكرية الاوروبية وقد استطاع هذا الضابط اقناع الصدر الاعظم بإنشاء فيلق صغير يتكون من الاتراك الفقراء لتعلم التدرب العسكرى الأوروبى الذى طبق امام خيمته.

وبعد توقيع معاهدة حاسى عام ١٧٩٢، عاد الجيش السلطانى إلى استانبول وجاء معه الصدر الاعظم بفرقته الجديدة. ولكنه تركها فى قرية على مقربة من العاصمة حتى يستطيع ان يستكشف وجهات نظر السلطان حول هذا الموضوع حتى لا يعرض نفسه لغضب الانكشارية ومؤيديهم. ولما سمع السلطان بالفرقة الجديدة وجد أنها تتفوق من حيث التدريب والتنظيم على

---

(١) كان من بينهم اثنان من المسيحيين وضابط فرنسي يدعى برتراند (Bertrand) وكان يخدم فى الجيش العثمانى، ودوسون الترجمان والمؤرخ الارمنى الشهير الذى كان يعمل مترجماً فى السفارة السويدية فى استانبول.

الجيش العثماني وتتساوى مع الفرق الأوروبية، وفى نفس الوقت قام الصدر الاعظم بجمع حوالى مائة رجل من شوارع العاصمة للانضمام إلى الفرقة الجديدة، كما عين الضابط عمر اغا رئيساً لها، وعين اربعة ضباط من مشاة الجيش الفرنسى لتدريب هذه الفرقة.

وفى ابريل من نفس العام خصصت منطقة ليفانت شفتلك لتكون مركزاً لتدريب جنود هذه الفرقة. ويبدو أن اختيار هذا المكان كان بسبب رغبة السلطان بإبقاء أمرها سراً لتجنب اثارة الانكشارية إلى أن يحين الوقت المناسب للقضاء على اية معارضة بالقوة كما ظل أمرها سراً بين السلطان والصدر الاعظم. وفى بداية مايو طلب السلطان من الديوان ان يدرس انشاء فرقة جديدة من بين الانكشارية، فظهر تباين فى وجهات النظر بين مؤيدى السلطان وبين بقية الاعضاء الذين وافقوا على مضض حول كيفيفة تنظيم هذه القوات وهلى ستكون جزءاً من الانكشارية ام مستقلة. وفى ١٤ مايو اتفق على انشاء جيش جديد باسم «النظام الجديد» يتكون من جنود جدد ويكون منفصلاً عن الانكشارية، مع السماح لمن يشاء من الانكشارية بالانضمام إليه. وفى الشهر التالى ارسلت الحكومة العثمانية إلى فرنسا قائمة بأسماء الضباط والفنيين الذين ترغب فى استخدامهم لتدريب جيشها الجديد. فارسل وزير الحربية الفرنسى ثلاثة ضباط وستة من ضباط الصف كما ازدادت فى الوقت نفسه كميات البنادق المستوردة من فرنسا وانجلترا والسويد وقد واكب ذلك افتتاح المدارس العسكرية والبحرية الجديدة، وعين ضباط فرنسيين للتدريس فى هذه المدارس. واصبحت اللغة الفرنسية لغة إلزامية لجميع الطلاب. واستمر أمر هذه الفرقة الجديد سراً لا يعلمه سوى السلطان والمقربين إليه وأعضاء الديوان. عام ١٧٩٤. وابتداء من شهر سبتمبر عام ١٧٩٤ قام السلطان مع وزرائه بزيارة ليفانت شفتلك، وحاول بذلك اعلام الرأى العام بوجود هذه الفرقة ولاضفاء

الصفة الرسمية على نشاطها. واذاع السلطان مرسوماً أعلن فيه انشاء الجيش الجديد. وفى نهاية عام ١٧٩٦ اكتمل بناء ثلاث ثكنات جديدة ومصنع للبنادق ومسجد ومدرسة.

وبازدياد عدد الجند فى الجيش الجديد ازدادت المشاكل وخصوصاً فى طريقة الانضباط والنظام التى كانت قد اوصلت الجيش القديم إلى ادنى مستوى من السمعة السيئة ففى السنوات الأولى كانت نواة الجيش الجديد تتألف من المرتدين الذين سقطوا اسرى فى ايدى القوات العثمانية خلال الحرب النماسوية الروسية. وكتن حجم الجنود الذين ادرجوا على قائمة التجندى فى استانبول فى السنوات الأولى من الاتراك وبصورة رئيسية من العاطلين الذين انضموا للجيش الجديد لعدم وجود خيار لهم ضد مجاعة، ولقد اعتادت هاتان المجموعتان على النظام وتقيدنا به. غير أن معظم الجنود الذين ادرجوا بعد عام ١٧٩٦ ، جاءوا من القرى والمناطق القبلية فى الاناضول وفى عام ١٨٠٠ كان ٩٠٪ من مجندى الجيش من الفلاحين الاتراك ورجال القبائل فى الاناضول وأدى دخول هؤلاء فى الجيش إلى نتيجتين وخيمتين: فقد انعدم النظام والانضمام بين الفرق، ولم يعد بالامكان استيعاب هؤلاء الجند، وبالتالى انقطع كثير منهم عن التدريب. والحد من هذه الفوضى فقدرت فى عام ١٨٠١ تنظيمات جديدة للتدريب الدورى تتيح لجميع المجندين التدريب وفى نهاية عصر السلطان سليم الثالث كان هناك ما يقرب من ٢٥٠٠٠ جندى جديد مسلحين بالنظريات الأوروبية ومدربين بواسطة الفرنسيين وخلال نفس الفترات فتح السلطان سليم نافذة أخرى على الغرب واعتنى بهـا الاصلاح الدبلوماسى. ففى ذروة المجد العثمانى لم يكن للدبلوماسية – نسبياً سوى تأثير قليل فى شئون الدولة. فمن الناحية النظرية

وجدت الدولة العثمانية لحماية وتوسيع دار الاسلام ما دام هذا العمل ينجز بفاعلية بواسطة المؤسسات العسكرية التى عن طريقها اسس السلاطين دولتهم فإن الدبلوماسية قد خدمت هذه القضية بطريقة ثانوية. فقد اعتاد السلاطين - الذين دعمتهم جيوش لا تقهر - أن يديروا العلاقات الخارجية بطريقة سهلة، فكان السلطان يملى رغباته ثم يعلن الحرب إذا لم تلق هذه الرغبات احتراما. ولكن بانتهاء القرن السابع عشر ووصول الدولة إلى حافة الأنهيار وبتداعى الامبراطورية وفساد جيشها فإن السلاطين لم ينجحوا فى وقت التدهور فى الدولة أو وقف تقدم الأعداء، وقد ادت هذه الظروف الجديدة إلى اجبارهم على الدخول فى مفاوضات عند كل حادث مع جيرانهم الأوروبيين. وبذلك اخذت الدبلوماسية تحتل مكاناً اساسياً فى سياستهم الخارجية للمحافظة على ما تبقى من بلادهم. ومع ذلك فقد ظلت الدبلوماسية العثمانية عاجزة بوضوح عن التكيف مع ازدياد ولياتها.

ووضعت ادارة العلاقات الخارجية العثمانية فى هذه الفترة تحت اشراف رئيس الكتاب الذى كان سكرتيراً للصدر الاعظم. وحين استقر السفراء الاوروبيون الاول فى استانبول كان الصدور العظام هو الذين يقومون بإجراء المفاوضات ولم يكن رؤساء الكتاب يفعلون اكثر من تسجيلها. واصبح لدى الصدور العظام - تدريجياً - كثير من المسئوليات التى استوجبت اشرافهم عليها، وهو ما حدث عندما انسحب السلطان من الاشراف على تلك المسئوليات بنفسه. وحينما ازدادت العلاقات بالدول الاوروبية تعضيداً، واصبحت بحاجة إلى مزيد من العناية والمهارة ألقيت مسئولية الاشراف على العمل الدبلوماسى على عاتق رئيس الكتاب الذى انتدبه الصدر الاعظم لإدارة العلاقات الخارجية، والواقع ان النظام الوزارى للدولة العثمانية قد فشل كلية

فى أن يكون على مستوى الانظمة الوزارية فى اوروبا. وهكذا كان الصدر الاعظم موظفاً أعلى من رئيس الوزراء أما رئيس الكتاب فكان موظفاً أقل من وزير الخارجية. وغالباً كان رئيس الكتاب جاهلاً بكل ما يتعلق بالسياسات الأوروبية وكان يضطر إلى الاعتماد على تراجمة اليونان فى حى الفنار فى التعامل مع الدبلوماسيين الغربيين.

وقد قام السلطان سليم فى بداية اصلاحاته بتجديد السلك الدبلوماسى للباب العالى فقد لاحظ أن البقاء على مقربة من الاحداث فى اوروبا عمل لا غنى عنه لضمان أمن دولته، وعندما انتهت الحرب مع النمسا وروسيا فى عام ١٧٩٣ بدأ بتجديد الاتصالات لتحديث الدبلوماسية العثمانية عن طريق تعيين عدد من البعثات الدبلوماسية المقيمة فى عواصم أوروبا الرئيسية. وكان السفراء يستبدلون بغيرهم كل ثلاث سنوات وكان عليهم بالاضافة إلى عملهم الدبلوماسى التعرف على المؤسسات وقوانين البلاد التى يخدمون فيها، وأن يحصلوا على قسط من المعارف والعلوم باللغات المفيدة لخدمة دولتهم وكان معظم هؤلاء السفراء ورالدبلوماسيين من موظفى القصر ومن البيروقراطيين الذين جهلوا اللغات الأوروبية وتمسكوا بمفهومهم القديم عن الغرب الاوروبى. ورغم ذلك فإن هؤلاء السفراء لم يسافروا بمفردهم، ولكنهم اصطحبوا معهم سكرتيرن عكفوا على دراسة اللغات الأوروبية، وخاصة اللغة الفرنسية وتعرفوا على عادات المجتمع الغربى.

وفى عهد السلطان سليم ايضا، طرأ تطور آخر جديد فى السياسة العثمانية الخارجية فاعتنق السلطان مبدأ التحالف مع الدول الأوروبية لتحقيق القوة والامن للامبراطورية. وقد ظل العثمانيون – لفترة طويلة – غير قادرين على الدفاع عن انفسهم دون مساعدة خارجية وبمجرد اعتلاء السلطان سليم عرش

السلطة فإنه انحرف عن السياسة العثمانية التقليدية - وهى سياسة العزلة - ودخل فى تحالف دفاعى مع السويد وبروسيا اللتين كانتا فى حرب مع روسيا عام ١٧٩٠. ولكن السلطان لم يقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن حصل على دعم العلماء له فبرغم أن هذا العمل كان يعد معارضا للشريعة، إلا أن شيخ الاسلام وكبار العلماء وافقوا عليه. ويبدو ان كبار العلماء قد استشهدوا بالحكمة القديمة وهى أن «الضرورة تبيح المحظورات» وعلى عكس تعصب جمهور الشعب الاسلامى وصغار العلماء والطلاب، فإن معظم افراد الطبقة العليا من العلماء فهموا حاجة الدولة فى تلك الفترة إلى قيام علاقات حسنة وتحالف قوى مع الدول الأوروبية.

وكان آخر اصلاح فى النظام الدبلوماسى العثمانى هو انهاء المساعدات العثمانية للبعثات الاجنبية فى استانبول. فقبل عهد السلطان سليم الثالث، كانت الحكومة العقثمانية تتكفل بمصاريف اقامة البعثات الاوروبية الدائمة، وقد نشأت هذه العادة اصلاً عند العثمانيى كدليل على ترفعهم، وتذكير للسفراء الأوروبيين بأن وجودهم هو رهن السلطان بذلك، هذه النظرة كان بالامكان الاحتفاظ بها عندما كانت الدولة العثمانية فى أوج قوتها وعظمتها، وعندما كان المبعوثون الاوروبيون مضطرين إلى العتماد مالياً على الباب العالى بسبب صعوبة الاتصال مع حكوماتهم من جهة وبسبب سياسة الاقتصاد فى النفقات الدبلوماسية التى كانت تتبعها الدول الاوروبية من جهة اخرى. ولكن فى بداية القرن التاسع عشر، لم يعد باستطاعة الدولة العثمانية الاستمرار فى الانفاق على هؤلاء السفراء. ففى يونيو عام ١٧٩٤ اصدر السلطان سليم الثالث مرسوماً اعلن فيه سياسته الجديدة بالنسبة لمخصصات السفراء. فقد نص المرسوم على اعطاء مخصصات للسفراء فوق العادة ولبقية رتب السفراء خلال

تنقلاتهم داخل الأراضى العثمانية فقط، وقد سبب هذا المرسوم استياء فى اوساط السفراء الاجانب، وادعا سفيرا انجلترا وهولندا أن هذا الاجراء يعتبر إهانة مباشرة لحكومتهما. ويبدو أن المرسون لم ينفذ تماماً. فقد اعيدت المخصصات واجور السفر إلى ممثلى الدول الصديقة دون أن يصدر قرار بالغائه.

التأثير الفرنسى فى عصر السلطان سليم ورد الفعل العثمانى (وموقف المعارضة).

ويعزوا بعض المؤرخين نجاح الافكار الفرنسية والغربية فى الدولة العثمانية إلى القوة المادية للغرب فى اقامة اقتصاد اوروبى متين وتفوق عسكرى وسياسى يفوق كثيراً ما كان لدى العثمانيين أو أية أمة اسلامية. ويبدو ان نجاح افكار الثروة الفرنسية فى عالم السلام، وفى الدولة العثمانية، كان يرجع إلى أنها كانت أول ثورة اجتماعية عظيمة فى اوروبا تدعوا إلى العلمانية ولا تتأثر بالعقيدة الدينية المسيحية. ففى خلال القرنين الثامن عشر والتساع عشر استطاعت افكار الثورة الفرنسية ان تخترق الحواجز السياسية والدينية لمجتمعات اوروبا الغربية وتشمل الثورة ضد النظم الاوترقراطية القديمة فى اوروبا. «فالأمة الفرنسية ستجود بالاخلاء وبالمساعدة على جميع الشعوب التى تتحسس عميقاً الرغبة فى استرجاع حريتها المهيضة. فالاقربون هم بالطبع اولى بالمعروف ولذا بادرت القوات الفرنسية باحتلال بلادهم. وكان من الطبيعى ان تخرج هذه الافكار عبر الحدود والمحيطات لتصل إلى امريكا وبقاع العالم.

ولم تستثن الدولة العثمانية أو الولايات الخاضعة لها من تأثيرات هذه الثورة وإذا كانت التأثيرات الفرنسية فى الدولة العثمانية عسكرية ودبلوماسية اكثر منها فكرية إلا أن هذه المؤثرات قد فتحت افنية تسرب منها الفكر

والتقنية الاوروبية – لأول مرة إلى عالم الاسلام فإن التجديد جرى بمساعدة المرشدين والخبراء الفرنسيين حيث وجد العثمانيون أنه من الضرورى تعلم اللغات الاوروبية، وهكذا بدأ العثمانيون ينقبون فى الآداب الغربية، وبهذه الطريقة أخذت الافكار الغربية وافكار الثورة الفرنسية تتغلب على حواجز الرفض الاسلامى لكل ما هو مسيحى، وسار تقدم الدولة العثمانية نحو الدولة الحديثة فى مجراها الطبيعى. والواقع أن هذا التأثير قد اصاب المجتمع العثمانى بكل فئاته ولئن كان التأثير ضعيفاً فى البداية، إلا أنه اصاب ايضاً الفئات المسيحية التى كانت تعيش تحت سلطة الدولة العثمانية .

وخلال القرن التاسع عشر استطاعت هذه الافكار أن تؤثر فى بنية المجتمع العثمانى وان تصيب جميع فئاته درجات متفاوتة، هذه الافكار كلها كانت تتلخص فى ثلاث كلمات حرية – اخاء – مساواه، فإن التعبير عن الافكار والآراء هو من اثمن الحقوق التى يتمتع بها الانسان. فلكل مواطن حرية الكلام والكتابة وحرية النشر بشرط أن يتحمل مسئولية تجاوز هذه الحرية فى الحالات التى ينص عليها القانون[1]، وقبل القرن التاسع عشر كانت كلمة «حرية» من الناحية المبدئية فى لغات الاسلام تعبير قانونى يرمز إلى نقيض العبودية.

وخلال القرن التاسع عشر اكتسبت كلمة «حرية» صفة سياسية من اوروبا واصبحت صرخة الحرب للصراع ضد الطغيان المحلى والامبريالية الاجنبية. فالأخذ بالحرية يتطلب دساتير وحكومات تمثيلية وحكم القانون. وهذا بالتالى يتطلب سلطة علمانية وتشريع مع طبقة جديدة من المثقفين

---

(١) المادة ١١ من مرسوم اعلان حقوق الانسان الذى اصدرته الجمعية التأسيسة للثورة الفرنسية.

تختلف عن هؤلاء الذين حكموا بالقانون الإلهى أو طبقوا الحكم الاوتوقراطى فى الفترات السابقة.

،ونصت المادة الاولى من مرسوم الحقوق بأنه «يولد الناس احراراً، ويستمرون متساوين فى الحقوق فالفوارق الاجتماعية لا يمكن ان تتركز إلا على المنفعة المشتركة ومع ذلك فإن عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية لم يؤد الى التفاوت الطبقى فى المجتمع الاسلامى الذى لم يعرف الحواجز الاجتماعية الصارمة والامتيازات الطبقية الموجودة فى اوروبا قبل الثورة وهكذا لم يكن عناك تباين واسع بين الغنى والفقير ولكن المفهوم الغربى للامة كمفهوم قومى يقوم على اللغة والعرق والاقليم لم يكن معروفاً فى الشرق الاسلامى، ولم يكن ابداً الاساس لوحدة الجماعات. فكان المفهوم الاسلامى هو وحدة الاخوة فى الايمان ضمن المجتمع الدينى الذى يتقوى بالتحالف الاسرى. ومع ذلك فإن هذه الثرات لم يكن لها صدى كبيراً فى عالم الاسلام فى هذه الفترة التى تناولها ويبدو أنها اصابت المسيحين من رعايا الدولة العثمانية أكثر من المسلمين.

وعندما قامت الثورة الفرنسية لم يكن لها سوى تأثير على العثمانيين الذين اعتبروها مجرد عمل داخلى بحت ليس له اهمية كبرى، ويبدو ان انشغال اوروبا المسيحية بالصراع مع فرنسا الثورة كان مفيداً للباب العالى من الناحية السياسية. ففى عام ١٧٩٢ قال احمد افندى السكرتير الخاص للسلطان سليم «ليجعل الله الثورة فى فرنسا تنتشر كالزهرى فى اعداء الامبراطورية، ويقذفهم فى صراع طويل مع بعضهم البعض بحيث تكون النتيجة بما ينفع الامبراطورية» ومن الواضح ان الحكومة العثمانية كانت تعطف على الثورة الفرنسية وتوسعها فى الاراضى الاوروبية، لأن ذلك سوف

يبعد عنها اطماع النمسا وروسيا فى اراضيها. ولم يكن تأخر الدولة العثمانية فى الاعتراف بالجمهورية الفرنسية إلا سبب التحذيرات والاحتجاجات من جانب النمسا وروسيا. ومع ذلك فقد استمر شحن المؤن إلى فرنسا من موانئ الدولة العثمانية التى استمرت كذلك فى الاستعانة بالخبراء العسكرين والبحريين والفرنسيين.

وفى ربيع عام ١٧٩٨، طلب من احمد عاطف افندى اعداد مذكرة لعرضها على الديوان عن الوضع السياسى وعن دعوة الحلفاء للدولة العثمانية لمشاركتها فى عمل موحد ضد فرنسا. وجاء تقرير احمد عاطف ليؤكد وجهات نظر الحلفاء بأن الثورة الفرنسية هى حقاً خطر يهدد الامبراطورية العثمانية كما يهدد الدول المسيحية. وجاءت الاحداث التى تتالت فى مصر بعد نزول الحملة الفرنسية فى الاسكندرية فى يوليو عام ١٧٩٨ لتؤكد على صداقة الدولة العثمانية، وعاد صوت فرنسا يدوى من جديد فى استانبول وازداد نفوذ سفراء نابلوين فى العاصمة العثمانية.

ويبدو أن هذه السياسة قد لاقت معارضة من جانب الحزب الرجعى فى استانبول الذى كان يتزعمه حالت افندى (عمل سفير لبلاده فى فرنسا من ١٨٠٢ إلى ١٨٠٦) ففى الايام الاولى للجمهورية الفرنسية بدأ هذا الحزب يعمل ضد سياسة فرنسا فى الدولة العثمانية. وقال حالت افندى أن الفرنسين حاولا خداع القلوب البسيطة والتحريض على العصيان، وحاولوا ان يقدموا انفسهم على زنهم مسلمين، وادعوا انهم لهذا السبب دمروا الكنائس ولما وجدوا أن ذلك غير مجدٍ نشروا كتباً معينة من اعمال فولتير. وطبقاً لتقارير معينة فقد لاحظ الفرنسيون انه طالما أن شعوب الامبراطورية تجهل الفرنسية فإن جهدهم عديم التأثير، ولذلك فقد ترجموا عدداً ككم من الكتب إلى

اليونانية والارمنية والتركية يدافعون فيها عن مزايا الحرية والحكم الجمهورى كما حاولا نشر هذه الآراء داخل الاراضى العثمانية وبالاضافة إلى ذلك فقد ارسلوا عملاء لهم إلى كل جزر البحر المتوسط للتحريض على النشر. وبعد قتل لويس السادس عشر كتب حالت افندى عن حكام فرنسا فقال «طالما ان الفرنسيين ليس لديهم ملك، فلن يكون عندهم حكومة وعلاوة على ذلك، وكنتيجة لهذه الفترة التى لا يوجد فيها ملك يحكم فإن معظم المراكز العليا يشغلها قذارة الناس. وهكذا لم يبق سوى قلة من النبلاء فالسلطة الفعلية فى ايدى الرعاع ولذا فلن يتمكنوا من انشاء جمهورية وطالما أنهم (رجال الثورة الفرنسية) ليسوا اكثر من جماعة من الثوار او بالصراحة التركية «زمرة من الكلاب» ، فإنه ليس بامكان اية امة أن تتوقع الصداقة والاخلاص من هؤلاء الناس» كما وصف نابليون بونابرت بأنه «كلب متوحش يجاهد لتحويل كل الدول إلى نفس الفوضى والاضطراب السائدين فى امته الملعونة» وبالرغم من تشجيع حالت للحزب الرجعى فى استانبول ضد النفوذ الفرنسى فان هذا النفوذ قد استمر فى النمو .

وفى عام ١٨٠٥ بدأ الصدام مع المعارضة العثمانية وذلك عندما اصدر السلطان سليم الثالث مرسوماً بضرورة انخراط احسن عناصر الانكشارية فى صفوف الجيش الجديد ليحلوا محل الجنود المتطوعين الذين كانوا ما يزالون يشكلون القاعدة الرئيسية للجيش الجديد، إلا أن هذه الخطوة الجريئة قد اثارت استياء الاتنكشارية والعلماء ضد سياسة السلطان سليم «ونظامه الجديد» فقام الانكشارية بالثورة فى روميليا وعندما ارسل السلطان إليهم فوجا من الجيش الجديد فى الاناضول أبيد عن آخره. وفى ضوء هذه الانتصارات تمكنت الانكشارية والجماهير فى العاصمة من تعطيل الاصلاحات. ولكن يتحاشى

قيام ثورة عامة اقتنع السلطان بطرد مستشاريه المصلحين وأعاد فرق الجيش الجديد إلى الأناضول وعهد بالصدارة العظمى إلى اغا الانكشارية. وبوفاة شيخ الاسلام فى أوائل عام ١٨٠٧ وجهت بذلك ضربة مباشرة إلى جهود السلطان سليم لأن شيخ الاسلام المتوفى كان من اصدقائهم ومن المؤيدين لبرنامجه الاصلاحى. وجاء شيخ الاسلام الجديد محمد عطا الله ليقود العناصر الرجعية من كبار العلماء ضد اصلاحات السلطان وليتحالف مع الانكشارية ضد العرش.

وفى مايو من نفس العام، ذهب السلطان لتأدية صلاة الجمعة مصطحباً معه السفير الفرنسى وفريق من جنود جيشه الجديد مما اثار الانكشارية والعناصر المعارضة وانفجرت الثورة فى العاصمة. وكانت العناصر المتمردة من الانكشارية تلقى تأييداً من شيخ الاسلام محمد عطا اله واستاذه محمد منيب وقاضى استانبول مراد زاد ومحمد مراد وعدد من كبار العلماء الذين وقعوا حجة شرعية «اتهموا فيها اصلاحات النظام الجديد بأنها بدعة غير شرعية وتقليد للكفار وقامت العناصر المتمردة بمساعدة جمهور العاصمة الغاضبة بقتل جميع الموالين للحركة الاصلاحية. وفى ٢٩ مايو وجه موسى باشا - نيابة عن ضباط الانكشارية - سؤالاً إلى شيخ الاسلام عما إذا كان السلطان الذى سن القوانين المخالفة للشريعة يصلح لان يستمر فى الحكم ولما جاء الجواب بعزل السلطان لمخالفته للشريعة قام المتمردون بتعيين مصطفى ابن عم السلطان سليم سلطاناً على الدولة. واعقب ذلك حل فرق الجيش الجديد وعين زعيم المتمردين قائد الحصون البوسفور.

وما ان عزل السلطان سليم الثالث وتولى السلطان مصطفى الرابع الحكم، حتى قام السلطان الجديد بالتوجه فى موكب عظيم إلى الجامع الكبير متقلداً

سيف الرسول وحيث اعلن الغاء النظام الجديد وعودة النظم القديمة. وبدا وكأن حركة صلاح قد خمدت، فالسلطان المصلح قد عزل، وجيشه قد سرح ووزراءه قد قتلوا واعتقلوا وتولى شيخ الاسلام وأغا الانكشارية وموسى باشا مسئولية الحكم فى استانبول. غير أنه ما لبث أن دب الصراع بين شيخ الاسلام وحلفائه، فعزل شيخ الاسلام القائم موسى باشا وعين مكانه طيار باشا الذى عزل بدوره فى عام ١٨٠٨ . ولجأ طيار باشا إلى بيرقدار باشا، وإلى سيلستريا وقائد جبهة الدانوب وهو الوحيد الذى بقى من مؤيدى حركة الاصلاح متمتعاً بمركز قوى.

كان بيرقد باشا قد شارك فى ثورة الانكشارية عام ١٨٠٥ ضد النظام الجديد ولكنه ما لبث أن اصبح من مؤيدى السلطان سليم الثالث الذى قلد منصباً عسكريا رفيعا. وبعد عزل السلطان سليم، اتخذ من روتشك نقطة تجمع للعناصر المصلحة التى بقيت على قيد الحياة. وفى ٢٨ يوليو ١٨٠٨ انتهز بيراقدار باشا فرصة مغادرة السلطان مصطفى الرابع العاصمة الى البوسفور، وزحف عليها بقوات تقدر بين ١٨ ألفاً معظمها من الجنود الالبانيين والبوسنيين، وفوجئ بيراقدار باشا بأن السلطان مصطفى الرابع قد عاد من منطقة البوسفور وأمر بإعدام السلطان سليم. وانتقاما لذلك امر بيراقدار باشا مدفعيته بقصف القصر السلطانى، واعتقل السلطان مصطفى الرابع وامر باعدام موسى باشا وبقية الخونة. ويبدو أن العناصر الرجعية قد حاولت قتل الامير محمود الثانى ايضا ولكنها لم تتمكن بسبب قراره. وبعد ان سيطر السلطان مصطفى الرابع.

وخلال الفترة القصيرة التى تولى فيها بيرقدار باشا منصب الصدارة العظمى قام بتنفيذ بعض الاصطلاحات. فعقد اجتماعا لحكام الولايات فى

استانبول لبحث خطط الاصلاح وللحصول على تأييدهم لما يتخده من خطوات. وفى اجتماع اخر حضر السلطان محمود الثانى، وافق الجميع على خطة لتنظيم قوة عسكرية اكثر فعالية من الانكشارية وتسمى «سكمان» ويبدو أن بيراقدار باشا حاول اعادة النظام الجديد تحت اسم آخر وبعدما اصدر شيخ الاسلام فتوى لتأييد اصلاح الانكشارية، وقع حكام الولايات وكبار الشخصيات وثيقة اعلنوا فيها موافقتهم على برنامج الاصلاح. ولقد كسب هذا الانتصار بيراقدار باشا ثقة كبيرة بالنفس، فاستعجل تنفيذ الاصطلاحات دون ان يحصل على دعم شعبى لهذه التنظيمات الجديدة. وقام بصرف عدد كبير من الموظفين بعدما صادر ثلثى اقطاعاتهم بحجة انها جمعت بطرق غير شرعية وقد ادت هذه السياسة إلى اعداء البلاط والعلماء له ونقمتهم عليه. وخوفاً من ان يتدخل فى ادارة الاوقاف، حرض العلماء الناس على العصيان.

وفى ١٤ نوفمبر عاد الانكشارية إلى الثورة مرة اخرى بسبب عودة الاصلاحات التى كان السلطان سليم قد قام بها قبل وفاته. وقام الانكشارية بتطويق الباب العالى مقر اقامة الصدر الاعظم – واشعلوا النار فيه مما اسفر عن مقتل البيراقدار باشا. وفى نفس الوقت، اشتبكت الانكشارية مع قوات «السكمان»، ولكن كفة الانكشارية كانت ارجح بسبب انضمام سلاح المدفعية إليهم، على الرغم من أن بعض قطع الاسطول العثمانى قامت بقصف ثكنات الانكشارية من البحر وانتهت المعركة بانتصار الانكشارية والعناصر الرجعية، واجبر الانكشارية السلطان محمود الثانى على الغاء فرق «السكمان» ثم قاموا باحراق ثكناتهم.

الاصلاح والتجديد فى عهد محمود الثانى :

تولى السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩) العرش فى الوقت الذى كانت تتعرض فيه الامبراطورية الى اخطار جسام وداخليا. فقد جلبت الحروب النابليونية معها ثورة الصرب وحروب مع روسيا دامت حتى عام ١٨٢١ . وفى نفس الوقت تزايدت سلطة الموحدين (الوهابيين) فى شبه الجزيرة العربية مما اجبر السلطان على الاستعانة بمحمد على والى مصر للقضاء عليهم. وفى الوقت الذى شهد فيه السلطان تخاذل الانكشارية امام روسيا وامام الموحدين كان عليه أن يواجه ايضاً ثورات الانكشارية وتمرداتهم فى العاصمة والولايات. ففى الداخل اكدت ثوراتهم فى عام ١٨٠٨ و ١٨٠٩ و ١٨١٠ و ١٨١١ عدم امكانية اصلاح هذه الفرق. وعندما تمردوا مرة اخرى عام ١٨١٤، حاول السلطان محمود الثانى اصلاحهم عن طريق اجبار غير المتزوجين منهم على الاقامة فى الثكنات بدلاً من منازلهم ولكن هذا المشروع فشل تدريجياً مما اقنع السلطان بأن اعادة تنظيم الانكشارية ليس هو الحل الوحيد، ولذلك فقد قام بتنفيذ خطة مدروسة رسمها مع مساعديه ومن بينهم شيخ الاسلام قاضى زاده ظاهر افندى، والصدر الاعظن سليم محمد باشا وجلال الدين اغا الانكشارية فى عام ١٨٢٦ . وجاءت الضربة القاضية فى مايو عام ١٨٢٦ عندما اعلن انشاء فرق عسكرية جديدة لإعادة الفعالية العسكرية لالقوات العثمانية. وقد اقسم زعماء الانكشارية وكبار الشخصيات الدينية والمدنية على تنفيذ هذه الخطوة الاصلاحية التى وصفت بأنها تتوافق مع المبادئ الاسلامية. والواقع أن القضاء على الانكشارية لم يتم بطريقة الصدفة، وإنما كان نتيجة خطة مدروسة بدأها السلطان محمود الثانى فى عام ١٨٢٢ . فقد بدأ السلطان بسلسلة من التغييرات فى القيادة العسكرية وعين أعواناً مخلصين لمساعدته فى

إعادة تنظيم الجيش. ثم قضى السلطان على العناصر البيروقراطية فى اجهزة الحكم وجلب مجموعة من الموظفين المخلصين لخدمة اهدافه وكانت الخطوة الثالثة هى الحصول على عطف وتأييد العلماء الذين كانوا يخشون السلطان محمود الثانى لأن الضعف الذى اصاب كيانهم لم يعد يمكنهم من مقاومة سياسته علنا، فمنذ نهاية القرن الثامن عشر اخذت قوتهم وسلطتهم فى التدهور فالفجوة الهائلة بين كبار العلماء وصغارهم، والصراع بين كبارالعلماء انفسهم للحصول على المراكز العليا، ادت إلى حدوث مكائد مستمرة، بالإضافة إلى ذلك انحطت هيبة العلماء وسمعتهم وزاد نمو الفساد فى سلوكهم، فكانت الوظائف العليا تباع للاشخاص غير المناسبين لتولى هذه المناصب، ولذلك اضطرهم ضعفهم إلى التقرب من السلطان والحصول على عطفه وانضم عدد منهم إلى بعض الموظفين وشكلوا حلقة من المفكرين المهتمين بالادب، والموسيقى. وكان من بينهم الملازاد عبد الوهاب الذى ايد سياسة السلطان محمود الاصلاحية. وكتب مقالاً بعنوان «خلاصة البرهان فى اطاعة السلطان» يدعو الناس فيه إلى طاعة السلطان وعلى الرغم من تحدى طلاب المدارس الدينية وصغار العلماء للسلطة الحكومية ولكبار العلماء علنا، فقد حاول السلطان أن يهدئ من معارضتهم عن طريق اصلاح وتجديد كثير من المساجد والمدافن وزوايا الدراويش وغيرها من الابنية الدينية فى العاصمة والولايات كما حرص السلطان على حضور الصلوات العامة وقام بزيارة زوايا الدراويش وخصوصاً جماعة النقشبندية والمولوية .

وكانت خطوة السلطان الاتخيرة هى الحصول على تأييد الرأى العام لسياسته الاصلاحية ولقد ارتبطت هذه الخطوة بالخطوة التى سبقتها فالعلماء هم الذين قاموا بتوعية الناس بسياسة السلطان محمود الاصلاحية. ولما كان

السلطان يدرك أنه بحاجة للدعاية عن برنامجه فى اوساط الرأى العام، فقد عين احد كبار المؤرخين ويدعى شانى زاده مؤرخا رسمياً للدولة فى عام ١٨٢٥. ولكن علاقة شانى زاده بجماعة البكتاشية التى استمدت نفوذها من الانكشارية قد ادت إلى عزلة فى العام التالى وخلفه محمد اسعد افندى احد كبار العلماء ليكون المؤرخ الرسمى للدولة من ناحية وممثل السلطان محمود الثانى لدى الرزى العام من ناحية اخرى وقد لعب محمد اسعد دوراص هاماً فى عملية القضاء على الانكشارية، ووصف نهايتهم فى كتاب بعنوان «اساس الانتصار» قدمه الى السلطان بعد القضاء عليهم بوقت قليل. وقام الكتاب الذين استخدمهم السلطان محمود الثانى فى جهازه الدعائى بتصوير الانكشارية على انها عناصر مسلمة سيئة منتهكة للشريعة، واتهمتها بتمزيق القرآن اثناء ثوراتهم ولم يكتفوا بذلك بل اتهموا ايضاً جماعة البكتاشية بشرب الخمر فى شهر رمضان واهمال الصلاة فى الاماكن العامة وعدم الاعتراف بالخلفاء الراشدين ما عدا سيدنا على ابن ابى طالب. وبعد ان قام الانكشارية بالتمرد فى القدس عام ١٨٢٥، القى حليم افندى وهو استاذ فى الشريعة وعضو الهيئة الاسلامية محاضرة امام كبار الموظفين فى استانبول هاجم فيها الانكشارية.

وخلال شهر مايو عام ١٨٢٦ عقد السلطان محمود الثانى سلسلة من الاجتماعات ومشاورات مع اعوانه للاتفاق على تنظيم الانكشارية وتقرر اعداده قانون يعطى الحكومة حق اختيار ١٥٠ رجلاً من كل اورطة فى الانكشارية التى يبلغ عددها ١٥١ اورطة، أو ما مجموعه ٧٦٥٠ جندياً يعاد تنظيمهم تحت اسم «اسكنجى» أى «الجند النشيطين» ويبدو أن استخدام اصطلاح «اسكنجى» القديم كان يهدف إزالة شكوك الانكشارية وتذكيرهم بامجادهم

السابقة وفى الاجتماع الذى تم فى ٢٨ مايو برئاسة السلطان فى مقر شيخ الاسلام وحضره ممثلون عن العسكريين والمدنيين، قرأ محمد زيد افندى وزير الخارجية المرسوم الخاص بإنشاء «الاسكنجى» وقد اشتمل المرسوم على ٤٧ مادة تهدف إلى فرض الطاعة والنظام عن طريق اقامة قيادة من الضباط الاكفاء. وشدد المرسوم على منع الرشوة والغياب بدون عذر كما عالج نظام التقاعد المؤقت والنهائى. ونص المرسوم على اعطاء كل ضابط وجندى مهام وسلاح كاف، وثياب ومعدات ومرتبات تزداد تدريجياً وهكذا حصل السلطان محمود الثانى على اعتراف كبار موظفى الدولة وكبار العلماء وما يقرب من ١٥٠ ضابطاً انكشارياً بوجود حاجة ملحة للاصلاح الذى ينسجم مع حدود الشريعة الاسلامية.

ولكن ما ان زاع خبر هذا المنشور حتى قام مصطفى اغا، قائد الاورطة ٣٢١ من اوجاق بلوك ويوسف الكردى مستشار الفرق بالاجتماع مع كبار قادة الانكشارية المناوئين للسلطان محمود الثانى، واقسموا على النضال فى سبيل تحطيم برنامج الاصلاح وفى يوم ١٢ يونيو صدرت الأوامر إلى كل اورطة بإرسال ٣-٥ عناصر من الاسكنجى» للاجتماع فى الساحة الواقعة فى قلب استانبول القديمة. وبعد ان انتهت صلاة الجمعة حضر جميع الذين شاركوا فى اجتماعات السلطان وناقشوا الجند حول قضايا «الاسكنجى» والتدريب واللباس[1] ، واخبروهم بأنهم اقتبسوا ذلك من النظام العسكرى الذى كان يطبق فى مصر(بالنسبة لجيش محمد على) وليس من النظام

(١) اختلف اللباس الجديد عن لباس الانكشارية الفضفاض وبدلا من السراويل الفضفاضة تلقى الجند سراويل قصيرة ضيقة على الطراز الاوروبى مع قطعة قماش لتغطية الساق ما بين القدم والركبة. كما ارتدوا سترات قصيرة الاكمام وقلنسوات ملونة وفى عام ١٨٨٢ عرض على السلطان نوع جديد من غطاء الرأس يسمى الطربوش مصدره شمال افريقيا وقد امر الجنود بلباسه.

العسكرى الاوروبى، ورغم ذلك تزايد تمرد الانكشارية، وارسلوا فريقاً لقتل سليم محمد باشا، الصدر الاعظم وجلال الدين، اغا الانكشارية، وكبار الرسميين ولكن الخطة فشلت ولم يقتصر الامر على ذلك بل انتشر المتمردين فى شوارع العاصمة يهتفون «الموت للذين اصدروا المرسوم»، وعندما علم الصدر الاعظم بذلك ارسل القوات العسكرية إلى قصر السلطان واذاع شيخ الاسلام فتوى تجيز قتل المتمردين مما اثر جمهور العاصمة الذى تدفق على القصر السلطانى لتقديم المساعدة اللازمة للسلطان والانتقام من الانكشارية. وقد اجبرت قوات الانكشارية على التراجع الى الثكنات التى اغلقت عليهم بالحجارة وطلب السلطان منهم الاستسلام وعدم معارضة الاصلاح الذى يتفق مع احكام الشريعة.

وعندما اصر الانكشارية على موقفهم قامت المدفعية بقصف الثكنات واشعال النار فيها. وقد عدد الانكشارية الذى قتلوا فى تلك المعاركة التى سميت بالواقعة الخيرية ثلاث آلاف داخل الثكنات وعشرين الفاً فى شوارع استانبول. وفى ١٧ يونيو تقرر الغاء اسم الانكشارية وفرقها فى جميع انحاء الامبراطويرة وحلت محلها عساكر محمد المنصور» وقد بدأ السلطان المرسوم الخاص بالغاء الانكشارية بالتذكير بأن الدولة العثمانية تدين بظهورها وفتوحاته فى الشرق والغرب إلى قوة وتأثير الدين والشريعة الاسلامية. وأنه كان من الضرورى لتنفيذ هذه السياسة الاعتماد على الجنود الشجعان من الانكشارية الذى قدموا خدمات جليلة للدولة. ومضى المرسوم ليثير الشعب ضدهم فاتهمهم بأنهم قطعوا بالسكاكين صفحات القرآن .. واستخدموا السلاح المعطى لهم ضد حكومة الشعب المسلم، وقاموا بالتمرد ضد سلطانهم الشرعى «،،، وقد وجد على اذرع بعض الذين اعدموا شارة الصليب

وبموجب هذا المرسوم تلغى فرق الانكشارية ويستعاض عنها بفرق منظمة تحمل اسم «عساكر محمد المنصور» وسوف تكون هذه القوات الجديدة ذات منفعة للاسلام وقادرة على الرد على العدوان فى الغزو والجهاد» ولما كانت البكباشية قد شاركت فى التمرد والعصيان فقد انهدمت زواياهم وانعدم زعماؤهم .

وبعد القضاء على الانكشارية واعوانهم، اكمل السلطان محمود الثانى برنامجه الاصلاحى الذى كان بمثابة حجر الاساس لمشاريع خلفائه المصلحين فى القرن التاسع عشر فكان اخطر عيب فى الجيش الجديد هو قلة الضباط فيه، ولكى يعالج السلطان هذا النقض فى الضباط العثمانيين وايضاً فى الموظفين الاكفاء فقد اولى التعليم العسكرى والمدنى اهتماماً كبيراً، وحتى ذلك الوقت كانت توجد مدرستان: الاولى المدرسة البحرية والثانية مدرسة الهندسة العسكرية وقد اقيمتا فيما بين عامى ١٧٧٣ و ١٧٩٣. وفى عام ١٨٢٤ اصدر السلطان مرسوماً اعلن فيه التعليم الابتدائى هو من مسئولية الدولة، وكان ذلك يعنى رفع يد الهيئة الاسلامية من الاشراف على التعليم ورغم ذلك بقيت المدارس الابتدائية تحت سلطة واشراف شيخ الاسلام. وظل مرسوم ١٨٢٤ عديم التأثير حتى فرضت الحكومة الاصلاح على التعليم الابتدائى واقيمت مدارس جديدة وتم تعيين وزير التعليم للمرة الاولى فى تاريخ الدولة العثمانية وعرفت هذه المدارس الجديدة باسم «المدارس الرشيدية» وكان مهمتها تقديم نموذج متقدم من التعليم للتأهيل للدخول إلى مختلف مدارس الجيش والبحرية والطب، ووظائف الدولة. وقد انشئت هذه المدارس اصلاً لسد الفراغ الموجود بين مؤسسات التعليم العالى ومؤسسات التعليم الابتدائى. وفى عام ١٨٢٧ ، اتخذ السلطان محمود الثانى خطوات أكثر ثورية

بارسال بعثات دراسية إلى مختلف انحاء العالم ويبدو أن السلطان كا يريد ان ينافس محمد على واليه على مصر الذى كان قد ارسل بدوره بعثات تعليمية الى فرنسا ابتداء من عام ١٨٢٦. وفى عام ١٨٢٧ ارسل السلطان ما يقرب من ١٥٠ طالباً للدراسة فى المعاهد العسكرية والبحرية فى الغرب الاوروبى رغم احتجاج الهيئات الدينية. وفى نفس العام افتتح السلطان مدرسة للطب فى استانبول لتدريب الاطباء للعمل مع الجيش الجديد. واشتلمت المدرسة على قسم اعدادئى لاعطاء علمانى ابتدائى وثانوى لاول مرة فى الدولة العثمانية وكان التعليم يتم فى المدرسة باللغتين التركية والفرنسة لان معظم المدرسيت كانوا من الاوروبيين.

ومما تجدر ملاحظته ان السلطان محمود الثانى قد لفت الانتباه بشدة الى دور اللغة الاوروبية ووقوفها حجر عثرة فى سبيل تقدم البلاد ونهضتها. فقد كان عدد المسلمين العثمانيين الملمين باللغات الأوروبية لا يزال قليلاً جداً. كما أن معظمهم قد قتلوا فى مذبحة عام ١٨٠٧، ولذا فقد كانت هناك حاجة ملحة إلى وجود مسلمين على معرفة كافية باللغات الأوروبية لكى يعلموا علوم الغرب ويترجموا الكتب الاجنبية إلى اللغة التركية. وقد لعب اثنان من الاتراك دوراً هاماً فى هذا المجال. كان اولهما هو محمد عطا الله الذى عرف باسم شانى زاده، (١٧٦٩ -١٨٣٦) تلقى شانى زاده تعليمه على يد احد العلماء وكان يوصف بأنه «دائرة معارف» وفى عام ١٨٢٠ طلب إليه السلطان اصدار كتاب فى علم التشريح وقد اثار هذا الكتاب وهو بعنوان «مرآة الابدان فى تشريح اجزاء الانسان» اهتماماً كبيراً فى اوروبا لانه احتوى على عدد كبير من الصور وكان نشر صور الجسم البشرى من الامور التى تتناقض مع تقاليد العثمانيين المسلمين، ولكن شانى زاده تجاهل جميع

الانتقادات الدينية. وفى عام ١٨٦٢ عين مؤرخا رسمياً للدولة، ولكنه نفى بعد القضاء على الانكشارية بسبب ما اشيع عن علاقته بجماعة البكتاشية. ورغم ذلك لم يكن انى زاده رجعياً بل اعطى جهده ووقته لترجمة الكتب الطبية الايطالية والنمساوية. أما الشخص الثانى الذى عمل فى مجال العلوم الحديثة والمصطلحات الفنية فكان اسحق افندى (١٧٧٤-١٨٣٤) وكان بلقانياً من اصل يهودى وتحول إلى الاسلام. وكان على معرفة باللغات الفرنسية والاتينية والعبرية والتركية والفارسية والعربية. ولعل اعظم انجازاته هى مجلداته الاربعة الشاملة عن الرياضيات والفيزياء والتى اعطت الطلاب العثمانيين لأول مرة بعض المعرفة عن هذه العلوم. ويعتبر هو وشانى زاده اعظم من اوجد مصطلحات تركية للعلوم الحديثة فى الدولة العثمانية. وقد نتج عن كل هذه التغييرات الهامة ان ضعفت قوة العلماء وانتهت سيطرتهم على اتلعليم.

من هذا يتضح أن السلطان محمود الثانى قد تصرف بطريقة افضل فى تنفيذ سياسته الاصلاحية فاستفاد من تجربة سلفه الفاشلة. ومن المؤكد ان السلطان محمود الثانى قد تصرف فى هذا المضمار بفكر واسع وتخطيط افضل. فبينما فشل سليم الثالث فى ايجاد قوة يرتكز عليها سواء فى قطاعات الجيش أو الهيئة الاسلامية أو البيروقراطية نجد أن محمود الثانى استطاع ان يتعامل مع هذه القوى بطرق ذكية. فقضى على العناصر المناوئة فى الانكشارية وعين مؤيديه فى مراكز القيادة فيها. وفى نفس الوقت استغل الخلافات بين العلماء والانكشارية فاحتوى الفريق الاول وجعله يعمل لمصلحته وبنفس الاسلوب تصرف مع البيروقراطية فقضى على حالت افندى زعيم الحزب الرجعى فى استانبول واستطاع ان يقوم بسلسلة من التغيرات فى مراكز الحكم.

ورغم ذلك ظلت الطبقة الحاكمة هى نفسها طبقة البيروقراطية التى كانت تقوم بالاعمال الادارية تحت حكم سليم الثالث. حقيقى ان السلطان محمود الثانى قد نحى بعض اعضائها جانباً واحل غيرهم محلهم إلا أن ذلك لم يؤثر على جوهر العقلية القديمة التى كانت تسيطر عليهم فاطلاق اصطلاح «وزير» على الصدر الأعظم وزملائه والباسهم الزى الاوروبى وتزويدهم بالمكاتب والكراسى بدلاً من الاريكة والوسادة، ولم يغير هؤلاء الرجال بين عشية وضحاها، فقد ظلت الرتابة والعقلية القديمة تسيطران على اعمال الدولة. ومن ناحية اخرى خطط السلطان لاصدار دستور وانشاء مجلسين نيابيين ولكنه لم يشأ ان يصل الاصلاح فى هذا المجال إلى نهايته. لان ذلك كان معناه الاخذ بالنظام البرلمانى الغربى، وهو ان يكون للشعب ممثلين فى مجالس تشريعية منتخبة ومجالس محلية، ولكن السلطان لم يرد ان يكون مجرد حاكم لا سلطان له وهذا ما كان يرفضه وبالرغم من التفاوت فى النجاح والاخفاق فى سياسته إلا أننا نستطيع القول بان اصلاحاته كانت المقدمة والمثل والقدوة التى انارت الطريق للسلاطين الذى تتابعوا على عرض عرش الدولة العثمانية من بعده. وبعبارة اخريو فإن اصلاحاته واصلاحات سلفه سليم الثالث، كانت بداية الخيط الذى امسكه السلطان عبد المجيد من وسطه ومصطفى كمال اتاتورك من نهايته.

التنظيمات العثمانية :

تلى عصر السلطان محمود الثانى فترة من الاصطلاحات المعروفة فى التاريخ العثمانى باسم فترة التنظيمات العثمانية. ولقد تمثلت هذه التنظيمات فى سلسلة طويلة من القوانين والنظم بين وفاة السلطان محمود الثانى فى ١٨٣٩ والغاء السلطان عبد الحميد الثانى الدستور العثمانى عام ١٨٧٨. وقد

صدر فى هذه السلسلة الطويلة ثلاثة قوانين بارزة لفت نظر اوروبا. وكان ذلك هو الهدف الحقيقى من وراء اصدارها وهذه القوانين هى خط شريف كلخانة (أو منشور الكلخانة) الذى صدر فى ٢٦ شعبان ١٢٥٥هـ/٣نوفمبر ١٨٣٩ عند تولية السلطان عبد المجيد ابن محمود وخلفه، وخط هايون (اى السلطانى أو التنظيمات الخيرية) والذى اصدره السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦-١٩٠٩) ولقد جاءت حركة التنظيمات العثمانية نتيجة لشعور بعض المسئولين العثمانيين فى عهد السلطان عبد الحميد بالحاجة الملحة لتطوير ودفع الدولة العثمانية إلى الامام.

وكان خط الكلخانة بمثابة الاصلاح الرئيسى، ففى بداية عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) دعا الوزير المصلح مصطفى رشيد باشا (١٨٠٠-١٨٥٨) الوزراء والعلماء وكبار رجال الدولة والسفراء الاجانب إلى قصر كلخانة. وفى الميدان الكائن أمام القصر، قرأ مصطفى رشيد خط كلخانة على مسمع من السلطان وأمام جموع المدعوين وكان هذا الخط باسم التنظيمات الخيرة ومما تجدر ملاحظته فى هذا المجال ان هذا الخط صدر فى فترة اشتد فيها العداء بين السلطان عبد المجيد وواليه القوى فى مصر - محمد على - حول احتلال الاخير لبلاد الشام. لذلك تضمن الخط وعد السلطان بتنفيذ الاصلاحات التى يروم اجراؤها فى الدولة العثمانية كى يضمن مساندة الدولة الاوروبية فى نزاعه الحاسم مع محمد على واهم ما جاء فى خط كلخانة :

١- منح السلطان الرعية امنية الروح والعرض والناموس والمال لذلك نرى من اللازم لاجل حسن ادارة مالكنا المحروسة وضع بعض القوانين الجديدة التى تتعلق موادها الاساسية بامنية النفوس والمحافظة على الاموال والعرض

الناموس ... وأن لا يحصل تسلط من طرف واحد على عرض وناموس شخص آخر بل كل واحد يكون مالكاً امواله واملاكه ومتصرفاً بها بكمال حريته ليس لاحد ان يتداخل معه بذلك وإذا بالغرض وقع احد بتهمة أو قباحة وكان ورثاؤه ابرياء الذمة من تلك التهمة والقباحة لا يسون من حقوق ارثهم بواسطة ضبط امواله.

٢- وعد السلطان باصلاح الادارة والقضاء حيث انتزع هذا الخط من نفوس الولاة الجرأة على القتل والمصادرة..... كذلك يلزم ان تنظر دعاوى اصحاب الجرائم بعد الآن علنا بوجه التدقيق بمقتضى القوانين الشرعية وقبل أن يصدر الحكم لا يجوز اعدام احد اصلا لا خفيا ولا جليا ولا بطريق التسميم.

٣- امر السلطان بإجراء القرعة العسكرية الشرعية ... وهكذا مادة العساكر ايضا لانها من الاموال المهمة كما تحرر ومع ان اعطاء العساكر لاجل محافظة الوطن هو من فرائض ذمة الاهالى لم يزل على يما هو جار الحد الآن غير منظور فيه إلى عد النفوس الموجودة فى كل بلدة، بل يطلب من بعضها ما هو زائد عن درجة احتمالية ومن البعض الآخر ما هو انقص، وكما أن هذا الامر يوجب عدم التريث والخلل فى منافع مواد الزراعة والتجارة، كذلك استخدام الذين يحرضون الى العسكرية الى نهاية عمرهم بموجب الملل وقطع النسل فيجب وضع بعض اصول حسنة لاجل ما يطلب عند اللزوم من كل بلدة من الانفار للعسكرية وتأسيسه بطريق المناوبة ايضاً فتكون مدة الاستخدام اربع أو خمسة سنين.

٤- امر السلطان بجباية الاموال وتوزيعها بمقتضى احكام الشرع الغاء اصول

الالتزام».. كما ان مادة تعيين التكاليف تستلزمها كل دولة بسبب الاحتياج إلى العساكر وغيرها من المصاريف المقتضية لاجل المحافظة على بلادها» وورد ايضاً «ومع ان اهالى ممالكنا المحروسة قد تخلصت قبل الآن ولله الحمد والمنة من بلية اليد الواحدة التى كانت تظن فيما سلف ايراداً لم تزل اصول الالتزامات التى هى من آلات الخراب ولم يجن منها ثمر نافع فى وقت من الاوقات جارية حتى اليوم».

٥- القضاء على الرشوة التى كانت سائدة فى الدولة نتيجة قلة الرواتب أو انعدامها والتى كانت احد اسباب فساد جهاز الحكم. «وبما أن جميع المأمورين لهم والحالة هذه معاشات وافية وستترتب معاشات ايضاً لمن وجد بينهم بلا معاش يجب ان ينظر قانون قوى يتأكد به بعد الآن عدم وقوع مادة الرشوة الكريهة المتضرر منها شرعاً التى هى السبب الاعظم فى خراب الملك».

٦ - وعد السلطان باستمرار الاصلاح فى الدولة العثمانية عن طريق اصدار التنظيمات والقوانين المتعلقة بامنية الأنفس والاموال وتعيين الويركو والتنظيمات العسكرية كما وعد ايضاً باحترام هذه القوانين واعطى العهد والميثاق بعدم مخالفتها وبذلك تنازل السلطان عن جزء من سلطته لمجلس الاحكام العدلية الذى اصبح من حقه سن القوانين على ان يصدق عليه السلطان. وبما ان هذه القوانين الشرعية سيصير وضعها لأحياء الدين والدولة والملك والملة يعطى العهد والميثاق من جانبنا الهمايونى بعدم حركة تخالفها والقسم بالله على ذلك ايضاً بحضور جميع العلماء فى حجرة الخرقة الشريفة ويحلف العلماء والوكلاء وينتظم قانون جزاء مخصوص لاجراء التأديبات اللائقة بالذين يفعلون حركة تخالف القوانين

الشرعية من العلماء والوزراء او غيرهم أيا كان بحسب القباحات التى تثبت عليهم غير ملتفت فى ذلك الى رتبة ولاخاطر » .

٧ـ طلب السلطان من الصدر الاعظم تعميم خط كلخانة على جميع الولايات وابلاغه لسفراء الدول الأجنبية رسمياً . وهذا يدل بلا شك على اهتمام الدول الكبرى بشئون الدولة العثمانيه الداخلية ••• وبما ان هذه المواد المشروحه هى كناية عن تغيير الاصول العتيقه وتجديدها بتمامها ينبغى ان تعلن ارادتنا هذه السلطانية مشاعة الى اهالى دار السعادة وجميع ممالكنا المحروسة وان يعلم بها رسميا جميع السفراء المقيمين فى دار سعادتنا لتكون الدول المتحابة ايضاً شهوداً على إبقاء هذه الاصول الى الابد إن شاء الله تعالى ، ونلتمس من ربنا تعالى أن يوفقنا جميعاً والذين يفعلون حركة تخالف هذه القوانين المؤسسة فيكونون مستحقين لعنة الله تعالى وعدم الفلاح الى الابد آمين» .

وقد وصف منشور الكلخانة ـــ كما وضحنا ـــ نظام الالتزام بأنه من «الآت الخراب » ولما كان الموظفون والضباط يحصلون قبل هذه التنظيمات على مرتباتهم من ريع الالتزامات أو الاحتكارات اصبح من الضرورى تحديد مرتبات للموظفين وللولاه . وكان من المعروف أن الوالى عندما يأخذ الولاية يلتزم بدفع مبلغ معين سنوياً ويقوم بجمعه ويستولى على مايجمعه زيادة على المبالغ المطلوبة ، ومنعت طريقة شراء المناصب ، وحددت رواتب الولاه ابتداء من أول عام ١٨٤٠ .

ولقد صدرت فى أعقاب منشورية الكلخانة مجموعة من القوانين لتنفيذ هذا المنشور ولقد كان لهذا المرسوم والتنظيمات التى صدرت فى أعقابه

مؤيدون وناقودون ، فحذر مترنيخ (Metternich) المستشار النمسوى المشهور العثمانيين من الخطر الكامن وراء استعارة اساليب الحضارة الاوربية لنها تتعارض مع الحضارة الاسلامية العثمانية . وطالب العثمانيين بأن يتمسكوا بطابعهم الاسلامى فى الشرق على أن يمنحوا أهل الذمة الحماية وحرية العبادة . والواقع أن هذا المنشور كان يضع أسساً اصلاحية مقتبسة من النظم الغربية والغرض منها انقاذ الملة والدولة فى إطار الشريعة الاسلامية . أما بريطانيا فكانت متحمسة لحركة الاصلاح ، ولقد ايد سير سترا تفورد كانتج، سفير بريطانيا فى الاستانة دعاه الحركة لاصلاحية كما ايدت فرنسا هذه الحركة لان إدخال النظم الاوروبية الى الادارات العثمانية سيفتح امامها مجالا اقتصادياً وسياسياً وتبشيرياً واسعاً . ولكن لعدم فهم المسلمين والمسيحين لاهداف منشور الكلخانة ، تعرضت حركة الاصلاح لنكسات عديدة . فبعد عزل مصطفى رشيد باشا المنفذ الحقيقى لحركة الاصلاح فى مطلع عام ١٨٤١ ، توقف العمل بالنظم الجديدة وعادت الحكومة الى نظام الالتزام .

وعندما عاد رشيد باشا الى وزارة الخارجية فى عام ١٨٤٥ ثم الى الصدارة العظمى عام ١٨٤٦ عادت حركة الاصلاح الى سابق سرعتها . واستمر رشيد فى هذا المنصب حتى تولى السلطان عبد العزيز عرش السلطنة . ولقد تولى هذا المنصب لفترات قصيرة كان محمد على وعلى باشا وكان الاول رجعياً والثانى من المؤمنين بحركة الاصلاح وفى ١٨ فبراير عام ١٨٥٦ صدر خط همايون بعد إنتصار الدولة العثمانية وحلفائها (انجلترا وفرنسا وايطاليا) على روسيا فى حرب القرم ، وقبل اسبوع من عقد مؤتمر باريس . وقد اتخذت الدولة العثمانية فى هذا الخط خطوات اصلاحية ايجابية لخير رعاياها . فأقر السلطان كافة المبادئ التى وردت فى خط كلخانة واكثر ما فى الخط

يتعلق بحقوق الطوائف غير الاسلامية ومصالحها وقد اهتم الخط بصفة خاصة بالتأكيد على مبدأ المساواة القانونية والمدنية لكافة رعايا الدولة وحقهم فى خدمتها حيث ورد بهذا الخصوص «... بما أن تلك التأمينات التى صار الوعد والاحسان بها من طرف الاشراف السلطانى لاجل امنية النفوس والاموال وحفظ الناموس في حق جميع تبعتى الموجودين فى أى دين ومذهب كان بدون استثناء بموجب خطى الهمايونى الذى تلى كلخانة وقد جرى الان تأكيدها وتأييدها مع التنظيمات الخيرية يجب اتخاذ التدابير المؤثرة لاجل اخراجها بكاملها الى الفعل» .

ونجمل فيما يلى أهم النقاط التى وردت فى خط همايون :ــ

١ – اقرار امتيازات الطوائف غير الاسلامية بعد إعادة النظر فى تنظيمها من قبل الطوائف على أن تتقدم كل طائفة الى الباب العالى بمقترحات الاصلاح التى تتفق مع ماطرأ على الدولة العثمانية من رقى وتقدم «... انما يلزم أن تحصل المبادرة فقط الى رؤية امتيازات كل جماعة من المسيحيين والتبعة غير المسلمة ومعاينة امتيازاتهم الحاضرة بظرف مهلة معينة وتحصل المذاكرة فى اصلاحاتها الى واجهها الوقت واثار التمدن والمعارف المكتسبة فى مجالس مخصوصة تشكل فى البطركخانات بإرداتى واستحصانى الملوكى وتحت نظارة بابنا العالى» .

٢ – السماح للطوائف غير الاسلامية بالحرية فى ممارسة شعائرها الدينية وبناء معابدها بشروط يتوافر فيها التسامح «... ولاينبغى أن يقع موانع فى تعمير وترميم الابنية المختصة باجراء العبادات فى المدن والقصبات والقرى التى جميع أهاليها من مذهب واحد ولافى باقى محلاتهم كما المكاتب

والمستشفيات والمقابر حسب هيئتها الاصلية لكن اذا لزم الامر تجديد محلات هذه فيلزم عندما يستصوبها البطرك أو رؤساء الملة أن تعرض صورة رسمها وانشائها على بابنا العالى لكى تقبل تلك الصورة المعروضة، ويجرى اقتضاؤها على موجب تعلق ارادتى السنية الملوكانية أو تبين الاعتراضات التى ترد فى ذلك الباب بظروف معينة ».

٣- اعلان المساواه فى المعامله بين جميع الطوائف ومنع استعمال الالفاظ التى تحط من قيمه غير المسلمين وتأمين الحرية الدينية لاهل كل مذهب «... وينبغى ان تؤخذ التدابير اللازمة القوية لاجل تأمين من كانوا اهل مذهب واحد مهما بلغ عددهم ليجروا مذهبهم بكل حرية ثم تمحى وتزال مؤبدا من المحررات الديوانية جميع التعبيرات والالفاظ والتميزات تتضمن تدنى صنف عن صنف اخر من صنوف تبعه سلطنتى السنيه بسبب المذهب واللسان او الجنسية» .

٤- فسح المجال امام كافة رعايا السلطان للمساهمة فى خدمة الدولة من طريق تعيينهم فى الوظائف واستفادتهم من خدمات الدولة التعليمية «... وبما ان جميع تبعة دولتى العلية من اية ملة كانوا سوف يقبلون فى خدمة الدولة ومأ موررياتها فيستخدمون فى المأموريات امتثالا الى النظامات المرعية الاجراء فى حق العموم بحسب اهليتهم وقابليتهم» .

٥- نص الخط على انشاء محاكم مختلطةللفصل فى القضايا المدنية والجنائية. اما الدعاوى الخاصة بالاحوال الشخصية والارث فتحال الى المحاكم الشرعية بالنسبة للمسلمين والى المحاكم الطائفية بالنسبة لغير المسلمين . كما وعد السلطان باصدار قانون الجزاء الهمايونى فى وقت

قـريب «.... امـا جـمـيع الدعـاوى التى تحـدث بين اهل الاسـلام والمسيحيين وباقى التبعة غير المسلمة تجارية كانت او جنائية فتحال الى دواوين مختلطة .... اما الدعاوى العائدة الى الحقوق العادية فينبغي ان تعرض شرعا او نظاما بحضور الوالى وقاضى البلدة فى مجالس الايالات والالوية المختلطة ايضا وتجرى المحاكمات فى هذه المحاكم والمجالس علنا».

وينبغى تتميم اصول ونظامات المرافعات التى تجرى فى الدواوين المختلطة بمقتضى قوانين المجازاة والتجارة باسرع ما يمكن ثم تضبط وتدون وتنشر وتعلن مترجمة بالالسن المختلفة المستعملة فى ممالكى المحروسة الشاهانية.

٦- المسـاواة بين جـمـيع رعـايا الدولة فى الحقـوق والواجبـات أمـا الويركـو والتكاليف التى تطرح على جميع تبعة سلطنتى السنية فيما انها تؤخذ بصـورة واحدة غير منظور فيـها الى الصنف والمذهب ينبغى ان تحـصل المطالعة والمذاكرة بالتدابير السريعة لاصلاح سوء الاستعمالات المتوقعة فى اخذ واستيفاء الاعشار خاصة «...كما ان مساواة الويركو توجب مسـاواة باقى التكاليف كذلك المساواة الحقـوقيـة تستلزم المسـاواة فى الوظائف ايضاً فينغى ان يكون المسيحيون وباقى التبعة غير المسلمة مجبورين ان ينقادوا الى القرار المعطى اخيراً بحق بإعطاء الحصة العسكرية مثل اهل الاسلام وتجرى فى هذا الخصوص اصول المعافية من الخدمة الفعلية اما اعطاء البدل واما باعطاء دراهم نقدية.

٧ – وعد السلطان بالسمـاح للاجانب التملك فى الدولة العثمـانية «وبما ان القوانين الكائنة بحق قضايا بيع الاملاك والتصرف فى العقارات متساوية بحق تبعتى المملوكانية كافة فبعد ان تعمل الصور التنظيمية وما بين سلطنتى السنية والدول الاجنبية تعطى المساعدة للاجانب ان يتصرفوا فى

الاملاك ايضاً بحسب اتباع قوانين دولتى العليا وامتثال نظامات الضابطة البلدية واعطائهم اصل التكاليف التى يعطيها الاهالى الوطنيون».

٨- مع السلطان موظفى الدولة من التزام الضرائب بعد ان كان خط كالخانة ١٨٣٩ قد ابطل العمل بنظام الالتزام «ينبغى ان يمتع مأمور دولتى العليا واعفاء المجالس من التعهد باحدى الالتزامات التى تجرى مزايدتها علنا او اخذ حصة منها ويشدد فى المجازاة على ذلك».

٩- تنظيم ميزانية الدولة عن طريق التقيد بتسجيل ايرادات ومصروفات الدولة بدقة وعناية فى دفاتر وقيود مخصوصة «ولما كان قد عمل اخيراً نظام مخصوص بحق تنظيم دفتر ايرادات ومصروفات سلطنتى السنية فى كل سنة ينبغى ان يحصل الاعتناء باجراء احكامه بتمامها وتحصل المباشرة وحسن تسوية المعاشات المخصوصة لكل المأموريات».

١٠ - وعد السلطان باشراك رؤساء الجماعات والطوائف فى مناقشات المجلس العالى والمتعلقة بشئونهم «وتجل مخصوصاً من طرف جلالة مقام وكالتى المطلقة رؤساء كل جماعة والمأمور المعين لها من طرف الاشراف الشهامى لكى يوجد وافى المجلس العالى عند التذاكر فى المواد العائدة والراجعة لعموم تبعة سلطنتى السنية وهؤلاء المأمورون يتعينون لسنة واحدة».

١١- وعد السلطان بإجراء اصلاحات شاملة فى مجالات المالية والمواصلات والمعارف والزراعة والتجارة «وتعمل اشياء توجب الاعتبار لأمورنا المالية كاليانكات البنوك وتعين الرأس مال المقتضى الى الخصوصيات التى هى منبع الثروة الماد لمملكتى المحروسة الشاهانية وتفتح الطرق والجداول المقتضية لاجل نقل محصولاً ممالكى الشاهانية وتجرى التسهيلات

الصحيحة منع الاسباب الحائلة دون توسيع امر الزراعة والتجارة ويلتفت الى استفادة المعارف والعلوم ورأس المال لأجل كل من اوروبا».

هكذا اكد همايون بشكل خاص المساواه المدنية والاجتماعية لجميع رعايا الدولة، واعترف مساواتهم فى خدمة الحكومة، وقد اهتمت الدولة بتطبيق النواحى التى تختص بالتسامح الدينى والحرية الدينية التى وردت فى خط التنظيمات الخيرية عام ١٨٥٦ ، ولكن بدء المساواة لم يطبق تماماً، فقد ظلت الخدمة العسكرية محصورة بالمسلمين وحدهم ودفع المسيحيون الاعانة العسكرية بدلاً من الخدمة، كما ظلت الوظائف الادارية والقضائية شبه محصورة بالمسلمين وظلت الدول الاوروبية تتدعى حماية الطوائف المسيحية، ففرنسا تدعى حماية الكاثوليك وروسيا تعتبر نفسها حامية الارثوذكس وانجلترا تعد نفسها حامية البروتستانت وتعطف على الدروز.

وكان من نتائج خط هاميون كذلك زيادة ترابط الطوائف المسيحية بفعل القوانين التى اصدرتها من اجل تنظيم شئون البطريكيات والاسقفيات وتكوين المجالس العليا، وبالرغم من ان الدولة كانت لنفسها ولاء البطاركة وذلك باسقاط اسماء المرشحين الذين يشك الباب العالى فى ولائهم من قائمة الانتخاب، إلا أنها تركت جميع القضايا المتعلقة بالاحوال الشخصية لأبناء الطائفة إلى رؤسائهم الروحانيين ومجالسهم المالية وكلك جميع الامور المتعلقة باملاك الاديار والكنائس وشئون المدارس والمؤسسات الخيرية الخاصة بالطائفة.

وبالرغم من عدم تعرض خط كالخانة عام ١٨٣٩ لذكر التعليم، فإن السنوات التالية له ولخط همايون شهدت توسعاً فى التعليم وفى انشاء المدارس. وكان هدف الدولة من انشائها تخريج ضباط عسكريين، وموظفين مدنيين يساهمون فى تكوين الجهازين العسكرى والادارى، لذلك اكثرت الدولة انشاء

المدارس لاسيما العسكرية منها وتفاوت انشاء المدارس العسكرية من ولاية الى اخرى، ونالت ولايتا بغداد والبصرة النصيب الاكبر منها حتى غدا اكثر الضباط العرب في الجيش العثماني من اصل عراقي وهذا ما يفسر ظهور طبقة عسكرية في العراق لعبت دوراً هاماً في تاريخ العراق بعد انفصاله عن الدولة العثمانية عام ١٩١٨ وعندما تولى السلطان عبد الحميد الثاني عرش السلطة في عام ١٨٧٦، اظهروا اصلاحية فوعد بتأسيس مجلس عمومي واعلان القانون الاساسي الذى مدحت باشا قد اعده في عهد السلطان عبد العزيز. وفي ١٦ ديسمبر عام ١٨٧٦ عين السلطان مدحت باشا صدر عظيم وجاء في كتاب التعين ما يلي «ولما كنتم جامعين للصفات المطلوبة والمستقيمة وجهنا منصب المصادرة لعهدة حميتكم» وبعد ثلاث ايام وجه عبد الحميد خطاً هاميونيا بشأن اعلان القانون الاساسي مجد فيه التنظيمات الخيرية التى اعلنها والده السلطان عبد المجيد ووصفه «بمحيي الدولة وبأنه لو كانت الظروف ملائمة في عهده لأقدم على اصدار القانون الاساسي ومنع الحكم الاستبدادى ..... وعلى منع الحركات غير المشروعة اعتنى بها منع ومحو الخطيئات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم الاستبدادى الفردى».

ووافق السلطان عبد الحميد بعد ذلك على اعلان القانون الاساسي «الدستور» لمطابقته لاحكام الشرع الشريف، ولحاجة الملك والملة وقابليتهما له. وفي ١٩ ديسمبر ١٩٧٦ طلب السلطان عبد الحميد من مدحت باشا اعلان القانون الأساسي فأعلنه في نفس اليوم. وكان القانون الاساسي مقتبَساً عن دستور بلجيكا وفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة وصيغ من ١١٩ لمدة تضمنت حقوق السلطان في الحكم فأعتبره قانون مقدساً وغير مسئولاً، ومنحه حق عزل الوكالات وتعيينهم وتوجيه المناصب والرتب وصك النقود باسمه، وذكر اسمه في الخطبة، وعقد المعاهدات واعلان الحرب والعفو وتخفيف

العقوات وعقد المجلس العمومى وفضها. وباختصار فإن السلطان يتمتع بالحقوق الدستورية كأى ملك دستورى، كما تضمن القانون النص على حرية العثمانيين ومستاواتهم ونص على مسئولية الموظفين ضمن نطاق وظائفهم.

ويتألف المجلس العمومى وهو محرور القانون الاساسى من هيئتين الاولى هيئة الايمان والاخرى هيئة المبعوثان» وتجتمع كلتهاما فى اول نوفمبر من كل عام، ويكون افتتاح وفض دوريتهما العاديتين - وتستغرقان اربعة اشهر - بارادة سنية وللسلطان حق دعوة المجلس العمومى وافتتاحه قبل الموعد المحدد وله حق اطالة مدة انعقاده ويفتتح السلطان او الصد الاعضم - نائبا عنه - المجلس العمومى، ويلقى فيه خطابا يتضمن ما يلزم اتخاذه فى المستقبل من الوساذل والتدايير فيما يتعلق باحوال الدولة الداخلية والخارجية ونص القانون الاساسى على ان يتمتع اعضاء المجلس العمومى بحرية ابداء الرأى وبحصانة ضد التهم اليهم بسبب ابداء ارائهم أو بيان افكارهم ولا يجوز الجمع بين عضوية الاعيان والمبعوثان.

ونظمت عملية تشريع القوانن والانظمة بمجوب القانون الاساسى فمنح مجلس الوكلاء (الوزراء) صلاحية سن أو تغيير بعض القوانين الموجودة ويكون ترتيب القوانين فى مجلس شورى للدولة «ثم يجرى عرضها بعد ذلك على هيئة المبعوثان» أولا ثم على هيئة الاعيان ثانياً. فإذا وافقت الهيئتان عليها - بعد قرائتها بنداً بالاكثرية فى اجتماع مشترك يضم الهيئتين صدرت الادارة السلطانية باجازتها اما إذا رفضت قطعيا من احدى الهيئتين فلا يجوز طرحها ثانية للمذاكرة فى نفس السنة وقد نص القانون الاساسى على الا يتجاوز عدد اعضاء هيئة الاعيان ثلث اعضاء هيئة المعوثان ويجرى تعيينهم من قبل السلطان مباشرة من الاشخاص الذين لهم خدمات حسنة مشهورة فى

الدولة كالوزراء والولاه والمشيرين وقضاة العسكر والسفراد والبطاركة السابقين، أما مدة العضوية فمدى الحياة، واختصاص هيذة الاعيان هوتدقيق القوانين واللوائح الصادرة عن هيئة المبعوثان ولها حق رفضها قطعياً أو ردها لهيئة المعوثان لاجل اعادة النظر فى تعديلها أما اللوائح التى توافق عليها فترفعها للصدر الاعظم أما هيئة المبعوثان «فيتم انتخابها بنسبة عضو واحد لكل خمسين الف نفس من ذكور الدولة، ويكون ذلك باقتراع سرى. ولا يجوز لعضو هيئة المبعوثان أن يجمع بين العضوية ووظيفة حكومية اخرى – باستثناء الوزارة – ويجب أن تتوافر فى عضو هيذة المعوثان صفات منها التابعية ومعرفة اللغة التركية.

ولقد ادان الكتاب الغربيون هذه الوثائق الثلاث (منشور الكلخانة وخط همايون والدستور) وقالوا بانها محض هراء قصدت العثمانية من ورائه اخفاء الضعف الذى اصاب الامبراطورية عن اوروبا المتقدمة فى ذلك الوقت، حقيقة لقد صدر كل قرار من هذه القرارات الاصلاحية فى اوقات بلغت فيها العلاقة بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية مرحلة حاسمة، لقد صدر منشور الكلخانة فى عام ١٨٣٩ عندما انهارت قوى الدولة العثمانية بعد موقعة نزيب وأوشك محمد على الاطاحة بالامبراطورية العثمانية وكانت قوة بريطانيا هى الضمان الوحيد لبقائها.، وكان صدور خط شريف – فى نظر بعض الكتاب – تأكيد الولاء للحكومة العثمانية لمبادئ الحرية التى ترعاها بريطانيا وصدر خط همايون عام ١٨٥٦ عند نهاية حرب القوم التى تعتبر المحنة الثانية التى عرضت الدولة لخطر الانهيار منذ ازمة التوسع المصرى فى الشام وشبه الجزيرة العربية. فمنذ انسحاب محمد على من الولايات الاسيوية اخذت روسيا تتحول عن سياسة المحافظة على كيان الدولة العثمانية الى وضع خطط لاقتسام ممتلكاتها مع الدول الكبرى ذات المصالح فيها. وهكذا فكرت روسيا فى

الوصول الى تقسيم الامبراطورية العثمانية بشكل ترضى عنه كل من بريطانيا وفرنسا والنمسا، ولكن وقفت فرنسا وبريطانيا مع الدولة العثمانية ضد روسيا. اما دستور عام ١٨٧٦ فقد صدر عشية مؤتمر دولى - وهو مؤتمر الاستانة الذى اجتمع لاقرار تسوية فى البلقان.

وعلى الرغم من ذلك لم تكن هذه المراسين الثلاثة مجرد اجراء ظاهرى. فعندما ننظر الى توقيت ومحتويات هذه المراسيم علينا ان ندرك امرين اثنين. أولهما ان المصلحين العثمانيين وجدوا فى مسألة استرضاء الدول الاوروبية فى هذه المناسبات الثلاث الفرصة التى كانوا يحتاجونها لارغام الحكومة على تنفيذ برامجهم الاصلاحية، فينبغى ان ننظر إلى هذه المراسيم الثلاثة على انها برامج من اجل العمل اكثر من كونها تشريعاً قاطعاً اما الامر الثانى فهو أنه من الممكن ان ننظر الى خط شريف همايون بطريقتين مختلفتين جداً فالاسلوب العام الذى صيغ به هذين المرسومين هو اسلوب متحرر،ولكن الاصلاحات المحددة التى برزت فيهما كانت ملائمة تماماً لتطور حكم فردى مركزى قوى ويمكن ان يقال ذلك ايضاً عن دستور ١٨٧٦ الذى كان فى مظهره عبارة عن تنازل واستسلام مكن جانب السلطان اما مظهره الاوقراطى فقد وضح على سبيل المثال فى عدة مواد، حددت احداها حقوق السلطان، واحتفظت الاخرى للحكومة بسلطات واسعة فى اعلان القانون العسكرى كما تعطى السلطان سلطات واسعة فى نفى الاشخاص غير المرغوب فيهم.

ولقد بلغت سلطة السلطان الاستبدادية مداها فى الستينات من القرن التاسع عشر وبدأت الاجيال الصاعدة فى الدولة العثمانية تتحقق من بزوغ مشكلة جديدة الا وهى الحد من سلطة السلطان الاستبدادية. وكانت احسن وسيلة بالنسبة لهم لحل هذه المشكلة هى اتباع نظرية وتجربة اوروبا. ولكن الروح التى اخرجت هذا الدستور إلى حيز الوجود لم تبق طويلاً. فأقصى

السلطان مدحت باشا عن الحكم حتى قبل اجتماع البرلمان الذى اقره الدستور وامر بنفيه، وكان مدحت هو المخطط الرئيسى للدستور والنموذج المثالى للطبقة التركية الجديدة، المثقفة ثقافة غربية والهادفة الى الاصلاح وقبل ان يتم «مجلس المبعوثان» دورة انعقادية الثانية امر عبد الحميد بفض المجلس، وفى عام ١٨٧٨ انتهز عبد الحميد فرصة قيام الحرب مع روسيا والغى الدستور. وتمتع السلطان خلال الثلاثين سنة التالية بسيادة مطلقة على الامبراطورية وكان يبطش بمن يقف ضد رغباته. وقاوم الاتجاهات التحررية التى ظهرت فى كل من الولايات وذلك بواسطة شبكة واسعة النطاق من الجواسيس والعملاء ويعتبر عهد عبد الحميد مقياسا لنجاح وفشل حركة التنظيمات.

وبينما اخذت قوة السلطان تزداد وتنمو داخل الامبراطورية اخذت هذه الامبراطورية تتقلص وتنكمش فمنيت الامبراطورية بخسائر كثيرة فى البلقان، وتمكنت فرنس من ان تفرض حمايتها على تونس عام ١٨٨١، وهو امل ظل يراودها منذ زمن طويل وفى عام ١٨٧٥ اشترت انجلترا اسهم قناة السويس كما حدث منذ مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ تغيير جوهرى فى سياسة بريطانيا تجاه الامبراطورية العثمانية، فبدأت تتخلى عن السياسة التقليديةى التى اتبعتها فى معظم فترات القرن التاسع عشر (سياسة المحافظة على كيان الامبراطورية العثمانية) واصبحت برطيانيا راغبة فى تقسيم املاك هذه الامبراطورية وقد احتلت مصر فعلاً فى عام ١٨٨٢. ونتيجة لهذه التطورات الهامة اصبحت الدولة العثمانية اقوى اكبر دولة اسلامية سنية مستقلة موجودة فى ذلك الوقت ونتيجة للضغط الاوروبى فى اواخر القرن التاسع عشر اخذ عبد الحميد يعمل على تأكيد الفكرة السائدة وهى ان الامبراطورية العثمانية هى دولة اسلامية

عالمية وذلك لتدعيم مطلب السلطان فى الحصول على لقب خليفة. ولقد اشرنا قبل ذلك الى ان سلاطين الدولة العثمانية لم يهتموا بلقب الخليفة اهتماماً خاصاً ضمن القابهم المتعدد حتى اواخر القرن الثامن عشر ولكن ظهرت بوادر الاهتمام بهذه الفكرة نتيجة لتطور ظروف الامبراطورية السياسية. فمنذ اواخر القرن الثامن عشر اخذت الدول الاوروبية تقطع اجزاء اسلامية من الامبراطورية العثمانية ووجد السلاطين انه من الضرورى التمسك بالخلافة حتى يصبح لها الحق فى فرض السيادة الروحية على جميع المسلمون بما فيهم المسلمون الخاضعون لسيادة دولة مسيحية. وظهر هذا الاتجاه فى معاهدة كوتشيك فى عهد السلطان عبد العزيز ولقد حدد دستور ١٨٧٦ هذه المسائل فنص الدستور فى المادة الثالثة على «ان السلطة السنية هى بمنزلة الخلافة الاسلامية الكبرى وهى عائدة بمقتضى الاصول القديمة الى اكبر الاولاد فى سلالة آل عثمان كما جاء فى المادة الرابعة من هذا الدستور. «أن حضرة السلطان هو حامى الدين الاسلامى بحسب الخلافة وحاكم جميع التبعة العثمانية وسلطانها». وعلى الرغم من ان عبد الحميد الغى الدستور سرعة فانه تمسك باللقب واكد مفهومه واعطاه حق مطالبة المسلمين غير الاتراك فى داخل ممتلكاته والمسلمين خارج هذه الامبراطورية بالولاء له. وكان معظم هؤلاء يخضعون للحكم البريطانى فى الهند ثم فى مصر والسودان بعد ذلك، وكان يخضع البعض الآخر للحكم الفرنسى فى شمال افريقيا والسيطرة الروسية فى اواسط آسيا، والسيادة الهولندية فى جزر الهند الشرقية وبعد اربعين سنة تقريباً وكان البريطانيون لا يزالون متخوفين من نفوذ الخلافة العثمانية على رعاياها المسلمين.

الاتجاه نحو القومية والعلمانية:

وذلك عندما انضم السلطان الى المانيا والنمسا فى الحرب العالمية الاولى، ولقد ادى الاستياء من استبداد السلطان عبد الحميد وتفتت الامبراطورية العثمانية الى تطور حركات المعارضة التى تعرف اجمالا باسم حركة تركيا الفتاة (Young Turks) التى بدأ اعضاؤها فى تنظيم انفسهم منذ عام ١٨٨٩. وترجع حركة تركيا الفتاة الى عهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦) وعبرت هذه الحركة عن نفسها شأن كل الحركات الوطنية اول الامر فى الادب فبدلا من النماذج الفارسية والعربية اخذ الاتجاه يظهر نحو تقليد النماذج الأوروبية عامة والفرنسية خاصة. فكانت الحركة الرومانتيكية فى الادب التركى ومع ان هذه الحركة الرومانتيكية لم تكن لها قوة كبيرة، ولم تترك اثرا بعيدا، الا ان اهميتها تأتى من انها كانت انعكاسا - كما انها ساعدت فى نفس الوقت - على تقوية الاتصال بالحياة الثقافية الغربية.

وبسبب استبداد السلاطين العثمانيين لم تستطع هذه الحركة ان تعيش فى داخل الامبراطورية فاتخذت لها مقراً فى لندن وباريس حوالى عام ١٨٦٠ وفى عام ١٨٦٨ ظهرت اول جريدة معبرة عن اتجاه الاتراك الاحرار كانت تسمى «الحرية» وصدر العدد الاول منها فى ٢٩ يونيو، وقد تحولت هذه الحركة الادبية بعد ذلك الى حركة سياسية طابعها الاساسى قومى. فلقد بدأ اعضاؤها يدركون ضرورة عديم توقف الاصلاح فى الدولة العثمانية. ويجب الاشارة هنا الى ان الحركة الوطنية التركية لم تهدف ابدا فى كافة مراحل نموها قبل انتهاء الحرب العالمية الاولى، الى تصفية الامبراطورية العثمانية بل على العكس كانت تهدف الى زيادة قبضة السلطة الحاكمه عليها عن طريق الاصلاح، وهو موقف ادى الى اصطدام القومية التركية التى تمسكت

بسيطرتها فى داخل الامبراطورية مع القوميات الاخرى ولاسيما العربية والارمنية. ولقد استمر نشاط هذه الحركة محصورا فى الكتابة والنشر.

وفى عام ١٨٨٩ بدأت هذه الحركة تعمل بصورة جديه اذ تحولت الى حركة سرية وذلك عندما أسس طلبة المدرسة الطبية العسكرية فى استانبول فى عام ١٨٨٩ جمعية سرية عرفت باسم «الاتحاد العثمانى»، لتعمل على عزل السلطان عبد الحميد ويبدو أن هذه الجمعية قد نظمت على غرار الجمعية الايطالية المعروفة باسم الكاربونارى التى تأسست فى القرن التاسع عشر ولعبت دورا واضحاً فى الوحدة الايطالية وعلى الرغم من ان الهدف الاساسى لهذه الحركة كان الاطاحة بنظام حكم السلطان عبد الحميد، فإن اعضاءها بدأوا يبحثون عن الوسائل الكفيلة للمحافظة على الامبراطورية بعد سقوط عبد الحميد. وانتشرت هذه الجمعية فى المدارس العسكرية الاخرى وبين موظفى الدولة، وذلك فى نفس الوقت الذى كان نشاط الاتراك الاحرار فى الخارج (المهجر) على اشده. ونخص بالذكر من احرار المهجر ثلاث شخصيات اولهم خليل غانم وهو مسيحى عربى من بيروت وكان نائبا فى مجلس المبعوثان وقد انشأ فى فرنسا جريدة سماها «تركيا الفتاة Young Turks» اما الشخصية الثانية فهى شخصية احمد رضا (١٨٥٩-١٩٣٠) الذى ترك منصبه كمدير للتعليم فى بروسة، وذهب الى باريس فى ١٨٨٩ لكى ينضم الى زملائه الاحرار فى مهاجمة حكم عبد الحميد، وفى ١٨٩٥ اصدر بالاشتراك مع بعض زملائه فى المهجرجريدة المشورة (مشورت) التى كانت تصدر مرتين كل شهر. ومن المحتمل ان جمعية الاتحاد العثمانى فى استانبول قد تأثرت بهذه الجريدة وغيرت اسمها الى اسم اتحاد وترقى وهربت هذه الجريدة الى داخل الامبراطورية وبدأت تتداول فى استانبول. وكانت الشخصية الثالثة البارزة

من شخصيات المهجر هى شخصية مراد بك الذى كان مدرسا للتاريخ فى الكلية المدنية وهرب من السلطان عبد الحميد ولجأ الى مصر التى كانت خاضعة فى ذلك الوقت للاحتلال البريطانى. وكان الاحتلال يشجع كافة الحركات المعادية للسلطان عبد الحميد وسياسته الاسلامية. ونشر فى مصر جريدته المعروفه باسم «الميزان» وأخذت تتسرب بدورها الى استانبول خفية.

وفى نفس الوقت الذى استمر فيه نشاط الجمعية فى باريس وجنيف والقاهرة ظهرت مؤامرة لخلع السلطان عبد الحميد دون علم الاحرار فى المجهر وحددوا واشهر اغسطس عام ١٨٩٦ للقيام بهذا الانقلاب. ولكن عبد الحميد علم بانباء هذه المؤامرة وقبض على زعماء الحركة ونفاهم الى خارج استانبول. وقام بتصفية تامة لافراد الجمعية فى المدارس العسكرية وهكذا صفيت حركة الاتحاد والترقى الاول. وبعد فشل هذا الانقلاب تركز عمل الجمعية تماما فى باريس لاسيما بعد ان غادر مراد مصر الى اوروبا فى نهاية عام ١٨٩٦ وكان الانجليز قد بدأوا يملون من نشاطه وحركة تركيا الفتاة فى مصر. ولقد نافس احمد رضا على زعامة جمعية تركيا الفتاة واصبح مراد زعيما لفرع جميعة الاتحاد والترقى فى جينيف واستمر فى اصدار الميزان هناك. وكان مراد يتمتع بشعبية كبيرة بين اعضاء الجمعية وكان يرى - كأحد رجال الجمعية الاسلامية - ان الخلافة الاسلامية هى الدرع الاساسى لوقاية العالم العربى والاسلامى من الاطماع الاجنبية. وفى هذا الوقت عمل عبد الحميد على عرقله نشاط الجمعية فى اوروبا فارسل رسله يدعون زعماء الجمعية الى العودة الى استانبول، وفى اغسطس ١٨٩٧ نجح رسوله فى اقناع مراد بالتخلى عن نشاطه الثورى والعودة الى استانبول. وعلى الرغم من ذلك تزايد عدد الاحرار الموجودين فى اوروبا، واستطاعت جماعة منهم اصدار جريدة فى جينيف تعرف باسم جريدة «عثمانلى» .

وفى ديسمبر ١٨٩٩ بينما كانت حركة تركيا الفتاة فى اوروبا وتركيا تعانى من الضعف دبت الحياة فيها مرة أخرى فجأة عندما هرب الداماد محمود جلال الدين باشا (١٨٥٣-١٩٠٣) - صهر السلطان عبد الحميد مع ولديه الامير صباح الدين والأمير لطف الله - من استانبول الى فرنسا. ولقد قرر محمود باشا الهرب بعد ان فقد الامل فى عودة الدستور، وكان خروجه ضربة قوية موجهة للسلطان عبد الحميد. ولقد زاد وصول افراد العائلة الحاكمة من نفوذ حركة تركيا الفتاة، ولكنه احدث ايضا انقساما فيما بينهم. فلقد ظهر مناوئ جديد لزعامة احمد رضا صاحب «المنشور» واستمر هذا الانقسام بين انصار تركيا الفتاة فى المنفى حتى قيام الثورة. وكان هذا الزعيم هو الامير صباح الدين (١٨٧٧ - ١٩٤٨) وفى المؤتمر الذى عقده اعضاء حركة تركيا الفتاة فى فبراير ١٩٠٢ فى باريس، اصبح الشقاق بين جناحى الحركة واضحا ودائما، وظهرت مجموعتان متنافستان من بين قادة الحركة فى المنفى قامتا بطرح مشاريع متناقضة - فالقسم الاول - وقد تكون فى داخل جمعية الاتحاد والترقى بزعامة احمد رضا - أكد وجود أمة عثمانية تجمع مجموعات عنصرية ودينية ولغوية مختلفة حول اسرة آل عثمان. وكان ذلك توهما سياسيا كما اظهرت الحوادث فيما بعد. اما القسم الاخر من جماعة تركيا الفتاة بزعامة الامير صباح الدين فقد وجد ان خير وسيلة لعلاج سؤ الادارة فى الامبراطورية هو النظام اللامركزى اى انشاء دولة فيدرالية تحت حكم سلطنة دستورية - وعمل على انشاء جمعية جديدة فى باريس باسم (عصبة الادارة اللامركزيه ولقد جاء فى خطاب الأمير صباح الدين League of Administrative Decentralization and Private Initiative). الامير صباح الدين الذى انتخب بالاجماع رئيسا للمؤتمر: «ينبغى ان يكون

مفهوما جيدا ان الاتراك الذين يكونون الاكثريه فى الامبراطورية لايطلبون لانفسهم الاما يطلبونه وبنفس المقياس لاخوانهم المواطنين المسلمين وغير المسلمين كافة. «ان الامبراطورية العثمانية منذ ظهورها حتى عهد الدستور لم يثبت تقصيرها قط فى احترام لغة وعادات وديانة جميع الشعوب المختلفة التى تتولى مصائرها...

«اننا نعيد القول: ان الاصلاحات التى نطلب تطبيقها فى بلادنا، والتى نعمل بكل قوانا لتطبيقها لانطلبها لشعب دون اخر او ملة دون أخرى كلااننا نطلبها لجميع العثمانيين دون استثناء».

على أية حال استمر الوعى داخل حدود الدولة العثمانية وقام تنظيم داخل الامبراطورية انشأه الضابط مصطفى كمال (اتاتورك) وعمل مصطفى اتاتورك فى دمشق حيث كون ١٩٠٦ جمعية سرية باسم «الوطن» وانتشرت الجمعية من دمشق الى يافا والقدس ثم نقل مركزها الى سالونيك فى مقدونيا بسبب تحرر أهلها وقربها من نفوذ الدول الاوروبية وكان نصف سكان سالونيك تقريبا من اليهود الذين هاجروا من اسبانيا ليجدوا التسامح الدينى فى رحاب الاسلام. وكان الكثير منهم قد اعتنق الاسلام فى القرن السابع عشر وكانت قبضة السلطان عبد الحميد فى مقدونيا ضعيفة نسبياً. وعلاوة على ذلك فان سالونيك كانت البلد الذى ولد فيها مصطفى كمال وفى سالونيك كان الجيش العثمانى الثالث.

وفى سالونيك (Salonika) تغير اسم جمعيه مصطفى كمال الى جمعية «الوطن والحرية» وفى عام ١٩٠٨ انضم مصطفى كمال الى جمعية الاتحاد والترقى واصبح احد رجالها. ولقد جاءت الاطاحة بالاستبداد الحميدى على

يد قوة عسكرية حرصت على القيام بها جمعية الاتحاد والترقى. وفى يوليو عام ١٩٠٨ استسلم عبد الحميد للثوار واعلن اعادة دستور عام ١٨٧٦ والغاء الرقابة والجاسوسية واجراء انتخابات لمجلس المبعوثان. وقوبل اعلان الدستور بابتهاج بالغ فى كافة انحاء الامبراطورية فأعلن انور باشا فى حماس بالغ «ان الحكومة الاستبدادية قد انتهت، واصبحنا جميعا اخوانا لم يعد هناك بلغار او يونانيون او رومانيون او يهود او مسلمون، فتحت السماء الزرقاء الواحدة كلنا متساوون نفخر بكوننا عثمانيين»، وسيطرت الجمعية (الاتحاد والترقى) تماما على الموقف فى البرلمان غير انها سرعان ما واجهت حزبا معارضاً هو حزب «الاتحاد الحر» الذى كان رئيسه اسماعيل كمال بك وكان هذا الحزب ينادى باللامزكية. وهى بكل تأكيد دعوة مضادة للاتحاد والترقى التى كانت تدعو للمركزية. وبدأ الاحتكاك بين الحزبين حين قتل محرر جريدة «الاتحاد الحر» لسان حال هذا الحزب. ثم تلا ذلك أن قامت الاضطرابات فى العاصمة فى ابريل عام ١٩٠٩ على يد حركة موحدة بين العناصر الرجعية من أنصار عبد الحميد وجمعية «الاتحاد الحر» وكان عبد الحميد وراء هذه الاضطرابات.

وعندما بلغت أنباء هذا الانقلاب سالونيك، زحف محمود شوكت بقواته الى العاصمة لحماية الدستور بالقوة، واجتمع مجلس المبعوثان فى سان استيفانو فى شكل جمعية وطنية وأعلن موافقته على خلع السلطان عبد الحميد، على اساس فتوى من شيخ الاسلام، وفى نفس الوقت أعلن تولية السلطان محمد الخامس الذى ظل ألعوبة فى يد الاتحاد والترقى التى سيطرت على الحركة حتى عام ١٩١٣، وذلك عندما انتقلت السلطة الى أيدى حكومة عسكرية ثلاثية ظلت تحكم حتى انهيار الامبراطورية العثمانية فى

نهاية الحرب العالمية الاولى. وكان لجمعية الاتحاد والترقى خلال السنوات التى سبقت الحرب مباشرة مطلق الحرية فى أن تحكم كما يتراءى لها. وقد حاول أعضاؤها فرض المركزية الادارية التى أوجدتها اصلاحات التنظيمات وذلك بتتريك شعوب الامبراطورية. وفى الحقيقة كانت هذه محاولة لانشاء أمة تركية قومية من دولة كانت غالبيتها تتكون من عناصر غير تركية. وهكذا كانت جمعية الاتحاد والترقى تهدف الى عثمنة كافة القوميات وهذا مايسمى بالجامعة العثمانية. ولم يكن من المحتمل نجاح هذه السياسة فى الظروف التى سادت فى أوائل القرن العشرين، ولكن فشلها لم يسبب فى حد ذاته انهيار الامبراطورية العثمانية فانهيار النظام الامبراطورى وانحلال الدولة نتج عنه الهزيمة فى الحرب العالمية الاولى مثلما كان الحال بالنسبة لامبراطورية النمسا والمجر المعاصرة.

وقد كان موقف الاتحاديين من الوحدة الاسلامية من أوضح تناقضاتهم. ففى الوقت الذى بنوا دعوتهم على تناسى الفوارق الدينية واهدار نظام الملك تمسكوا من وجهة النظر المصلحية العملية بفكرة الوحدة الاسلامية لاستخدامها فى أغراض السياسة والمحافظة على الامبراطورية. ففى الوقت الذى استخلص الاتحاديون من شيخ الاسلام فتوى دينيه بخلع السلطان عبد الحميد كان فى مقدمة الوفد الرباعى الذى تقدم الى القصر السلطانى ليبلغ عبد الحميد نبأ عزله، المحامى اليهودى عما نويل كاراسوفتوس، أحد قادة الحركة الماسونية فى سالونيك. وقد ظل الاتراك يتشبسون بالفكرة الاسلامية، ويستخدموها فى محنهم كالحرب الطرابلسية وحروب البلقان.

ولكن ظهر فى نهاية الحروب البلقانية (١٩١٢-١٩١٣) اتجاه جديد يعيد عن الفكرة الاسلامية وعن الجامعة العثمانية. وهذا الاتجاه هو الحركة الطورانية فلقد كان استيلاء الأتراك فى أواخر هذه الحرب على أدرنة، أول

عاصمة أوربية لهم قبل القسطنطينيه فى يوليو عام ١٩١٣، قد أثار ذكريات الانتصارات التركية القديمة ومجد الأتراك. وارتفعت بالذات مكانة أنور باشا الذى كان يمثل بعث العسكرية التركية والذى أصبح بطلا وطنيا بعد انتصاره فى عام ١٩١٣. وكان أنور باشا متأثرا الى حد بعيد بالمدرسة العسكرية الالمانية، وكان ورفاقه يؤمنون باعتناق اتجاهات ثلاثه فى وقت واحد لخدمة الامبراطورية - حركة الجامعة الاسلامية لكسب العرب والاكراد والمسلمين بصفة عامة، وحركة الجامعة العثمانية لكسب العناصر غير الاسلامية فى الدولة، والحركة الطورانية لكسب التتر الواقعين تحت الحكم العسكرى والذين كانوا يعطفون على اخوانهم فى الجنس (الاتراك العثمانيون) فى محنتهم. وكان لابد أن ينتهى الأمر بانتصار تيار واحد من هذه التيارات الثلاثة. أما الجامعة العثمانية فقد تخلوا عنها بعد ثورة ١٩٠٨ بقليل، حين تجددت الاضطربات القومية فى البلقان وفى أرمينية. ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فاظهرت افلاس الفكرة الاسلامية حين وقف العرب ضد الاتراك وحالفوا الانجليز وكان الاتجاه الوحيد الذى بقى هو الحركة الطورانية، وهو الاتجاه الذى خرجت منه القومية التركية الحديثة والجمهورية التركية المعاصرة.

ولقد لعب أنور باشا دورا كبيرا فى الحركة الطورانية، فهى دعوه الى الوطنية المتطرفة الداعية الى تفوق قومية معينة على غيرها من القوميات، وفى حقها على السيادة على غيرها. والحركة الطورانية اتجاه الى احياء الاتراك الاوائل، وربط الاتراك المحدثين بتراثهم الحضارى القديم والى تخليص الفكر التركى وادابه من المؤثرات الفارسية والعربية وبالنسبة لهذا الاتجاه الاخير تأسست فى عام ١٩١٣ الاكاديمية التركية. وهذا الاتجاه ايضا هو الذى انتهى الى ترجمة القرآن الى التركية فيما بعد. ويمكننا على أية حال حصر اتجاهات الحركة الطورانية فى الخطوات الثلاث الآتية:

١- تخليص التراث التركى الفكرى من المؤثرات الفارسية والعربية.

٢- خلق صلة قوية دائمة بين أتراك الامبراطورية العثمانية والآتراك خارج الامبراطورية.

٣- تفوق العنصر التركى وسيادته فى الدولة العثمانية.

وسيكون لهذا العنصر الثالث أثر يلعبه فى اتجاهات الحركة العربية وموقفها من الدولة العثمانية فلقد فقد العثمانيون الولايات العربية التى استولوا عليها قبل ذلك بأربعة قرون نتيجة للانتصارات البريطانية فى الهلال الخصيب. وتهديد وجود الدولة فترة من الوقت بسبب هزيمة المانيا حليفة الامبراطورية العثمانية والمدافعة عنها فى الفترة الاخيرة. ولكن كمال أتاتورك حال دون انهيار تركيا، فطرد اخر سلطان من سلاطين آل عثمان وهو السلطان محمد رشاد فى عام ١٩٢٢. وألغى الخلافة فى عام ١٩٢٤ واقام جمهورية تركيا الحديثة[١]. وهكذا تخلت الحركة الكمالية عن فكرة «الامبراطورية الاسلامية وأخذت بالمبدأ الحديث الذى ينادى بحق كل شعب فى تقرير مصيره واقامة نظام الحكم الذى يراه صالحا.

وقبلت تركيا التنازل عن كل دعوى لها فى السيطرة على الأراضى التى تقطنها الشعوب العربية. وبذلك ثل عرش آل عثمان الذين جلسوا على

---

(١) عندما ألغيت الخلافة عام ١٩٢٤ أنشأت الجمهورية بدلا من وظيفة شيخ الإسلام ادارة جديدة للشئون الدينية ألحقت بمكتب رئيس الوزراء فى أنقرة وكان رئيس هذه الادارة يطلق عليه «ديانت ايشلرى رئيس ويعد رئيس «الموظفين الدينيين فى جمهورية تركيا، ويعين بقرار من رئيس الوزراء. وكان من اختصاصاته الاشراف على المساجد والتكايا وتعيين الائمة والوعاظ والمؤذنين وسائر موظفى المساجد وله ايضا الاشراف على اعمال المفتين، كما أنشأت حكومة الجمهورية ادارة عامة للمؤسسات الخيرية يرأسها مدير عام يطلق عليه «أوقاف عموم مدير ليشى» يختص بالاشراف على الاوقاف التى استولت عليها الحكومة والعمل على صيانة المبانى الموقوفة.

كرسى السلطنة العثمانية ستة قرون زاخرة بالانتصارات الرائعة والانكسارات المروعة. وحل بهذا البيت المالك العريق المجد مالحق من قبل ببيوت رومانوف والهابسبرج والهوهنزولرن من الانهيار والهوان. وحصل مصطفى كمال بعد الغاء الخلافة على سلطات مطلقة، فبدأ الاتراك تحت زعامته عصراً جديداً طبعه بطابع شخصيته القوية. وشرع فى تحقيق برنامج ضخم من الاصلاحات الشاملة ففصل بين الدين والدولة، وأعيد تنظيم المحاكم ونقحت القوانين على النمط الغربى، وألغيت الامتيازات الاجنبية، وحظر تعدد الزوجات وسمح للمرأة التركية ان ترفع النقاب وان تخرج الى الاماكن العامة ثم خولت حق الاشتراك فى الانتخابات المحلية. وشيدت المدارس على نطاق وآسع واستبدل بالكتابة العربية الحروف اللاتينية، كما استبدلت القبعة بالطربوش. وقمعت الحركة التركية جميع المحاولات التى قامت لمعارضة تلك الاصلاحات او إعاقة سيرها.

٣- موقف بريطانيا من حركة الجامعة الاسلامية والخلافه:

حركة الجامعة الاسلامية:

امتاز القرن التاسع عشر بظهور حركات سياسية اصطبغ بعضها بالصبغة القومية مثل حركة الجماعة الصقلبية فى بلاد البلقان، وحركة الجماعة الجرمانية فى المانيا[١] وقد نمت هذه الحركات تحت رعاية دول أوروبية كان

(١) كانت حركة الجامعة الصقلبية تسعى لضم جميع صقالبية أوروبا على اختلاف حضاراتهم ومذاهبهم للتخلص من السيطرة العثمانية والنفوذ الالمانى ثم تكوين كتلة حضاريه سياسية فى شرقى أوروبا ووسطها تقوى على مناهضة غرب أوروبا وتسعى لتحقيق امال الروسيا فى التفوق. أما حركة الجامعة الجرمانية فعملت على تكوين وحدة سياسية من العناصر الجرمانية تعمل أولا للسيطرة على وسط أوروبا ثم على بقية أجزائها وتقف سدا منيعا أمام فرنسا من جانب وأمام الصقالبة من جانب اخر، وتفرض رغبات على الاثنين.

لها مصلحة سياسية فى بعثها ورعايتها، أما حركة الجامعة الاسلامية فليس من الممكن أن نقرنها بالحركتين الأوليتين من حيث نشأتها وفكرتها فقد ظهرت كاصطلاح سياسى (Pan Islamism) أطلقة الكتاب الأوروبيون على التحركات الاسلامية والمد العاطفى للشعوب الاسلامية ضد الاطماع الأوروبية. ولم تكن فكرة الجامعة الاسلامية (أو الترابط الاسلامى) فكرة حديثة أو جديدة انما هى قديمة قدم الاسلام. فقال الله تعالى فى القرآن الكريم: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتهم بنعمته اخوانا ﴿سورة آل عمران: ايه ١٠٣﴾ وقال تعالى يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» ﴿سورة الحجرات اية ١٣﴾.

وكانت الروابط الاسلامية ووحدة الشعور الدينى عاملا اساسيا فى تكوين الدولة الاسلامية التى ارتكزت على نظام الخلافة. وقد انتقل مركز الثقل فى الدولة الاسلامية من مدينة الى اخرى تبعا للظروف الاسلامية التى احاطت بها الى ان استقر فى استانبول وهو آخر مركز سياسى للدولة الاسلامية. وبقى هذا المركز حتى تغير وجه الدولة العثمانية السياسى، وأصبحت جمهورية واستبدلت زيها الاسلامى بلباس غربى وعندما تكشفت أطماع اوروبا، تكتل المسلمون لمواجهة هذا الخطر والتفوا حول الدولة العثمانية التى كانت تمثل حينذاك عنصر القوة والردع فى وجه هذا الغزو.

لقد ارتكزت الروابط الاسلامية فى العصر الحديث على مجموعة من المشاعر النفسية العميقة بوحدة المصير، فحركة الجامعة الاسلامية تميزت عن حركتى الجامعة الصقلبية والجامعة الجرمانية فى أسباب ظهورها. فالفكرة الموجهة لحركة الجامعة الاسلامية لم تكن فكرة الجنس واللغة، كما لم يكن

مرماها التفوق السياسى أو السيطرة على العالم بل كان هدفها المباشر هو تخليص أمم الشرق الاسلامى من التسلط الغربى وحتى لو أن اساليب قادتها قد اختلفت الا أن دافعها كان واحدا وهو مايعانيه الاسلام من ضنك مالى وكروب سياسية ومن تدخل أجنبى. والواقع أن حركة الجامعة الاسلامية لم تكن سوى فرع من فروع البعث الاسلامى الذى نشط خلال القرن بالتاسع عشر وتمثل فى حركات سلفية تدعو الى التمسك بجوهر وأهداف الدين الاسلامى[1] . وقد شكلت هذه الحركة جزءا هاما من حركة الاصلاح للمجتمع الاسلامى وكانت لبنة من لبنات حركة اليقظة الاسلامية ساعد على التصدى للهجمة الغربية كما تمثل هذا البعث الاسلامى ايضا فى حركة سياسية غير مرسومة قادها السلطان عبد الحميد الثانى من خلال مركزه الدينى والسياسى فى استانبول، ساعده فى ذلك احترام الشعوب الاسلامية له كخليفة للمسلمين، مما تسبب عنه قلق الحكومات الاوروبية الطامعة فى الاراضى الاسلامية، وأخذت هذه الحكومات تقيم حساباتها السياسية لمواجهة السياسة الدينية التى تزعمتها الدولة العثمانية، وذلك خوفا من ثورة الشعوب الاسلامية الواقعة تحت سيطرتها، وقد أراد السلطان عبد الحميد الاستفادة من آراء وأفكار السيد جمال الدين الافغانى الذى لامست حياته مشاعر العالم الاسلامى بأكملة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ويبدو أن الافغانى كان معجبا بشخصية السلطان عبد الحميد ففى مقالة له فى كتاب «خاطرات» تحمل اسم عبد الحميد قال عن هذا السلطان «أن السلطان عبد الحميد لووزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء

(١) تتمثل هذه الحركات السلفية فى : الدعوة الوهابية والثورة المهدية فى السودان والحركة السنوسية فى شمال افريقيا وحركتا المجدد كرامات على (١٨٠٠ - ١٨٧٣) ورشيد احمد الجنجوهى (١٨٢٨ - ١٩٠٥) وحركة الشيخ احمد بن الحداد فى الجزائر عام ١٨٧١ .

ودهاء وسياسة خصوصا فى تسخير جليسة»، وبين فى هذه الخاطرة كيف أن أوروبا قد ضاقت ذرعا بسياسة عبد الحميد وحيطته فبدأت اثارة المشاكل ودس الدسائس من أجل الانتقاص من قيمة الدولة العثمانية الاسلامية. ولقد حرص السلطان عبد الحميد على الاجتماع بالافغانى دائما، وأشارت الكتابات الى الخطط التى كان يعرضها الأفغانى على السلطان من أجل تحقيق الوحدة الاسلامية بعد أن اقترح عليه السلطان نفسه ذلك فى سبيل خدمة الامة الاسلامية. وقال السلطان للافغانى «فانى ملتمس من حضرتك أن تبذل غاية الجهد حتى تستطيع بتوحيد آرائنا ومساعدة حضرتكم أن تنشئ ونؤسس اتحادا واتفاقا قويا ثابت الاركان لايقبل الخلل بين الشعوب الاسلامية».

وعندئذ بدأ الأفغانى فى عرض خططة وأفكارة على السلطان عبد الحميد، وقسم العمل لتحقيق فكرة الوحدة الإسلامية الى مرحلتين:

الأولى: أن تكون جميع المراسلات والمخابرات الدولية والرسمية مع خديو مصر وشاه ايران وسلطان مراكش، أو مع سائر الأمراء والامارات الاسلامية بالطريقة التى يختارها الافغانى.

الثانية: أن يقوم الافغانى بمكاتبة علماء المسلمين وزعمائهم سواء من أهل السنة أو من أهل الشيعة وأن يبسط قضية الوحدة لكافة زعماء الامة الاسلامية وقوادها بحيث تحظى بموافقتهم وتأييدهم. كما قرر الأفغانى أن تنتخب حكومة كل بلد، اسلامى ممثلا، ويختار كل شعب اسلامى شخصا من أكبر علمائه ليجتمعوا فى استانبول فى مؤتمر باسم المؤتمر الاسلامى الأعلى، والهدف من ذلك ايجاد تعاون بين المسلمين لنهضتهم وتكاملهم، فاذا اعتدت دولة أوروبية على دوله اسلاميه يصدر المؤتمر الأعلى أمراً بالجهاد

المقدس لكافة المسلمين فى العالم، فينهضون لمحاربة تلك الدولة بقوة السلاح، فضلا عن وقف العلاقات التجارية والاقتصادية معها.

لقيت الفكرة الأولى قبولا لدى السلطان وطلب من الافغانى التريث حتى يعرضها على الباب العالى وشيخ الاسلام، واخذ الافغانى ينتظر رد السلطان ويبدو أن السلطان ماطله فى ذلك. لقد كان فى استطاعة السلطان عبد الحميد تنفيذ هذه الاقتراحات، خاصة وأن التيارات الاسلامية كانت هى المحرك الاساسى للحكومات والشعوب الإسلامية فى ذلك الوقت، لكن الخلاف فى الرأى بينهما كان مرده الى اختلاف مركزيهما، فالافغانى كان مثاليا فى دعوته لايرتبط بظروف سياسية أو اجتماعية تستطيع أن تكبح جماح فكره الإصلاحى فى الوقت الذى كانت فيه هذه الظروف تفرض على السلطان العثمانى خطة مسيرته الاصلاحية، التى يوازن بينها وبين الظروف المحيطة بدولته. وقد اشار السلطان عبد الحميد الى مسألة تردده. فى استعمال نفوذه الدينى بين الشعوب الاسلامية بقوله «... ولكن الدول الكبرى التى تحكم شعوبا مسلمة عديدة فى آسيا، مثل انجلترا وروسيا، ترتعد من سلاح الخلافة الذى أحمله، لهذا السبب استطاعوا الاتفاق على انهاء الدولة العثمانية وكان لزاما على ألا استخدم هذا السلاح خارج حدودى حتى اليوم المنتظر لأن محاولة كهذه لم تكن تفيد اخوتنا فى الدين، ولابلادى»[1].

وفى عام ١٨٨٤، اشترك الافغانى مع مجموعة من أفاضل الهند ومصر فى جمعية سرية تسمى «العروة الوثقى» واتفقوا على اصدار صحيفة تنطق بأفكارهم وآرائهم وكانت الأسس التى اعتمدت عليها جريدة «العروة الوثقى»

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص٦٧.

فى مقالاتها هى الجامعة الاسلامية والروابط الشرقية والمسألة المصرية. والمسألة السودانية. وقد بين الافغانى فى هذه الجريدة رأيه فى المفاهيم الأوروبية التى بدأت تغزو العقلية الاسلامية نتيجة للسياسة الأوروبية، وهاجم المفهوم القومى واعتبره خطراً على الرابطة (الجامعة) الاسلامية وفى مقالة الوحدة الاسلامية، بيّن الافغانى مقصده بوضوح فى حديثه عن الرابطة الاسلامية، حين أشار الى ان دعوته لها انما هى دعوة صريحة للمسلمين من أجل العودة الى جوهر دينهم. وناشد الافغانى فى «العروة الوثقى» الدولة العثمانية للقيام بواجبها كزعيمة للأمة الاسلامية من أجل مواجهة الهجمة الأوروبية، فيقول فالدولة العثمانية وهى شديدة الأزر قوية العضد بما لها من المكانة فى قلوب الهنديين، وكل انجليزى قلبه بين أصابع الدولة العثمانية وأحشاؤه مستقرة على أناملها، وفى نظرها (الدولة العثمانية) أن سلطتها أشرفت على الزوال فى الاقطار المصرية، وسيادتها عليها تكاد تكون اسما ومع ذلك لاتأتى عملا ولاتخطوه خطوة ... سوى أنها اكتفت باقامة الحجج ورفعت الصوت..[١].

كما وجد الأفغانى فى الدولة العثمانية أمله المنشود فى دحر الاحتلال البريطانى عن مصر لشرعيه حكمها فى البلاد. ويتضح مماسبق أن الافغانى عكس لنا رأى المسلمين ونظرتهم الى الدولة العثمانية والقائمة اساسا على الاحترام والشعور بالولاء لما لها من مركز روحى بين المسلمين.

وهكذا فإن دعوة الافغانى أخذت ركنا هاما من أركان اليقظة الاسلاميّة التى برزت فى هذه الفترة فى انحاء مختلفة من العالم الاسلامى والداعية للعودة الى جوهر الدين وتعاليم القرآن، بالاضافة الى الالتفاف حول الدولة

---

(١) العروة الوثقى، ٧٨/٧٦.

العثمانية وسلطانها لمواجهة التوغل الاوروبى فى المنطقة الاسلامية. وكان الشطر الثانى من هذه الدعوة هو الباعث على قلق ساسة بريطانيا، فمركز الدولة العثمانية الروحى بين الشعوب الاسلامية أثر فى سياستهم فى المنطقة وعمل على اثارة العواطف الاسلامية ضدهم، وضد مخططاتهم الرامية الى بسط نفوذهم على مقدرات هذه الدولة. وجاء فى التقرير السنوى الذى قدمه جيرالد لوثر (Gerald Luther) السفير البريطانى فى استانبول عام ١٩٠٧ ما يلى « يمكن أن نقرر انه فى حوادث السنوات العشر الاخيرة على الاقل عنصران بارزان فى الموقف السياسى للسلطان العثمانى، الاول هو خطة السلطان الماهرة التى استطاع ان يظهر بها أمام ٣٠٠ مليون مسلم فى ثوب خليفة الرئيس الروحى للاسلام وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الدينى[(١)].

والواقع أن الدعوة الى الوحدة الاسلامية ثم اعلان الجهاد ضد المعتدى الأوروبى قد نشطت قبل تولى السلطان عبد الحميد الحكم، فقد كتب عاكف أفندى رئيس الكتاب فى استانبول عام ١٨٢٢، ان أحسن الحلول لمواجهة خطر الغزو الأوروبى هو الاخلاص لأوامر السلطان وتعاليم نبيه التى بها تحفظ املاكنا وحياتنا، واننى أناشد باسم العقيدة الاسلامية وتعاليم محمد ﴿ﷺ﴾ اعلان الحرب المقدسة على هؤلاء المعتدين لكى لانفرط فى شبر واحد من أراضينا. «وقويت هذه الدعوة بين عامى ١٨٦٠،١٨٧٠ على يد مجموعة من شبان الاتراك العثمانيين، أرادوا بها، أن تكون مثالا لفكرة الجامعة الجرمانية والجامعة الايطالية وذلك باتحاد المسلمين لمساعدة الحكومة

---

(١) العامل الثانى الذى اشار اليه السفير البريطانى فى النص هو صلات السلطان عبد الحميد بألمانيا.

العثمانية والاقطار الاسلامية التى تتعرض للازمات نتيجة للعدوان الأجنبى.
وكان من أبرز هؤلاء نامق كمال (١٨٤٠-١٨٨٨) الذى أظهر رغبته للتمدين الحديث فى ظل السلطان العثمانى الذى يمثل رأى الامة الاسلامية ويشكل بوجوده اساس وحدتها. ومع ان نامق كمال دعا الى الاستفادة من الحضارة الغربية الا انه دافع عن العادات والتقاليد الاسلامية أمام الانتقادات الاوروبية، وهاجم رجال التنظيمات الذين فشلوا فى حفظ التراث الاسلامى ورفع فكرة الوحدة الاسلامية فى ظل آل عثمان على اساس ملاءمة العلوم الغربية مع الاسلام واعطاء الاسلام دما جديدا يواجه به الغرب. وكان التاريخ العثمانى عند نامق كمال جزءا مكملا للتاريخ الاسلامى وأوضح ذلك فى مقال نشره عام ١٨٦٨ فى جريدة الحرية ذكر فيها قراءه بأن دولتهم أنجبت حكاما عظاما مثل السلطان سليمان القانونى والخليفة عمر بن الخطاب، وأدباء ومفكرين مثل الفارابى والغزالى والزمخشرى.

لقد اتفق معظم الكتاب على أن السلطان عبد الحميد كان يعمل من أجل احياء الجامعة الاسلامية عن اخلاص وايمان عميقين. وتأثر السلطان عبد الحميد خلال سنوات حكمه بعاملين رئيسيين: ارتبط اولهما بنشأته وتربيته، فقد عرف عنه أنه كان متعصبا ومتمسكا بالاسلام منذ صغره، وسعى من خلال هذا الايمان الى تحسين حالة المسلمين الاجتماعية والسياسية. وثانيهما الظروف السياسية التى احاطت بالدوله العثمانية فقد رأى ترسيخ دعوته الدينية بين المسلمين واستخدامها كوسيلة تكبح جماح الدول الاوروبية التى كانت تحكم شعوبا اسلامية كفرنسا وروسيا وبريطانيا. ومنذ بداية حكمه عمل عبد الحميد على تثبيت سياسته، فاستمال الشخصيات الدينية ووجهاء العالم الاسلامى خير الدين باشا التونسى (١٨٢٢-١٨٨٩) الذى أوكل اليه

صدارة الباب العالى لمدة ثمانية أشهر، وجمال الدين الافغانى وعبد الله النديم (١٨٤٥ - ١٨٩٦) واتصل بالحركات الدينية الجارية فى العالم الاسلامى. كما شجع عبد الحميد الصحافة العثمانية مثل جريدة «الجواهب» التى تأخذ على عاتقها اقناع الغرب بأن ملايين المسلمين يؤيدون ممارسة حقوقه عليهم. وتضمنت سياسته طبع الاف النسخ من القرآن الكريم جرى توزيعها فى انحاء البلاد الاسلامية. واهتم السلطان أيضا بتأسيس المدارس الدينية لتخريج اجيال من القضاة والحقوقيين الاسلاميين لمواجهة خريجى المدارس الغربية. كما رأى عبد الحميد زيادة الاهتمام بالحج، فزاد من صلة الحكم المركزى بشريف مكة، وقام أيضا بانشاء سكة حديد الحجاز لتسهيل فريضة الحج، ووجه نداء الى العالم الاسلامى شرح فيه الدوافع التى استوحى منها فكرة مد هذا الخط الحديدى مطالبا المسلمين بالتبرع لتغطية نفقاته. وقد لقى هذا النداء قبولا حسنا، وفى نفس الوقت فرضت ضريبة جديدة فى جميع انحاء الامبراطورية تجبى بلصق طابع خاص، كما طلب من الموظفين العاملين بالحجاز التبرع بنسبة معينة من رواتبهم، وقد غطت تبرعات العالم الاسلامى مايزيد عن ثلث نفقات الانشاء البالغ مجموعها ثلاثة ملايين من الجنيهات.

ومن المؤكد ان السياسة العربية فى مصر والاقطار الاسلامية لعبت دورا هاما فى اثارة الشعور الدينى والالتفاف حول الدولة العثمانية وذلك من اجل مواجهة السياسه التوسعيه، ومن ثم برزت الحركة الاسلامية كسلاح يواجه به السلطان عبد الحميد والمسلمون هذه الهجمة الاوروبية. ويشير رفيق العظم فى كتابة الجامعة الاسلامية وأوروبا الى هذا الموضوع فيقول: «انى اعتقد ان ساسة الغرب فى هذا العصر» قد خدموا المسلمين اكثر مما خدموا سياستهم

الطامعة وأنانيتهم العظيمة فى الحاحهم بتهمة المسلمين بالتعصب الاسلامى والاتحاد الاسلامى .. ومجاهرتهم بما فى انفسهم من نيه السوء واستعجالهم الشر الذى يريدونه بدول الشرق على العموم ... ان حركة الفكر الاسلامى القائمة الآن هى نتيجة تبادل شعور بما تريده أوروبا من المسلمين من الاستخذاء او التقييد. ولم تقتصر الحركة الاسلامية فى هذه الفترة على مواجهة العدوان الأوروبى فحسب بل امتدت الى مواجهة فكرية قائمة بين التراث الاسلامى وقيمته من جهة، والتراث الناشئ من الحضارة المادية الجديدة في اوروبا ونتج عن ذلك تسرب للأفكار الغربية الى العقلية الاسلامية. والحقيقة ان الاستغراب Westernization كان من اخطر العوامل التى عملت على انحلال المجتمع الاسلامى وتفككه حين حلت فى هذا المجتمع افكار جديدة لم يتعود عليها الناس، ولم تعكس حقيقه مطالبهم الاصلاحية فى الحياة ويشير ارنولد توينبى فى كتابه (الاسلام والغرب والمستقبل) الى خطر الاستغراب على الامة الاسلامية فيقول: «هناك طبعا افكار ومؤسسات نشك فى انها نعمة، وأهم هذه الافكار هى «القومية» فلقد أصيب الاتراك وغيرهم من الشعوب بعدواها الشديدة – كما أصيبوا بغيرها من المفاهيم الغربية، سواء النافعة منها او المضرة الوبيلة». ولقد أدرك السلطان عبد الحميد خطورة الاصلاح الغربى وأفكاره على العقلية الاسلامية ووحدة الدولة العثمانية ومركزه كزعيم سياسى وروحى للمسلمين. وعبر عبد الحميد فى مذكراته عن رأيه فى اثر ذلك على التراث الاسلامى فيقول «انهم يقدمونَ شعارات براقة كتوعية الامة وترقيتها، يغيه القضاء على النظام القائم، وهدم مابناه الاجيال طيلة قرون خلت».

ورأى السلطان عبد الحميد أن خطر الافكار الاوروبية يرجع الى اختلاف البنية الاجتماعية العثمانية عن البنية الاوروبية فيقول: «لايجوز ان تقاس بلادنا بمفاهيم اوروبية ان بنية المجتمع فى بلادنا بنية دقيقة للغاية، كل حركاتنا وتصرفاتنا يجب ان تنطلق من هذه الاساس. والافكيف يمكننا ان نجمع اقواما بدائيين يعيشون بجرة قلم عيشة أوروبية محضة ثم استطرد قائلا: ان الافكار المستوردة من أوروبا تشكل خطرا كبيرا علينا وكارثة اليمة وأرى من حولى المسلمين فأجدهم فطريين سعداء، فلا أملك الا ان اقاوم الافكار الاوروبية بكل ما أوتيت من قوة أنها سموم تخرب العقول والقلوب».

وأخذ التغريبيون ينظرون الى السلطان العثمانى وسياسته كحجر عثرة تسد طريقهم نحو اهدافهم التى كانوا يرجون منها تقدم بلادهم وتطويرها. وكان من نتيجة ذلك الصراع القائم بين هذين الاتجاهين، خلع السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩، مع ذلك فان مركز السلطان العثمانى الجديد، حافظ على قيمته الروحية أمام الشعوب الاسلامية وذلك كرمز روحى وسياسى لأعظم دولة اسلامية. ولهذا حرصت جمعية الاتحاد والترقى منذ توليها السلطة باستانبول على اضفاء الشرعية الدينية على سياستها فقد استعملت نفوذها للضغط على شيخ الاسلام لكى يصدر فتوى بخلع السلطان عبد الحميد ومما كان يدفعها الى تلك السياسة ايضا ان التغريبين لم يكونوا قد تخلوا بعد عن التراث الاسلامى كأسلوب فى المجتمع العثمانى، وان كانوا قد قطعوا شوطا كبيرا فى المسيرة العلمانية، التى ستعمل فى المستقبل على فصل الدين عن الدولة. وبرغم ذلك فقد نشط الفكر الاوروبى فى عقول ناشئة العثمانيين، وتجسد فى اتجاهات الدولة العثمانية الاسلامية وجامعتها، ونتيجة لذلك اخذت الجامعة الاسلامية تتراجع بالتدريج امام الدعوات الاصلاحية

«التغريبية الجديدة» التى بدأت تأتى مفعولها خلال الحرب العالمية الاولى كدعوة الجامعة العربية والجامعة التركية اللتان كانتا بحق ضربة قاصمة للدولة الاسلامية ورابطتها. ويقول المستشرق البريطانى برنارد لويس فى هذا الصدد ان الهوة التى حصلت بين تركيا والعالم الاسلامى كانت حصادا لنتائج التغريب.

سياسة بريطانيا ازاء الدولة العثمانية الاسلامية:

كان لمركز الدولة العثمانية الدينى والاستراتيجى اثر فى تحديد نوع السياسة الواجب على بريطانيا اتباعها ازاء العثمانيين. لقد اوضح اللورد بامستون وزير خارجية بريطانيا سياسة بلاده فى الرسالة التى بعث بها الى باتريك كامبل - قنصل بريطانيا العام فى مصر - فى فبراير عام ١٨٣٣، فقال: «ان الحكومة البريطانية مهتمة بضرورة المحافظة على كيان الدولة العثمانية، اذ انها تعتبر بقاءها عاملا لاغنى عنه فى بقاء التوازن الدولى فى اوروبا». وكان ذلك احد الدوافع الرئيسية التى دفعت بامستون الى الوقوف ضد مصر ومحمد على فى ثلاثينات القرن التاسع عشر والواقع ان سعى بريطانيا الى دعم مبدأ المحافظة على كيان الدولة العثمانية «كان من أجل ضمان حرية الملاحة والمرور فى مضيقى البوسفور والدردنيل واقتنع بعض ساسة العثمانيين بهذا الموقف البريطانى فدعوا الى ارضاء بريطانيا والرضوخ لمطالبها، لكى تستمر فى الاتجاه المساند للعثمانيين فى المشاكل الدولية التى تعرضت لها دولتهم فى ذلك الوقت.

ومن الواضح أن الاطماع الروسية الساعية الى الاستيلاء على مضيقى البوسفور - والدردنيل من اجل الوصول الى مياه البحر المتوسط الدفيئة،

سببت قلقا متزايدا لدى ساسة بريطانيا، وتبين لنا ذلك من خلال المشاورات التي كانت تجريها الحكومة البريطانية مع مبعوثيها لدى الدولة العثمانية من اجل تحديد السياسة الواجب اتباعها في هذا الشأن ولكي تقطع بريطانيا طريق التدخل الروسي في الدولة العثمانية بحجة حماية البلقان، كانت تنصح الحكومة الدولة العثمانية من حين الى آخر بتحقيق الاصلاح الاجتماعي المنشود، والذي يهدف الى اقامة المساواة بين المسلمين والمسيحيين. وهكذا كلما ارادت روسيا التدخل بحجة حماية الاقليات، كانت انجلترا تتقدم لمنع التدخل بحجة عدم التعرض للكيان العثماني، وفي الواقع لم تكن الدولتان تخدمان سوى مصالحهما.

لقد اطلقت في اوروبا عدة مسميات على السلطان العثماني مثل «المريض الذي لايرجى شفاؤه» و «رجل أوروبا المريض» The sick man of Europe وكانت العبارة الاخيرة قد صدرت اولا عن القيصر الروسي نيقولا الأول (١٨٢٥-١٨٥٥) في حديث جرى بينه وبين اللورد ابردين (Aberdeen) رئيس وزراء بريطانيا والواقع ان استخدام هذا الاصطلاح لم يكن جديدا على القيصر فقد سبق ان اصدر تصريحا اشد عنفا من هذا عندما قال في عام ١٨٣٣ «ليس في استطاعتي ان ابعث الحياة في الموتى. ان الامبراطورية العثمانية دولة ميته، وليس لدى ثقة في ان يستمر هذا الجسم العجوز محافظ على الحياة. انه في حالة انحلال في جميع النواحي ثم اعاد القيصر هذه العبارة مرة اخرى في عام ١٨٥٣ قبيل نشوب حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦) في ثنايا حديثه مع السفير البريطاني في بطر سبرج. واعرب القصير في هذا الحديث عن رأيه في امكان تسوية الأموربين بريطانيا وروسيا دون حاجة الى قيام حرب.

وقد انطوى مشروعه على اقتسام تركة رجل اوروبا المريض على الاسس التالية:

أولاً: تحتل الروسيا الآستانة، ولكن لاتضمها اليها.

ثانياً: ترابط القوات الروسية فى البوسفور، وترابط القوات النمساوية فى الدردنيل.

ثالثاً: تستقل ولايتا الدانوب (الافلاق والبغدان) وكذلك الصرب وبلغاريا، ولكن تكون هذه الدول تحت حماية روسيا،

رابعاً: تحتل بريطانيا مصر، ولها اذا شاءت ان تستولى على جزيرة كريت واعتقدت بريطانيا ان نوايا القيصر هى القضاء على الدولة العثمانية، ولذلك لم تأخذ بها لعدة أسباب:

أولاً: أن بريطانيا كانت لاتزال متمسكة بسياستها التقليدية تجاه الدولة العثمانية وهى المحافظة على سلامة الدولة وتماسك ممتلكاتها بسبب مصالحها الحيوية فى منطقة المضايق.

ثانياً: أن بريطانيا كانت تشك فى اخلاص قيصر الروسيا فى تقديم مشروعه، لانها علمت انه عرض سرا على فرنسا الاستيلاء على جزيرة كريت وعندما نشبت حرب القرم نشرت الحكومة البريطانية وثائق تلك المحادثات لتكشف للرأى العام الاوروبى الاغراض الحقيقية للروسيا من دخولها الحرب.

ثالثاً: مركز بريطانيا بين الشعوب الاسلامية فقد كانت تحت حكمها آنذاك مسلمو شبه القارة الهندية، وقد تعلق هؤلاء المسلمون بالدولة العثمانية

فقد كانت الدولة العثمانية تشكل بوجودها ركيزة العواطف الاسلامية وتجمعها وانهيار هذه على بريطانيا يعنى مواجهة مباشرة واستفزازا صارخا لمشاعر مسلمى اسيا الخاضعين للحكم البريطانى وعددهم يناهز المائة مليون نسمة. وقد قال اللورد مايو (Mayo) احد حكام الهند - فى تعليقه على ثورة مسلمى الهند ضد بريطانيا عام ١٨٥٧ ان مسلمى الهند يعتبرون من الشعوب الخطيرة على الحكم البريطانى فى الهند ... فهم يطالبون بأشياء تتفق مع عاداتهم وتقاليدهم الاسلامية. ولهذا فان بريطانيا كانت تعيد حساباتها حين تفكر بالهجوم على الدولة العثمانية.

وقد ظلت بريطانيا متمسكة بسياستها التقليدية بازاء الدولة العثمانية حتى عام ١٨٧٨، ثم تخلت عنها على عهد الوزارة الثانية التى شكلها بنيامين دزرائلى وقد شكلها فى فبراير عام ١٨٧٤[١] فاحتلت بريطانيا جزيرة قبرص عام ١٨٧٨، ثم مصر عام ١٨٨٢ على عهد وزاره جلادستون[٢] الثانية ومما يذكران اللورد سولزبرى (Salisbury) ابان وزارته الثالثة قد صرح فى حديث جرى عام ١٨٩٥ مع دى كورسيل (de Courcel)، السفير الفرنسى فى لندن بأنه آسف لأن الحكومة البريطانية رفضت مشروع تقسيم الدولة العثمانية الذى عرضه عليها نقولا الاول قيصر الروسيا عام ١٨٥٣ وقال ان الحكومة البريطانية قد ساندت الحصان الخاسر، (Britain has

(١) فى عام ١٨٧٦ تسمى دزرائيلى باسم اللورد بيكونزفيلد.
(٢) كان جلادستون اكثر الساسة الاوروبيين نقمة على العثمانيين وعلى طريقتهم فى الحكم واعتبرهم نقمة على الحضارة والانسانية ونعتهم بمشكلة المسيحية والكارثه التاريخية» وجاء فى كتابات جلادستون عن الاسلام ان التجارب، اظهرت ان الاسلام لايستطيع ان يؤسس حكومة صالحة على الشعوب المتمدينه المسيحية» كما نفى دور اسبانيا الاسلامية وتأثيرها على اوروبا ولم يعترف بدور المسلمين الذين عملوا على نقل التراث.

(backed the wrong horse ، وهكذا والبت بريطانيا الدول الاوروبية وعلى رأسها الروسيا والنمسا فى خطتها التدميرية للدولة العثمانية.

وباحتلال مصر، أصبحت بريطانيا مستعمرة لمركز العالم الاسلامى، وأخذت تصور نفسها بأنها امة محمدية، وتشعر المسلمين الذين يعيشون تحت ظلالها بأنهم يلعبون دورا بارزا فى السياسة العالمية. وقد كانت هذه السياسة وسيلة تمتص بها بريطانيا نقمة المسلمين الذين تحكمهم على الاعتداءات المتزايدة على الدولة العثمانية. فقد صور الأديب الانجليزى ليتون، (Lytton١٨٩١-١٨٣١) حالة المسلمين فى الهند بغول مخيف يهدد النفوذ البريطانى فى تلك الأراضى. وفى ٢١ مايو ١٨٧٧، وبعد شهر من قيام الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا، كتب الى اللورد سولزبرى، يقول «مع أننى أستطيع أن احكم بكل ثقة بأن شعور المسلمين فى الهند مطمئن. اكثر من أى فترة مضت الا أن جميع ضباط الحكومة والذين يقع على عاتقهم مسئوليه دراسة ومراقبة المشاعر الاسلامية هنا، يصرون على ان تلك المشاعر تنظر الينا بعين الشك وتتهمنا بأننا نتستر على الروس فى حربهم مع الدولة العثمانية لذلك يجب علينا ان نتصدى وبكل قوه لهذه الاراء السائدة ليس تحسبا لكلمة الجهاد التى تهدد حدودنا من كل ناحية بحسب، بل خوفا من أن يصبح كل هندى انجليزى خائنا لنا ...».

ويبدو أن الصانع لهذه الكتابات والتقارير البريطانية جاء نتيجة لاهتمام مسلمى الهند المتزايد بمصير الاقطار الاسلامية خاصة الدولة العثمانية، فقد اخذ هؤلاء يجمعون التبرعات ليساعدوا الدولة العثمانية فى حربها مع الروس،

عام ١٨٧٨/١٨٧٧ ، ثم ان سيد احمد خان[1] نفسه اخذ يلبس الطربوش العثمانى مظهرا تأييده لهذه الدولة، وكذلك ثارت مشاعر المسلمين فى الهند تأييدا لثورة المهدى فى السودان خاصه ان الانباء فى سملا (مدينة فى الهند) تقع شمالى دلهى اشارت الى تأييد السلطان العثمانى لهذه الثوره. وفى عام ١٩٠٨ كتب احد مسلمى الهند رساله الى مجلة الشرق الادنى البريطانية ابدى فيها اسفه الشديد للصورة التى عكست بها الصحافه البريطانية وضع السلطان العثمانى، وذكر هذه الصحف بأن هذا السلطان انما هو الرئيس الروحى لمسلمى العالم وان الانتقاضات البريطانية الموجهة اليه ستعمل على اثارة مسلمى الهند على بريطانيا ونصح صاحب الرسالة الحكومة البريطانية بالتعقل والحكمه فى سياستها مع الدولة العثمانية.

وكان من نتيجة تدخل بريطانيا وأوروبا فى شئون الدولة العثمانية الداخلية ثم تسرب الفكر الاوروبى اليها، ان وقعت حوادث اجتماعية خطيرة بسبب حالة التوتر التى صبغت العلاقة الجديدة بين الأقليات العرقية القاطنه فى الاناضول وبين المجتمع الاسلامى العثمانى. فعندما برزت المشكلة الارمنية، قامت الصحافة البريطانية بنقد الدولة العثمانية ومهاجمتها بتهمة التعصب الدينى الاسلامى، وفى نوفمبر عام ١٨٩٥ ، ألقى سولزبرى خطاب وعيد وتهديد ضد العثمانيين فى سياستهم الارمنية، وهدد بتحطيمهم وأوضح ان هناك اتفاقا على هذا بين الدول الأوروبية وبين بريطانيا بمساعدة بعض الجمعيات الأرمنية كجمعية الهنشاق[2] ضد الدولة العثمانية. ورغم الضجه

(١) (١٨١٧ - ١٨٩٨) احد رواد الفكر الاسلامى فى الهند ومؤسس مدرسة عليكره التى قامت لتعليم ابناء المسلمين العلوم المدنيه.

(٢) كان الارمن اكثر رعايا الدولة العثمانية صخبا واحسنهم تنظيما وقد استدروا اكبر عطف عام من أرجاء العالم لتخلصهم من الحكم العثمانى وبالاضافة الثورية الارمية كالهنشاق والدشنا حتسوتيان =

التى اثيرت حول المشكلة الارمنية، فلقد عاش الارمن فى وضع لم تكن تعيشه الأمم الاسلامية العثمانية نفسها ومع ذلك تدخلت الدول الاوربية من أجلهم وطالبت بتحسين اوضاعهم دون النظر الى وضع المسلمين الذى لم يكن متميزا عن غيرهم من الرعايا العثمانيين. وتبين كذلك ان بريطانيا عمدت ايضا الى تنمية المعارضة الداخلية فى الدولة العثمانية ضد السلطان العثمانى، وذلك أسلوب تواجه به مركزه الروحى الذى، كان له شأن كبير بين الشعوب الاسلامية فعندما وضعت جمعية الاتحاد والترقى خطة للاطاحة بالحكم الحميد عام ١٩٠٢ قام اسماعيل كمال، أحد أعضاء، الجمعية بعرض الخطة بكاملها على السير ادموند موسن (Edmund Mosen) سفير بريطانيا فى باريس وبعد ان درس السفير الموضوع أرسل اسماعيل الى لندن بعد أن زوده برسائل الى وزارة الخاجية. غير ان اللورد لانسدوان وزير خارجية. بريطانيا كان خارج لندن ولم يستطع مقابلته، وقابل عوضا عنه اللورد ساندرسون، الوكيل الدائم لوزارة الخارجيه، وقدم له تفصيلات عن العمل الذى يقترحه وطبيعة الحماية التى يطالبها من الحكومه البريطانية وقد استطاع اسماعيل كمال ان يحصل على وعد من الحكومه البريطانية مكتوب باللغة الفرنسية بالتأييد، اللائق لهذه الحركة. وانتقل اسماعيل بعدها الى القاهرة طبقا لترتيب أعده مع اللورد ساند رسون حيث قابل اللورد كرومر، المعتمد البريطانى فى مصر، وقد تردد كرومر فى البداية حول الموضوع، ولكنه وافق فى النهايه على أساس. أن من مصلحة بريطانيا العظمى ان تراها (المسألة

= (Dashnagtzoutian) وكانت لهم صحيفة تصدر مرتين فى الشهر وتدعى «صديقه أرمنيه (Pro-Armenia) وقد أنشأ ها فى نوفمبر جون كليما نصو وأناتول فرانس وجان جوريز وغيرهم للدفاع عن القضية الارمنية.

العثمانية) وقد حلت بشكل يخلق تركية وصديقه وهكذا كان لبريطانيا دور
فى مساعدة وتشجيع الاحزاب العثمانية التى كانت تعتمد فى مطالبها
الاصلاحية على الافكار الاوروبية والتى ستساعد فيما بعد على تمزيق الروابط
(الجامعة) الاسلامية وتحطيم مركز السلطان العثمانى الدينى، الذى حاولت
من خلاله ايضا استغلال لصالح سياستها الاستعمارية فى الاراضى الاسلامية
وبهذا الأسلوب تستطيع بريطانيا تحقيق أهدافها التوسعيه دون استثارة العواطف
الاسلامية.

وفى مجال اخر عندما فشلت السياسة البريطانية لاكتساب مسانده الدول
الكبرى فى المسألة المصرية خلال الثورة العرابية قامت الحكومة البريطانية
بالاتصال بالباب العالى معربه عن تمنياتها فى مسانده الحكومه العثمانيه لها
فى المسأله المصرية وكان محور السياسة البريطانية فى مصر هو سيطرتها على
قناه السويس ذلك الممر الاستراتيجى الموصل الى مستعمراتها فى الهند، لكن
المسؤولين البريطانيين أبدوا تخوفا واضحا من تدخل الخليفة العثمانى فى مصر
خلال الثورة العرابية لأن ذلك سيرجع مصر الى سابق عهدها كولاية عثمانية
وسيعمل هذا التدخل ايضا على اثارة العواطف الإسلامية بحيث تدفع
بالمسلمين فى مصر وسائر انحاء العالم الاسلامى الى الثورة ضد النفوذ
البريطانى مما يشكل تهديدا خطيرا للمصالح البريطانية فى المنطقة الاسلامية
خاصة ان الثورة العرابية كانت تغذيها الاتجاهات الاسلامية. فقد وضح احمد
عرابى فى رسالة بعثها الى جلادستون فى ٢ يوليو ١٨٨٢ اى قبل ضرب
مدينة الاسكندرية بعده ايام، مايلى «ان تعاليم ديننا تحضنا على المقاومة وعدم
الاستسلام لهم، وانه اذا مابدأت بريطانيا بمها جمتنا، فان مصر تعتبر فى حل
من جميع الاتفاقيات، والمعاهدات المبرمة مع الاوروبيين وستتوقف مصر عن

دفع الديون المترتبة عليها، بالاضافة الى انها ستصادر جميع الاملاك والاموال الخاصة بالاوروبيين، وستعمل على تدمير قناة السويس، وطبيعى ان يتولد من ذلك كله ردة فعل اسلامية وينتج عنها اعلان حرب مقدسة (جهاد) فى سورية وشبه الجزيرة العربية ومصر. فمصر تعتبر عند المسلمين مفتاح الاماكن المقدسة فى كل من مكة والمدينة وتعاليم ديننا تشجع وتحض المسلمين للدفاع عن هذه الاماكن والطرق المؤدية اليها».

واذا كان سياسيو بريطانيا قد راقبوا المشاعر الاسلامية فى مصر خوفا من رد الفعل الاسلامية فانهم عمدوا ايضا الى مراقبة المشاعر الاسلامية فى الأقطار الاخرى، اذ لاحظ بلنت Blunt[1] خلال زيارته للهند عام ١٨٨٣ / ١٨٨٤ ان بعض زعمائها مثل سيد على وسيد حسين بلجرانى (١٨٥١ - ١٩١١) من حيدر اباد قد ابدوا استياءهم الشديد من سياسة جلادستون فى مصر. لذلك كله رأت بريطانيا مراعاة المشاعر الدينية للمسلمين الواقعين تحت حكمها فأرادت ان تجعل من الدولة العثمانية ستارا تحقق من ورائه اهدافها التوسعية، دون اثارة تلك المشاعر رغم ان الاتجاهات فى بريطانيا كانت ضد فكرة التدخل العثمانى، بحجة ان هذا التدخل سيعمل على اثارة المشاعر الاسلامية ضد الأوروبيين فى مصر وكان جمبتا (Gambetta) الزعيم الفرنسى يؤيد هذه الاتجاهات خاصة انه كان ممتلئا بالمخاوف من ثورة اسلامية، ولم ير فى الحركة الوطنية فى مصر إلامظهرا من مظاهر التعصب الدينى الاسلامي. ولهذا كان شعور الحكومة البريطانية متخوفا من ثورة المشاعر الاسلامية فى مصر فأخذت تحاول اقناع الناس بالعودة الى سابق عهدهم وذلك من أجل رفاهية البلاد.

(١) ولفريد سكاون بلنت مؤلف كتاب «التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر».

وفى بريطانيا ظهرت اتجاهات معارضة لسياسة الحكومة البريطانية فى مصر، وذلك خوفا من اثارة المشاعر الاسلامية ضد بريطانيا. ففى ٢٦ يونيو ١٨٨٢ وقف اللورد لامنجتون (Lamengton) فى مجلس اللوردات مدافعا عن موقف بلنت مشيرا الى ان بعض مراسلى الصحف يعطون معلومات خاطئة عن الثورة العرابية بينما حصلت بريطانيا على الحقيقة من تقارير بلنت ولكنها تصر على عدم تصديقها. غير ان الحكومة البريطانية سعت الى استخدام الدولة العثمانية كستار تخفى وراءه اهدافها التوسعية وبذلك تستطيع ان تتجنب ردة الفعل الاسلامية ضدها، وان تسبغ الشرعية على تدخلها فى الشئون المصرية ولكنها سعت فى نفس الوقت الى ابعاد النفوذ العثمانى، والقضاء على كل المحاولات التى بذلها السلطان لاظهار مصر ولايه عثمانية. واستمرت الحكومة البريطانية فى ضغطها على السلطان العثمانى لاعلان عصيان عرابى، وقد اظهر السلطان ترددا وحيرة فى هذا الامر، فالإعلان سينقص من قيمته الدينية أمام المسلمين، خاصة ان رسائل عديدة وصلته من العالم الاسلامى تطالب بعدم التخلى عن مصر كما حدث عندما تخلت السلطنة عن تونس للفرنسيين عام ١٨٨١ . واخيرا رضخ السلطان العثمانى للاقتراحات البريطانية فأجبر على اصدار بيان عصيان عرابى. وقد صدر البيان باسم الحكومة العثمانية برغم ماتم الاتفاق عليه من أنه سيصدر باسم السلطان، واحتوى النص على بعض التعديلات التى كان القصد منها انقاذ سمعه السلطان فى العالم الاسلامى، واستقبل بيان اعلان عصيان عرابى استقبالا سيئا فى كل من استانبول ومصر، ولذلك صعب على العثمانيين ان يهضموا الاتجاه الجديد من جانب السلطان قبل ان يتم اعدادهم لذلك، وايا كان الأمر فقد اعطى هذا البيان السياسة البريطانية فى مصر صفة الشرعية امام الشعوب

الاسلامية الواقعة تحت حكمها، واستطاعت بريطانيا بذلك الاسلوب ان تتجنب ردة فعل المشاعر الاسلامية فى مصر والعالم الاسلامى. وهكذا سعت بريطانيا الى اضعاف الروابط بين العثمانيين والشعوب الإسلامية ففى عام ١٨٩٧ أشار انتونى مكدونل (Anthony Mac Donnell) (١٨٤٤– ١٩٢٥) نائب حاكم عام الهند، فى تقرير الى اللورد الجن (١٨٤٩–١٩١١) حاكم عام الهند إلى ان العواطف الاسلامية فى الهند تزداد تأييدا للدولة العثمانية وان كثيرا من الناس فى الهند اخذوا يلبسون الطربوش العثمانى. ولكى تدعم بريطانيا سياستها فى تحطيم الروابط الاسلامية عملت على ايجاد خلافة اسلامية مضادة لسحب الرداء الاسلامى من مركز الخلافة فى استانبول. ومما ساعدها على تحقيق هذه الخطة انتشار الافكار الاوروبية فى المجتمع الاسلامى، لاسيما وان طلاب الاصلاح العثمانى رأوا فى مؤتمر باريس عام ١٩٠٢ ضرورة طلب المساعدة الأوروبية من اجل الاصلاح المنشود.

وعندما عقد مؤتمر باريس العربى عام ١٩١٣ شجع الشريف حسين بن على، على التفاوض مع بريطانيا على اساس تحقيق وعودها بانشاء دولة عربية ويشير المستشرق البريطانى برنارد لويس الى هذا التطور فيقول: «لقد احدث التغريبيون فى المجتمع الإسلامى تغيرات يشك فى أمرها، فقد ساعدوا على الانحلال والتفتت السياسى فمع ان النظام السياسى فى الشرق الاوسط كان غير مكتوب حتى العصور الحديثة، الا انه كان معترفا به من قبل جموع المسلمين وبرغم ان السلطان العثمانى لم يكن محبوبا دائما من اتباعه، الا ان احترامه كان واجبا، فقد كان يمثل رأس العالم الاسلامى، وعندما تحطمت الامبراطورية وخلع السلطان حل محله ملوك ورؤساء حاولوا جميعا كسب حب الناس لهم، وهكذا حلت أشياء جديدة لم يتعود عليها الناس».

ومن خلال هذه الظروف بدأت بريطانيا تتمنى مشروع الخلافة العربية بهدف تحطيم الروابط الاسلامية القائمة بين الاتراك العثمانيين، والعرب العثمانيين وكان هذا يعنى تحقيق أهداف توسعية جديدة وتشتيت الجامعه الاسلامية من حول السلطان العثماني ويبدوا أن هذه الاتجاهات الجديدة فى السياسة البريطانية ازاء الجامعة الاسلامية، جاءت نتيجة للدراسات المستفيضة التى قدمها الخبراء الانجليز لرؤسائهم حين بينوا لهم الاتجاهات الوطنية السائدة فى المجتمع العثمانى، وأن مركز السلطان العثمانى الدينى نابع من سيطرته على الاماكن المقدسة التى تجعل منه زعيما روحيا للمسلمين، ولكى تحقيق بريطانيا، مشروعها الخاص بالخلافة العربية، أخذت مجموعة من خبرائها يتقربون من المسلمين ويتحببون اليهم بهدف دراسة واقع المجتمع العثمانى. وكان على رأس هؤلاء، ريتشارد بيرتون (١٨٢١-١٨٩٠) (Richard Burton)[1]. الذى زار دمشق وأعجب هناك بالطريقة الصوفية الشاذلية فواظب على حضور جلساتها وأخذ والى دمشق رشيد باشا يرسل الشكاوى ضد تدخله فى شئون المسلمين، فابرقت اليه وزارة الخارجية البريطانية فى عام ١٨٧١ تستدعيه الى لندن فشيعه جمهور غفير، ومنهم الأمير عبد القادر الجزائرى. كما حاول هنرى بالمر (١٨٤٠-١٨٨٣ Henry Palmer) بتكليف من الحكومة البريطانية إبان الثورة العرابية الاتصال بالقبائل العربية فى شبه جزيرة سيناء خوفا من استغلال الدولة العثمانية لشعورهم الاسلامى فى مهاجمة ضفتى القناة، فدخل بالمر سيناء لهذا الغرض واخذ يوزع الذهب على تلك القبائل ولقى حتفه فى تلك المهمة.

---

(١) انظر كتاب: محمود السمرة، غربيون فى بلادنا.

ومما تجدر الاشارة اليه أن اهتمام بريطانيا بشبه جزيرة العرب وسيناء قد تزايد بعد افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية عام ١٨٦٩، اذ أنها كانت الجسر الموصل الى تجارتها فى الشرق. وقد قام بلنت بزيارة شبه جزيرة العرب وسيناء وعلل سبب زيارته المتكرره لهما بأنه كان يسعى للتعرف على القبائل العربية القاطنة فى هذه المنطقة من أجل تحييدها فى الصراع القائم بين الدولة العثمانية وبريطانيا على مصر، ولحماية قناة السويس من أى هجوم عثمانى، ولكى يكسب عطف هذه القبائل، سعى بلنت لدى السلطات العثمانية لاخراج مجموعة من شيوخ قبائل الحويطات من السجن وراسل فى ذلك القناصل الانجليز للتوسط فى هذا الامر. ويعتقد الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى[(١)].

أن هناك شكوكا حول الدور الذى قام به بلنت خلال تنقلاته فى الدولة العثمانية فبعض الكتاب الفرنسيين يذهبون الى أن بلنت كان مبعوثا من قبل وزارة الخارجية البريطانية وذلك لتوجيه الزعماء الوطنيين لصالح بريطانيا. وتؤكد هذه الحقيقة فقره وردت فى رسالة مالت قنصل بريطانيا العام فى مصر الى وزارة الخارجية جاء فيها «ومن مصلحتنا ايضا لدرجة ما أن تتطور الحركة (العرابية) بتعضيد من جانبنا ولاشك عندى فى الوقت الحاضر فى أن الحزب الوطنى يتجه إلى انجلترا وحدها طلباً للمساعدة.. ولما كانت الحركة (العرابية) كما تؤكد الاشاعات قد اشتد ساعدها بحيث لايمكن ايقافها فمن المفيد أن يوجهها بشكل أو آخر شخص مثقف على علم تام بنظم الحكم فى العالم».

---

(١) مصر والمسألة المصرية: (١٨٧٦ - ١٨٨٢).

والحقيقة ان بلنت اكتسب شهرة بتنقله المستمر فى الدولة العثمانية والاقطار الاسلامية الأخرى، وبتأييده للحركات الوطنيه فيها. كما عرف انه كان يفضل العرب على الاتراك، وحاول أن يوجد لنفسه دورا مؤثرا على القبائل العربية فى شبه الجزيرة العربية وسيناء. وفى رسالة الى جريدة التايمز اللندنية، (١٨ أكتوبر ١٨٨٢) ذكر هنرى مالت شقيق ادوارد مالت قنصل بريطانيا فى مصر أن بلنت كان على استعداد لقيادة الحركات المضاده للدولة العثمانية الدينية، وعندما قامت الحرب اليونانية العثمانية اتصل بلنت بالأمير عبد القادر الجزائرى فى دمشق وعرض عليه أن يكون خليفة للمسلمين، ولما عرض الامر على اللورد جلادستون طلب من سكرتيره اعلام بلنت أن مثل هذه المشروعات رائعة ولكن ينبغى ان تؤجل. وفى مقال لها عن الجامعة الاسلامية والخلافة قالت جريدة التايمز العثمانية انه لاتوجد عائله تنافس العائلة العثمانية على مركزها الدينى فى العالم الاسلامى سوى العائلة الهاشمية فى مكة. ولهذا رأت بريطانيا فى الشريف حسين بن على املها المنشود، وأخذت تقنعه بأحقيته فى الخلافة من السلطان العثمانى، وقد أشار بلنت نفسه فى يومياته إلى أن السلطان العثمانى كان يشك فى نشاطه بين المسلمين العثمانيين وبالفعل ذكر السطان عبد الحميد فى مذكراته جهود بلنت الهادفة الى اقصاء الخلافة عن العثمانيين واقتراحه باعلان الشريف حسين أمير مكه، خليفة على المسلمين، ويتأكد لنا دور بلنت فى تغذية مشروع الخلافة العربية فيما ذكره فى يومياته انه عندما ذهب لتوديع الخديو عباس حلمى الثانى قبل مغادرة مصر فى عام ١٨٩٧ ، تحدث معه عن حالة الدولة العثمانية السيئة نتيجه لسياسة السلطان عبد الحميد. واقترح الخديو على بلنت البحث عن زعيم عربى يتولى قيادة العرب ضد العثمانيين ومما

تجدر الاشارة اليه ان الخديو عباس كان من المهتمين بمسألة الخلافة العربية. ويبدوا أن عباس كان يسعى سرا مع الانجليز الى انشاء سلطنه عربية خاصة انه أصبح له نفوذ كبير فى بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية. ويعتقد كذلك ان الخديو عباس قد شجع عزيز المصرى على ترك برقه والذهاب الى بيروت من أجل العمل لمسألة الخلافة العربية خاصة وانه سيجد تشجيعا من انجلترا وفرنسا[١].

واذا كنا قد أشرنا الى بعض الانجليز الذين نشطوا بين القبائل العربيه فلا أقل من أن نشير كذلك إلى ديفيد جورج هو جارث (Hogarth) المسئول المباشر عن لورنس العرب (T.E. Lawrence) الذى شارك بصورة فعالة فى حركة الشريف الحسين بن على ضد العثمانيين. وقد عمل هو جارث فى المخابرات البريطانية (القسم العربى) وشارك فى حملات مراقبة الشركات الألمانية التى باشرت مد سكة حديد بغداد «وذلك تحت ستار التنقيب عن الاثار فى منطقة المشروع» واستطاع لورنس ان يكون لنفسه خلفية عن العرب اثناء السياحة التى قام بها مع استاذه هوجارث، فزار استانبول عام ١٩١٠، ثم انتقل بعد ذلك الى مدرسة البعثة التبشيرية الأمريكية فى جبيل قرب بيروت لتحسين معرفته باللغة ثم انتقل مع استاذه الى بيروت التى ابحر منها الى حيفا ثم توجها الى دمشق بقطار سكة حديد الحجاز، وفى عام ١٩٢٢ بدأت الحكومة العثمانية تشك فى تحركات هوجارث ولورنس وبدأت فى مراقبتهما ولكن هوجارث كان قد اعد تلميذه للقيام بدوره بين العرب حين يطلب منه

(١) اوراق محمد فريد - المجلد الأول

ورغم ان عزيز المصرى كان عثمانيا فى اتجاهاته السياسية وشارك فى حركة انقلاب جمعية الاتحاد والترقى على الحكم الحميدى عام ١٩٠٩ الا أن سياسية الاتحاديين الطورانية دفعته الى التعلق بفكرة انشاء دولة عربية وعمل على تكوين جمعية العهد العربية.

ذلك، وفى عام ١٩١٤ التحق هوجارث تلميذه بسلك المخابرات العسكرية، وعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا عين لورنس فى القاهرة مشرفا على شبكة للتجسس.

وقد ركز لورنس جهوده على طرد العثمانيين من سورية، وبدأ نشاطه بين العرب خاصة مع الشريف حسين بن على فى مكة. وهكذا بدأت بريطانيا فى انعاش مشروع الخلافة العربية للقضاء على المركز الدينى للدولة العثمانية وقد ساعدها على ذلك العلاقات المتدهورة بين العرب والعثمانيين. ويشير لورنس فى كتابه «أعمده الحكمه السبعة»[1].

الى أن ثورة «تركيا الفتاة» وخلع السلطان عبد الحميد كانت ضربة للاسلام ولفكرة الجامعة الاسلامية التى جعلت من السلطان العثمانى زعيماً روحيا لمسلمى العالم. ويشير لورنس ايضا الى ان العثمانيين كانوا بحاجه الى شريف مكه عند قيام الحرب العالمية الاولى من أجل اضفاء الشريعة على جهادهم المقدس ضد الاوروبين المسيحيين وهذا ما كانت تخشاه بريطانيا على الدوام، لأن ذلك سيثير ضدها عواطف الشعوب الاسلامية الواقعة تحت سيطرتها فأخذت تستغل الاتجاهات الفكرية الجديدة عند العرب وتشجعهم على مقاومة الحكم العثمانى، ونتيجة لذلك أخذت بعض الاحزاب العربية تسعى للانفصال عن العثمانيين ويذكر لورنس فى كتابه ان هذه الاحزاب لم تكن سوى انعكاس لعلاقات العرب المتردية مع العثمانيين.

وازاء هذه التطورات حاولت الدولة العثمانية عند قيام الحرب العالمية الاولى ابراز الطابع الدينى للدولة. ففى اعقاب دخول الدولة العثمانية الحرب

---

(1) Seven pillars of Wisdom.

(٥ نوفمبر ١٩١٤) الى جانب دولتى الوسط. ألمانيا والامبراطورية النمساوية المجرية ضد بريطانيا وفرنسا والروسيا، صدرت فتوى من شيخ الاسلام فى استانبول ثم لحقت بها فتوى اصدرها السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ - ١٩١٨) بصفته خليفة ثم اعقبتها فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الاسلام، وثمانية وعشرون من كبار العلماء من ذوى المناصب الدينية الكبرى. والدراسة التحليلية لهذه الفتاوى الثلاث توضح عده حقائق تؤكد الطابع الدينى للدولة منها:

أولاً: ان هذه الفتاوى الثلاث موجهة الى جميع المسلميين فى بقاع الأرض سواء الذين يعيشون تحت حكم الدولة العثمانية أو الخاضعين لحكم الدول «عدوة الاسلام» وهى بريطانيا وفرنسا والروسيا أو غير هؤلاء وأولئك من مسلمى العالم.

ثانياً: ان الحروب التى تخوضها الدولة هى حروب دينية تستهدف تحرير المسلميين المستعبدين والدفاع عن الدولة وانه قد وضح بما لايدع مجالا للشك أن النصارى من أعداء الاسلام يستهدفون تدمير الدولة وتحطيم الإسلام لأن الدولة العثمانية هى دولة الاسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الاسلام.

ثالثاً: دعوة جميع المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها الى الاتحاد والاشتراك فى الدفاع عن الاسلام وعن الاماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف.

رابعاً: ان الجهاد الدينى فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر. وعلى

ذلك، وفى عام ١٩١٤ الحق هوجارث تلميذه بسلك المخابرات العسكرية، وعندما دخلت الدولة العثمانية الحرب الى جانب المانيا عين لورنس فى القاهرة مشرفا على شبكة للتجسس.

وقد ركز لورنس جهوده على طرد العثمانيين من سورية، وبدأ نشاطه بين العرب خاصة مع الشريف حسين بن على فى مكة. وهكذا بدأت بريطانيا فى انعاش مشروع الخلافة العربية للقضاء على المركز الدينى للدولة العثمانية وقد ساعدها على ذلك العلاقات المتدهورة بين العرب والعثمانيين. ويشير لورنس فى كتابه «أعمده الحكمه السبعة»[1].

الى أن ثورة «تركيا الفتاة» وخلع السلطان عبد الحميد كانت ضربة للاسلام ولفكرة الجامعة الاسلامية التى جعلت من السلطان العثمانى زعيماً روحيا لمسلمى العالم. ويشير لورنس ايضا الى ان العثمانيين كانوا بحاجه الى شريف مكه عند قيام الحرب العالمية الاولى من أجل اضفاء الشريعة على جهادهم المقدس ضد الاوروبين المسيحيين وهذا ما كانت تخشاه بريطانيا على الدوام، لأن ذلك سيثير ضدها عواطف الشعوب الاسلامية الواقعة تحت سيطرتها فأخذت تستغل الاتجاهات الفكرية الجديدة عند العرب وتشجعهم على مقاومة الحكم العثمانى، ونتيجة لذلك أخذت بعض الاحزاب العربية تسعى للانفصال عن العثمانيين ويذكر لورنس فى كتابه ان هذه الاحزاب لم تكن سوى انعكاس لعلاقات العرب المتردية مع العثمانيين.

وازاء هذه التطورات حاولت الدولة العثمانية عند قيام الحرب العالمية الاولى ابراز الطابع الدينى للدولة. ففى اعقاب دخول الدولة العثمانية الحرب

(1) Seven pillars of Wisdom.

(٥ نوفمبر ١٩١٤) الى جانب دولتى الوسط. ألمانيا والامبراطورية النمساوية المجرية ضد بريطانيا وفرنسا والروسيا، صدرت فتوى من شيخ الاسلام فى استانبول ثم لحقت بها فتوى اصدرها السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٩ - ١٩١٨) بصفته خليفة ثم اعقبتها فتوى ثالثة وقع عليها شيخ الاسلام، وثمانية وعشرون من كبار العلماء من ذوى المناصب الدينية الكبرى. والدراسة التحليلية لهذه الفتاوى الثلاث توضح عده حقائق تؤكد الطابع الدينى للدولة منها:

أولاً: ان هذه الفتاوى الثلاث موجهة الى جميع المسلميين فى بقاع الأرض سواء الذين يعيشون تحت حكم الدولة العثمانية أو الخاضعين لحكم الدول «عدوة الاسلام» وهى بريطانيا وفرنسا والروسيا أو غير هؤلاء وأولئك من مسلمى العالم.

ثانياً: ان الحروب التى تخوضها الدولة هى حروب دينية تستهدف تحرير المسلميين المستعبدين والدفاع عن الدولة وانه قد وضح بما لايدع مجالا للشك أن النصارى من أعداء الاسلام يستهدفون تدمير الدولة وتحطيم الإسلام لأن الدولة العثمانية هى دولة الاسلام الكبرى ومقر الخلافة ودرع الاسلام.

ثالثاً: دعوة جميع المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها الى الاتحاد والاشتراك فى الدفاع عن الاسلام وعن الاماكن المقدسة فى مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف.

رابعاً: ان الجهاد الدينى فرض عين على كل مسلم بالغ وقادر. وعلى

المسلمين ان يطيعوا كتاب الله وأوامره كما فسرتها تلك الفتاوى الشريفة.

خامساً: أن الدولة العثمانية استهدفت اثارة الشعور الديني في جميع انحاء العالم الاسلامي على بريطانيا وحليفاتها.

وعكفت الحكومة العثمانية بالتعاون مع المستشرقين الألمان على طبع تلك الفتاوى الثلاث مع تعليقات دينية عليها في كتيبات ومنشورات للتأثير في الجماهير التي تعتنق الاسلام، وكتبت بجميع اللغات التي كان يتكلم بها المسلمون في انحاء العالم الاسلامي وهربت الى مصر والسودان والهند وفارس وافغانستان وما وراءها فضلا عن نيابات شمال افريقية، وكانت جميع هذه المنشورات تتفق في ابراز فكرة واحدة هي : ان الاسلام معرض للاخطار بسبب اطماع بريطانيا وحليفاتها وأن الجهاد في سبيل الدفاع عن الاسلام انما هو فرض عين على كل مسلم بالغ قادر. وعمدت الحكومة العثمانية على ايفاد بعوث دينية تؤيد بالقول واللسان ما تضمنته المكتيبات والمنشورات والبلاغات الرسمية كي يكون لها مزيد من التأثير في نفوس المسلمون. وكان الرسل من شتى الفئات: كان من بينهم وعاظ متجولون، وعلماء ذو ثقافه دينية ومحرضون محترفون انتشروا في جميع البلاد التي كان في استطاعتهم التسلل اليها، فدخلوا الاقاليم الافريقية التي كانت تحت حكم بريطانيا أو فرنسا أو ايطاليا مثل مصر والسودان وطرابلس والجزائر كما ركزوا جهودهم على الشعوب الإسلامية من غير الاتراك رغبة في استمالتها الى تلبية دعوة الجهاد الديني فمدوا نشاطهم الدعائي الى الهنود والافغان والايرانيين، وفي مقدمة هؤلاء العرب تطلب منهم المسارعة الى الجهاد دفاعا عن الاسلام وعن الاماكن المقدسة.

وطلبت الدولة العثمانية من الشريف حسين بن على أمير مكة وشريفها أن يصدر اعلانا عاما يوجهه الى العالم الاسلامى قاطبة يدعو فيه المسلمين الى الجهاد الدينى ضد بريطانيا وحليفاتها على غرار الفتاوى الثلاث التى صدرت من استانبول. ولكن الشريف حسين احجم عن الاستجابة لهذا الطلب، وضغطت عليه الحكومة العثمانية ضغطا لاهواده فيه وانهالت عليه البرقيات والرسائل من العاصمة استنابول تحثه على ان يصدر اعلانا بالجهاد الدينى وان يبعث الى دمشق راية الرسول ﴿ﷺ﴾ وان يحشد جيشا من قبائل الحجاز. وهكذا أظهرت الدوائر العليا فى الدولة العثمانية تلهفا على استصدار اعلان الجهاد الدينى من الشريف حسين. وكان مرد هذا التلهف الى المكانة الدينية الفريدة التى كان يتمتع بها الحسين. ويذكر جورج أنطونيوس فى كتابه «يقظة العرب» أن مكانة الحسين لاتعادلها مكانة شخص آخر فى العالم الإسلامى، تلك المكانة التى تستمد قوتها من نسبه ومن منصبه ايضا. وبينما كانت سلطة جيرانه محصوره فى نطاق اراضيهم، فان سلطته كانت تتجاوز حدود بلاده، ويمتد صوته الى الجموع الغفيرة من سكان العالم الاسلامى فهو حفيد النبى والقيم على الاماكن المقدسة. وهذان الامران اللذان يستوجبان التبجيل وضعاه فى منزلة ينفرد بها ولايطاوله فيها احد وبلغت من الرفعة بحيث كان يستطيع ان ينازع سلطان الخليفة نفسه فى الشئون التى تتصل بسلامة المدينتين المقدستين فقد كان امير مكة حاضرة الاسلام ومثابته ولايستطيع مسلم مؤمن ان يصم اذنيه عن ندائه. وخاصة اذا كان مسلماً عربيا. وكان يقع عليه وحده دون غيره عبء تأييد السلطان حينما يعلن للناس ان الاماكن المقدسة فى مكة والمدينة معرضة للخطر، وهكذا فان مؤازرته فى أمر كالدعوة للجهاد كانت عاملا مهما بل عاملا حاسما، ولذلك كان الاتراك يسعون بلهفة الى الحصول على هذه المؤازرة.

ولكن الشريف حسين كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى، إذ كان في مفترق الطرق. فهو يفكر في القيام على الدولة العثمانية وتحريك ثورة عربية هادرة تستهدف تخليص البلاد العربية الآسيوية من الحكم العثماني. وكان قد تلقى في نوفمبر عام ١٩١٤ عرضا مؤرخا في ٣١ اكتوبر عام ١٩١٤، من اللورد كتشنر – وزير الحربية البريطاني – يتضمن وعدا قاطعا للحسين بأنه اذا وقف هو وأبناؤه الى جانب بريطانيا في الحرب ضد الدولة العثمانية فان الحكومة البريطانية تضمن له بقاءه في منصب امير مكة واحتفاظه بجميع حقوق هذا المنصب وامتيازاته وانها تحميه من كل اعتداء خارجي. والمح كتشنر في ختام عرضه الى ان الشريف حسين في حالة مبايعته بالخلافة يستطيع ان يطمئن الى اعتراف بريطانيا به، وكان تلويح بريطانيا بهذه العروض المغرية احد الاسباب في امتناع الشريف حسين عن اصدار دعوة الى الجهاد الديني، ولكنه لم يجرؤ على الافصاح عن مكنون قلبه فرد على الطلبات المتكررة التي بعث بها اليه رجالات الحكومة في استانبول انه يؤيد الدعوة الى الجهاد ويباركها في صمت، اما تأييده في العلن فأمر يؤدي الى عواقب وخيمة، لانه يخشى ان يعمد الاسطول البريطاني الموجود في البحر الاحمر الى فرض الحصار على ميناء جدة وميناء ينبع وسواحل الحجاز الممتدة وينقطع وصول المؤن بحرا فيواجه السكان أزمات خانقة في المواد التموينية ولاتلبث ان تنقلب الى مجاعه وهو امر يؤدي إلى اشتعال الثورة بين القبائل.

كظم رجال الدولة في استانبول غيظهم، ولكن لما كان يهمهم ان امير مكة وشريفها يؤيد علناً الدعوة الى الجهاد، فقد صدرت التعليمات الى ائمة المساجد في ولايات الشام بأن تتضمن خطب ايام الجمعة، مايفيد ان الشريف حسين قد بارك الدعوة الى الجهاد الديني، وصدرت التعليمات ايضا الى

الصحف العربية بأن تقوم بدورها فى المجال العربى وتنشر ان امير مكة وشريفها قد اعلن الجهاد فى جميع انحاء الحجاز وانه يعمل بتنسيق عام مع قيادات المسلمين. ومضت الدولة العثمانية تثير العواطف الدينية فى نفوس رعاياها المسلمين ونشر وسائل الإثارة الدينية. كان من بينها اقامة احتفالات ضخمة فى المدينة المنورة ودمشق وبيت المقدس بمناسبة نقل راية النبى ﴿ﷺ﴾ من المدينة المنورة الى دمشق ليتبرك بها الجيش العثمانى الرابع فى زحفه المرتقب على مصر. وقد عهد بنقل الراية الى اكبر افراد أسرة الرسول سنا وهو السيد علوى بافقيه وابنائه الثلاثة. وقبل ان يتحرك القطار من المدينة الى دمشق أرسل السيد علوى بافقيه برقية الى احمد جمال باشا القائد العام الرابع الذى أمر بنشرها فى اماكن بارزه فى الصحف وهذا نصها «بالرغم من انى تجاوزت السعبين وتلبية لما فرضه الله علينا من الجهاد فانى اتقدم ومعى ابنائى الثلاثة لنجاهد فى سبيل الله عز وجل حاملاً باحدى يدى راية الرسول المشرفة وباليد الأخرى كتاب الله الذى فرض الجهاد على المؤمنين كافة. ان هتافات عشرين الف من المسلمين ودعواتهم ترن فى اذنى وانا اتوجه الى دمشق وملء نفسى الاخلاص والرغبة فى ان اموت شهيدا لإعلاء كلمة الله فى ارض الحجاز ومن فيها من القبائل جميعا قد لبت نداء خليفتنا المعظم».

واهتمت السلطات العسكرية فى الشام بتنظيم استقبال رسمى مهيب فى محطة السكة الحديدية فى دمشق. وعندما وصل القطار رفعت الراية على المنصة وأدى حرس الشرف المكون من كبار ضباط الجيش التحيه لها، كما ادى جمال باشا التحية العسكرية لها ثم ركع وقبل طرفها بينما كانت الجموع الشعبية المحتشدة تهتف «الله أكبر»، ثم سار الموكب العسكرى واشتركت فيه وحدات عسكرية من مختلف الاسلحه بموسيقاها وخصص فى

الموكب مكان بارز لضابطين سودانيين وثلاثة وعشرين جنديا مصريا كانوا يؤلفون جزءا من طليعة الجيش البريطاني، وابت عليهم عاطفتهم الدينية ان يقاتلوا اخوانهم المسلمين فسلموا انفسهم للقيادة العثمانية بقرب العريش. ولم ينته موكب الرايه في دمشق، بل نقلت فى احتفال مماثل الى بيت المقدس حيث اعد احتفال كبير لها فى الميدان الواسع المحيط بقبة الصخرة ورأس جمال باشا هذا الحفل الذى اختتم باقامة الصلاة فى المسجد الاقصى. واودعت الراية النبوية فى المسجد مؤقتا لاخراجها فى اليوم الذى يزحف فيه الجيش العثمانى على مصر.

وبرغم ذلك ظلت الدولة العثمانية تسعى لاستصدار اعلانٍ من الحسين ابن على بالدعوة الى الجهاد الدينى ضد بريطانيا وحليفاتها. وفى سبتمبر عام ١٩١٥ كشف الحسين عن حقيقة موقفة فصرح بأنه على استعداد لاعلان الجهاد الدينى وتأييد الدولة اذا اعترفت باستقلال الحجاز من تبوك شمالا الى مكة المكرمة جنوبا وتقرير حكم هذا الاقليم وراثيا فى اسرة الحسين امير مكة على غرار النظام المقرر فى مصر بجعل الحكم وراثيا فى اسرة محمد على، اى يكون للحجاز استقلال ذاتى داخل نطاق الدولة. وفى مارس عام ١٩١٦ جدد الشريف حسين طلبه ولكن الدولة العثمانية رفضته واجابات بأنها منصرفة قلبا وقالبا للعمليات الحربية وليس لديها متسع من الوقت للنظر فى مثل هذا الطلب. والواقع ان الدولة العثمانية لم يكن بوسعها ان تتخلى بمثل هذه السهولة عن ولاية الحجاز، لأن سيادتها على هذه الولاية ضرورة حتمية لتأكيد زعامتها على العالم الإسلامى.

وفى الوقت الذى حاولت فيه الدولة العثمانية الحصول على تأييد الحسين بن على لها فإن كثيرا من المسلمين ظلوا على تمسكهم بالدولة

العثمانية الاسلامية، ففى الهند قام شيخ الاسلام العالم محمد حسين (١٨٥١ - ١٩٢٠) بزيارة الحجاز عام ١٩١٥ واتصل بالعثمانيين وقابل جمال باشا. ومن ناحية اخرى قام بعض-اخوانه بزيارة افغانستان لدفعها على العمل مع العثمانيين والالمان وقاموا بتحريض القبائل القاطنة قرب الحدود الجنوبية الغربية مع الهند ضد الحكم البريطانى. وحاول الانجليز بذلك العمل على امتصاص نقمة مسلمى الهند، واشاعوا ان الحرب على الدولة العثمانية انما هى حرب على حزب تركيا الفتاة وليس على الخليفة العثمانى. اما مسلموا السودان فقد عملت بريطانيا على تهدئه خواطرهم وقام السير ريجنا دونجت، حاكم بريطانيا العام فى السودان بشرح موقف بريطانيا فدعا الى الديوان فى ام درمان المشايخ والعلماء وبين لهم ان حكومته تقف مع الاسلام والمسلمين. ومما هو جدير بالذكر ان دونجت كان يشجع الحركة العربية ضد العثمانيين حتى انه دفع السيد على الميرغنى صاحب اكبر مقام دينى لدى العرب فى السودان على ارسال رساله الى الحسين بن على، شريف مكة، يحثه فيها على الوقوف ضد العثمانيين واصدرت الحكومة البريطانية بناء على اقتراح دونجت بيانا هدأت فيه مخاوف المسلمين واعده اياهم بتأسيس دولة عربية ذات سيادة على الاماكن المقدسة فى شبه جزيرة العرب وبينت انها ترحب بفكرة الخلافه العربية. وقد طبع هذا البيان ووزع فى مصر والسودان وسرب البيان الى الشام ايضا، وألقت الطائرات البريطانية نسخا منه على مدن الوجه وينبع وجدة فى شبه الجزيرة العربية.

وهكذا ومع بداية الحرب العالمية الاولى طبقت بريطانيا مشروع الخلافة العربية مستغلة ظروف الدولة العثمانية السياسية والفكرية واستطاعت بذلك ان توجه ضربتها الى الروابط الاسلامية والى كيان الدولة العثمانية الروحى. ولم

تتمكن الحكومة العثمانية من استغلال التيار الدينى الموالى لها والذى كانت تعتمد عليه لاثارة الجهاد المقدس الذى كانت تخشاه بريطانيا، واشار جمال باشا في خطاب القاه فى دمشق بعد بضعة اشهر من حركة الشريف حسين بن على قال: «ومن المؤسف حقا ان شخصا دنيئاً قد عطل الجهاد المقدس فى صميم الاراضى الاسلامية المقدسة، حين حالف القوى المسيحية التى تسعى الى ابتزاز العالم الاسلامى واستلاب الآستانه ...» وهكذا تم لبريطانيا تجزئه الشعور الاسلامى المناهض للسيطرة الاوروبية، وفقدت الدولة العثمانية احدى الاسس التى كانت تقوم عليها عند مواجهة الاخطار المحدقة بعالم الاسلام، وما ان قامت الحرب العالمية الاولى، حتى بدأت الجهود الثقافية والسياسية الاوروبية تؤتى ثمارها وتؤثر بسلبيتها على المجتمع العثمانى، الذى استبدل افكاره الدينية بأفكار وقوانين وضعيه حيث أصبح المسلمون اكثر تقبلا للحياة المادية والافكار الغربية التى طغت موجتها على الكيان الإسلامى.

لقد اقتنع مصطفى كمال اتاتورك[1] برأى الأوروبيين ومزاعمهم وهى: «ان تأخر الممالك الاسلامية وتأخر تركيا انما جاء عن اختلاط امور الدين بالدنيا وعن عمل المسلمين بشرع سماوى ارادوا ان ينفذوه مفردا وان يجعلوه سرمدا وان يردوا اليه كل شئ... وطابت للكماليين كلمة اخذوا يلوكونها بألسنتهم وظنوا انهم اتوا فيها بالقول الفصل وهى نحن لانريد شرعا فيه قال وقالوا ولكن شرعا فيه قلنا ونقول» وفى السنوات الأولى من حكم مصطفى كمال اتاتورك اتخذت حكومته عدة اجراءات باعدت بين الدولة الاسلامية، ففى اول نوفمبر عام ١٩٢٢ تقرر الفصل بين السلطنة والخلافة بمعنى الغاء

(١) اتاتورك كلمة تركية معناه والد الاتراك.

السلطنه كنظام من أنظمه الحكم فى الدوله والابقاء على الخلافه، وتقرر ان يقوم المجلس الوطنى الكبير «بيوك مات مجلس» وقد أخرج بالسلطان محمد السادس من استانبول مبعداً فى ١٧ نوفمبر ١٩٢٢ وحملته سفينه حربيه بريطانية الى مالطة وكان آخر سلاطين الدولة العثمانية. واختار المجلس الوطنى الكبير اميرا عثمانيا هو عبد المجيد بن عبد العزيز خليفة للمسلمين لاسلطانا لكن عبد المجيد لم يستمر طويلا فى منصبه هذا ففى ٣ مارس عام ١٩٢٤ الغيت الخلافة التى كانت ركيزه سياسية استندت اليها الدولة سواء فى صراعها مع الدول الاوروبية أو فى زعامتها للعالم الاسلامى، كما ادت الى علوشأن السلاطين العثمانيين فى نظر مسلمى العالم. وفى اليوم التالى غادر استانبول آخر خليفه عثمانى وهو عبد المجيد بن عبد العزيز واسدل الستار على نظام الخلافة. واصبح العالم الاسلامى للمرة الاولى منذ وفاه النبى ﴿ﷺ﴾ بلا خلافة، ولم يدر الناس لمن ينصرف دعاء الداعين حين يبتهلون الى الله فى ظهر كل جمعة ان يشمل بعنايته وتوفيقه خليفة المسلمين وارتفع صوت احمد شوقى امير الشعراء بقصيدة قوية بكى فيها الخلافة قال فيها.

عادت أغانى العرس رجع نواح — ونعيت بين معالم الافراح

كفنت فى ليل الزفاف بثوبه — ودفنت عند تبلج الاصباح

شيعت من هلع بعيرة ضاحك — فى كل ناحية وسكرة صاح

ضجت عليك ماذن ومنابر — وبكت عليك ممالك ونواح

الهند والهة ومصر حزينة — تبكى عليك بمد مع سماح

والشام تسأل والعراق وفارس — امحا من الارض الخلافة ماح ؟

وكان اول خطوة اخرجت الناس عماهم فيه من حيرة وارتباك بيان مذيل بامضاء ستة عشر عالما من علماء الأزهر أذاعوه بعد الغاء الخلافة بأربعة ايام يقررون فيه بطلان ما «تجرأ عليه الكماليون من عزل الخليفة عبد المجيد، الذى انعقدت له البيعة من المسلمين جميعا ونبه البيان المسلمين الى حاجتهم للخليفة ووعدهم بالاسراع فى عقد مؤتمر يقرر ما يراه فى امر الخلافة من الطريق الشرعى» ، ومنذ ذلك الوقت كثرت الدعوات لعقد مؤتمر الخلافة وبرز اسم مصر واسم الازهر كمصدر لهذه الدعوات ومركز من اهم مراكز النشاط الإسلامى الذى يحاول معالجة هذه المشكلة. ونشطت حركة الدعوة الى عقد هذا المؤتمر حين ذاعت الشائعات التى ترشح الشريف حسين بن على للخلافة فنشر علماء التخصص بالازهر بيانا حذروا فيها من الانخداع بنداءات الخونة المارقين اللذين ينادون ببيعة الشريف صنيعة الانجليز، كما حذروا فيه من ان تتهافت كل مملكة على جعل الخليفة فيها فيتعدد بذلك خلفاء المسلمين وتذهب ريحهم وتضرب عليهم الذلة والمسكنة الى يوم الدين.

ولم يلبث بعض الفلسطينين ان اقاموا حفلا بايعوا فيه الأمير حسين بالخلافة فظهر على التوإسم الملك فؤاد فى مصر مرشحا لها. ولكن السلطان وحيد الدين الذى فر من الكماليين نشر فى ذلك الوقت بيانا من منفاه يدافع عن نفسه ويقول انه لم يهرب ولكنه هاجر الى حيث يستطيع الدفاع عن مقدسات الاسلام ويبين سوء مقاصد الكماليين وماتدل عليه تصرفاتهم من الالحاد، إذ أباحوا تزوج المسلمات بالنصارى وحرموا تعدد الزوجات وأخرجوا نساء المسلمين متبرجات الى الرقص والبارات، واخرجوا تعليم القرآن والدين من برامج الدراسة، ومنعوا الاتراك من الحج الى بيت الله الحرام، وأحلوا الحروف اللاتينية اخر الامر محل الحروف العربية. وختم وحيد الدين بيانه

بقوله «تقسما بعظمة الله وعلو عزته تعالى، ياورثة سيد الانبياء لقد دقت ساعة الوعظ والايقاظ على حركة الكماليين. وإلا فإن دين الاسلام وشمس الشريعة والتوحيد على وشك غروب قريب من سماء الاناضول».

ونشطت الدعوة الى المؤتمر الاسلامى فاجتمع العلماء برئاسة شيخ الجامع الأزهر واذاعوا بيانا فى ٢٥ مارس ١٩٢٤ افتوا فيه ببطلان بيعة عبد المجيد الذى كان الكماليون اقاموه قبل ان يلغوا الخلافة لأن الاسلام لايعرف الخلافة بالمعنى الذى تولاه به منفصلة عن السلطة وقرروا دعوة ممثلى جميع الامم الاسلامية الى مؤتمر يعقد فى القاهرة برياسة شيخ الاسلام للبت فيمن يجب ان تسند اليه الخلافه الاسلامية، وأخذت لجنة المؤتمر الاسلامى شكلا رسميا فانتشرت فروعها فى البلاد، كما كانت صحيفة الاتحاد الناطقة بلسان القصر تدعو المسلمين فى اقطار الارض للاهتمام بشهود المؤتمر الذى سيعقد فى القاهرة وصدرت مجلة باسم المؤتمر الاسلامى ظهر العدد الاول منها فى اكتوبر ١٩٢٤ ونشر فى صدره مقال للسيد محمد رشيد رضا يبرز فيه اهمية هذا المؤتمر لأنه اول مؤتمر اسلامى عام يشترك فيه علماء الدين من كل الامم الاسلامية ولكن هذا المؤتمر الذى حدد لانعقاده مارس ١٩٢٥ أجل مرة بعد مرة ولم يجتمع إلا فى ١٣ مايو عام ١٩٢٦ ثم ان اجتماعه من بعد كان فاشلا لم يسفر عن شئ.

وقد اجتمعت على افساد هذا المؤتمر ووضع العراقيل فى سبيله عوامل كثيرة. كان امان الله خان «ملك الافغان وقتذاك طامعا فى الخلافة وكان كثير من مندوبى الدول الاسلامية يعملون على احباط ترشيح الملك فؤاد نفسه للخلافة هذا الى ان الشريف حسين بن على كان قد اخذ البيعة لنفسه فى فلسطين وشرق الاردن ثم ان الانجليز كانوا يعارضون فى ظهور الخلافة

وكان اول خطوة اخرجت الناس عماهم فيه من حيرة وارتباك بيان مذيل بامضاء ستة عشر عالما من علماء الأزهر أذاعوه بعد الغاء الخلافة بأربعة ايام يقررون فيه بطلان ما «تجرأ عليه الكماليون من عزل الخليفة عبد المجيد، الذى انعقدت له البيعة من المسلمين جميعا ونبه البيان المسلمين الى حاجتهم للخليفة ووعدهم بالاسراع فى عقد مؤتمر يقرر ما يراه فى امر الخلافة من الطريق الشرعى»، ومنذ ذلك الوقت كثرت الدعوات لعقد مؤتمر الخلافة وبرز اسم مصر واسم الازهر كمصدر لهذه الدعوات ومركز من اهم مراكز النشاط الإسلامى الذى يحاول معالجة هذه المشكلة. ونشطت حركة الدعوة الى عقد هذا المؤتمر حين ذاعت الشائعات التى ترشح الشريف حسين بن على للخلافة فنشر علماء التخصص بالازهر بيانا حذروا فيها من الانخداع بنداءات الخونة المارقين اللذين ينادون ببيعة الشريف صنيعة الانجليز، كما حذروا فيه من ان تتهافت كل مملكة على جعل الخليفة فيها فيتعدد بذلك خلفاء المسلمين وتذهب ريحهم وتضرب عليهم الذلة والمسكنة الى يوم الدين.

ولم يلبث بعض الفلسطينين ان اقاموا حفلا بايعوا فيه الأمير حسين بالخلافة فظهر على التوإسم الملك فؤاد فى مصر مرشحا لها. ولكن السلطان وحيد الدين الذى فر من الكماليين نشر فى ذلك الوقت بيانا من منفاه يدافع عن نفسه ويقول انه لم يهرب ولكنه هاجر الى حيث يستطيع الدفاع عن مقدسات الاسلام ويبين سوء مقاصد الكماليين وماتدل عليه تصرفاتهم من الالحاد، إذ أباحوا تزوج المسلمات بالنصارى وحرموا تعدد الزوجات وأخرجوا نساء المسلمين متبرجات الى الرقص والبارات، واخرجوا تعليم القرآن والدين من برامج الدراسة، ومنعوا الاتراك من الحج الى بيت الله الحرام، وأحلوا الحروف اللاتينية اخر الامر محل الحروف العربية. وختم وحيد الدين بيانه

بقوله «تقسما بعظمة الله وعلو عزته تعالى، ياورثة سيد الانبياء لقد دقت ساعة الوعظ والايقاظ على حركة الكماليين. وإلا فإن دين الاسلام وشمس الشريعة والتوحيد على وشك غروب قريب من سماء الاناضول».

ونشطت الدعوة الى المؤتمر الاسلامى فاجتمع العلماء برئاسة شيخ الجامع الأزهر واذاعوا بيانا فى ٢٥ مارس ١٩٢٤ افتوا فيه ببطلان بيعة عبد المجيد الذى كان الكماليون اقاموه قبل ان يلغوا الخلافة لأن الاسلام لايعرف الخلافة بالمعنى الذى تولاه به منفصلة عن السلطة وقرروا دعوة ممثلى جميع الامم الاسلامية الى مؤتمر يعقد فى القاهرة برياسة شيخ الاسلام للبت فيمن يجب ان تسند اليه الخلافه الاسلامية، وأخذت لجنة المؤتمر الاسلامى شكلا رسميا فانتشرت فروعها فى البلاد، كما كانت صحيفة الاتحاد الناطقة بلسان القصر تدعو المسلمين فى اقطار الارض للاهتمام بشهود المؤتمر الذى سيعقد فى القاهرة وصدرت مجلة باسم المؤتمر الاسلامى ظهر العدد الاول منها فى اكتوبر ١٩٢٤ ونشر فى صدره مقال للسيد محمد رشيد رضا يبرز فيه اهمية هذا المؤتمر لأنه اول مؤتمر اسلامى عام يشترك فيه علماء الدين من كل الامم الاسلامية ولكن هذا المؤتمر الذى حدد لانعقاده مارس ١٩٢٥ أجل مرة بعد مرة ولم يجتمع إلا فى ١٣ مايو عام ١٩٢٦ ثم ان اجتماعه من بعد كان فاشلا لم يسفر عن شئ.

وقد اجتمعت على افساد هذا المؤتمر ووضع العراقيل فى سبيله عوامل كثيرة. كان امان الله خان «ملك الافغان وقتذاك طامعا فى الخلافة وكان كثير من مندوبى الدول الاسلامية يعملون على احباط ترشيح الملك فؤاد نفسه للخلافة هذا الى ان الشريف حسين بن على كان قد اخذ البيعة لنفسه فى فلسطين وشرق الاردن ثم ان الانجليز كانوا يعارضون فى ظهور الخلافة

الاسلامية فى اى صورة من الصور. ولكنهم كعادتهم لم يكونوا يصرحون بهذه المعارضة حتى لايثيروا المسلمين ويدعوهم الى التثبث بالخلافة فكانوا يعملون على تعقيد المساعى المبذولة فى اعادتها بوسائل ملتوية خفية وشاع بين الناس فى مصران الانجليزهم الذين يدفعون الملك فؤاد لترشيح نفسه وبدت المعارضة لترشيح الملك فؤاد للخلافة اول مابدت فى الأزهر نفسه. وكتب الشيخ على عبد الرازق فى صحيفة السياسة يقول: تهتم بالخلافة تلك الام التى لاتملك من امر نفسها ولكن يحركها الاجنبى ويقلبها ذات اليمين وذات الشمال ولايهتم بالدعوة الى الخلافة فى تلك الام رجال من اهل الكرامة الذاتية والشخصية المستقلة وانما يهتم بها رجالا لايملكون لانفسهم امرا ولكن يحركهم غيرهم فيتحركون ثم اختتم مقاله بقوله: «كانما كتب الله ان لاتقيم الخلافة اليوم - ان قامت الا على اساس من الذل والعبودية وان لا تنتصر الا على ايدى اذلاء مأجورين مستعبدين.

وانعقد المؤتمر آخر الأمر بعد أن اجل مرتين قبل ذلك - فى ١٣ مايو عام ١٩٢٦ وحضره حوالى اربعة وثلاثون عضوا. وبعض هؤلاء قد حضر بشخصه لايمثل هيئة او حكومة وبعضهم حضر للاستماع دون المشاركة او ابداء الرأى مثل مندوب ايران. وفشل المؤتمر إذ انتهى الى تقرير ان «الخلافة المسنجمعة لشروطها المقررة فى كتب الشريعة الغراء من اهمها الدفاع عن حوزة الدين فى جميع بلاد المسلمين وتنفيذ احكام الشريعة الغراء فيها لايمكن تخفيفها بالنسبة للحالة التى عليها المسلمين الأ ثم اراد ان «تسيرها الفشل فقرر ان تبقى هيئة المجلس الادارى لمؤتمر الخلافة بمصر على ان ينشئ له شعب فى البلاد الاسلامية المختلفة تكون على اتصال بها لعقد مؤتمرات متوالية فيها حسب الحاجة «وبعث المؤتمر بقراره هذا الى « مؤتمر مكة»

الذى اعلن السلطان ابن سعود عقده لوضع نظام للحكم فى البلاد المقدسة راجيا له التوفيق. وقد كان هذا القرار السلبى وهذا الفشل الذى انتهى اليه مؤتمر الخلافة هو الوسيلة الوحيدة للتخلص من المأزق الذى وقع فيه الداعون الى المؤتمر فى مصر ممن يعملون لحساب الملك فؤاد بعد الذى شاع من عزم مندوبى الدول الاسلامية على احباط مسعاها بأن يدعو كل منهم لملكه او أميره. وقد ظلت الخلافة بعد ذلك موضع تنافس ملوك المسلمين وأمرائهم مما كان سببا فى فشل كل الجهود التى بذلت لاحيائها واعادة منصبها، حتى لقد أظهر الزعيم الهندى المسلم شوكت على الى نفى ما اشيع من انه سيدعو فى مؤتمر القدس الإسلامى عام ١٩٣١ الى اعلان عبد المجيد اخر الخلفاء العثمانيين خليفة للمسلمين ذا سلطة روحية فقط، وذلك حين تبين معارضة كثير من المسلمين فى ذلك، وبعد ان عارضته فيه مجلة نور الاسلام التى تمثل الأزهر.

وبرغم ذلك فقد استمر الكماليون فى سياستهم ففى ٢٠ ابريل عام ١٩٢٤ تم ادخال تعديل هام على الدستور الجمهورى الذى كان قد اقره المجلس الوطنى الكبير. فقد تقرر فى ابريل عام ١٩٢٨ تعديل المادة الثانية من الدستور بحيث يحذف منها العبارة التى تنص على أن «دين الدولة التركية هو الإسلام»، وقد استتبع حذف هذا النص ادخال تعديلات على المواد التالية الاخرى من الدستور والتى كانت تمس موضوعات فيها اشارة الى الدين الاسلامى وفى فبراير عام ١٩٣٧ اضيفت الى المادة الثانية من الدستور عدة مبادئ كان ينادى بها الحزب الجمهورى الشعبى فجاء النص المعدل يقول ان الدولة التركية هى دولة جمهورية وطنية شعبية علمانية، كما صدرت قوانين اخرى املتها الروح التى اصدرت التشريعات السابقة وكان من بين هذه

القوانين الزام الاتراك بأن يستبدلوا بالطربوش غطاء جديدا للرأس هو القبعة ويعزو احد المؤرخين الانجليز صدور هذا القانون الى رغبة الحاكم الجديد فى حمل الاتراك على ترك الصلاة لان لابس القبعة لايستطيع فى سجوده فى اثناء الصلاة ان يجعل جبهته تمس الارض، وصدر قانون اخر بحل طوائف الدراويش وتسريحهم.

وقد دلت تلك التشريعات وغيرها على ان اعضاء حكومة انقره لايقيمون وزنا للتقاليد الاسلامية والعادات التى درج عليها الشعب التركى قرونا وعصورا وادهارا، فقد الغوا بجره قلم نظام السلطنة والخلافة وازالوا من الدستور الجمهورى النص القائل بأن الاسلام هو دين الدولة التركية وقد تحولت من امبراطورية اسلامية عالمية إلى دولة علمانية آسيوية لأنها حصرت نفسها فى شبه جزيرة الأناضول فعادت كما كانت عليه فى النصف الأول من القرن الرابع عشر. ومع ذلك فإن الشعب التركى لم يتقبل التشريعات التى مست حياته الدينية ولم يفقد إيمانه بالدين الإسلامى، وقامت معارضة تكون منها الحزب الشرقى الجمهورى برياسة نور الدين باشا. وكان من بين المبادئ الأساسية التى تضمنها برنامج الحزب المحافظة على التقاليد الإسلامية ومقاومة الأخذ بالأساليب والآراء الغربية. واتخذ حزب المعارضة فى عام ١٩٣٥ خطة الهجوم المسلح وانضم أفراد الى حزب المعارضة ولكن سيرت الحكومة جيشا بقيادة عصمت إينونو وقضى على الثائرين قضاء مبرماً.

تاريخ الهند الإسلامية

١- مقدمة: الفتح الإسلامى للهند.

٢- امبراطورية المغول الإسلامية فى الهند.

٣- الاستعمار البريطانى وانهيار الامبراطورية المغولية.

١ - مقدمة: الفتح الاسلامى للهند:

كانت الهند خلال تاريخها القديم مهد حضارة راقية أشعت بنورها لاعلى البقاع القريبة منها فقط، بل كذلك على بقاع فى اقصى الارض شرقا وغربا. وبدأ أظهر أدوار الهند التاريخية بالفتوحات الإسلامية، واخصها تلك التى توغل فيها الغزنويين ومن جاء من بعدهم بهذه البلاد منذ اواخر القرن الرابع الهجرى، وصحبهم فيها جملة من العلماء والمؤرخين والرحالة المسلمين الذين درسوا احوال الهند وكشفوا عما كان بها من حضارات ومدنيات عريقة تقصوا اسسها وتفصيلاتها. والمسلمون الذين اسهموا فى حفظ تراث اليونان وزادوا عليه، هم انفسهم الذين اظهروا العالم على الكثير من تراث الهند الذى اطلعوا عليه فحبب اليهم الاستزادة بما عند غيرهم من مختلف فنون المعرفة ودفعهم الى طلبها. صنع المسلمون ذلك ولم يكن قد مضى عليهم بالهند اكثر من قرن واحد من الزمان، ولم يكونوا يملكون من اراضيها الاولاية واحدة صغيرة، بالقياس الى مساحة الهند الشاسعة، هى السند التى كانوا قد دخلوها اواخر القرن الاول الهجرى، ومنذ اواخر القرن الرابع الهجرى توغل المسلمون فى هذه البلاد، فاذا بعلمائهم يقفون على ماعند الهنود من فنون المعرفة الكثيرة من افواه المشتغلين بها من رجالهم بعد ماكانوا قد اطلعوا على قدر منها فى بطون كتبهم ويتعرفون على احوالهم وعقائدهم بمخالطتهم ومسائلة كهنتهم ورهبانهم ومناظرة فلاسفتهم وكان امام هؤلاء العلماء الاعلام جميعا العلامة ابو الريحان البيرونى العارف بلغات الهند[١].

(١) ألف كتابا عن الهند بعنوان: «ذكرما للهند من مقولة مقبولة للعقل او مزدوله وقد نشر هذا الكتاب فى لندن عام ١٨٨٧.

لقد دخل الاسلام الهند عبر طريقين: اولهما عبر طريق السند، وثانيهما عبر منطقة الحدود الشمالية الغربية. وكان العرب في القديم على معرفة غير قليلة بالهند واحوالها عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد في غربها فاختلطوا بأهلها ولقوا في الغالب حفاوة عند حكامها، ليعودوا الى بلادهم في كل مرة فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل ومالهم من غرائب العادات والمعتقدات، ويبهروا انظارهم بما يعرضونه عليهم من لآلئ الهند ونفيس معادنها ومنسوجاتها وعطورها وثمارها ثم سيوفها التي اشتهرت بها. وفي عهد الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥م) بلغت الفتوح الاسلامية اقصاها شرقا وغربا، ففي الشرق استطاع القائد قتيبة بن مسلم ان يغزو بلاد ماوراء النهر، وان يصل بجيوشه الى اواسط آسيا وفي الغرب استطاع موسى بن نصير ان يخضع بلاد المغرب، كما استطاع مولاه طارق بن زياد ان يفتح بلاد الاندلس. وعندما عهد الوليد بن عبد الملك بأمر القسم الشرقي من بلاد الى الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي كان محبا للفتح والتوسع، وجه جند المسلمين الى بلاد ما وراء النهر فدخلت بخارى وسمرقند وخجند وفرعانة حتى وصلت الى قشغر على حدود الصين. وكان من الطبيعي الايهمل الحجاج امر اقليم السند، باب الهند الذي اصبح يجاور اخر حدوده الشرقية، واختار الحجاج ابن اخيه محمد بن القاسم الثقفي قائدا للحملة السندية. وقاد محمد بن القاسم جيشه عبر مكران متجها نحو ثغر الديبل حيث انضم الى جيش المسلمين جموع كثيرة من رجال الميد والجات (الزط)[1]. وقد افاد المسلمون من رجال الميد والزط، الى جانب شجاعتهم في الحرب وشدة جلدهم فيها، معرفتهم بمسالك السند ودروبها واحوال

(١) قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهما الى خارج بلادهم لفرط ماكانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية، اذ كانوا في عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب او ارتداء غالي الثياب، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف الا ادنؤها.

اهلها واسا ليبهم فى النزال. واستعر القتال بين الفريقين المتحاربين فى عنف بالغ انتهى الى فرار امير السند داهر وفلوله من الميدان.

وواصل محمد بن القاسم زحفه فبلغ مدينة «نيرون»[1]. على الضفة الغربية للسند ولما وصلها أتاه وفد كهنتها البوذيين وابرزوا له أمانا صدر اليهم من الحجاج، فأمنهم ودخل المدينة دون قتال. وتقدم المسلمون بعد ذلك يتمون فتحهم، فاستولوا على مدينة سوان دون مقاومة. ثم تركوها الى مدينة سيسام حيث قضوا على مقاومة من بها من الجات (الزط). وفى ذلك الوقت أعد رجاداهر، ملك السند، جيشا ضخما واستعد للدفاع وراء حصن راوار، فما كان من محمد بن القاسم الا أن عبر النهر الى الضفة المقابلة التى يقوم عليها الحصن، ووجدوا أنفسهم يقفون وجها لوجه أمام أكبر جيش اعترضهم منذ وطئت أقدامهم أرض السند. واستمر القتال سجالا أربعة أيام كاملة أظهر فيها المسلمون بسالة منقطعة النظير وقتل داهر وتقدم المسلمون لحصار الحصن واستولوا عليه بعد مقاومة يسيرة. وزحف المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرقين حتى بلغوا مدينة برهماباد، وكان قد فر اليها أبن داهر بعد سقوط راوار، وأقتحم المسلمون المدينة على أهلها بغتة وعنوه فلم يملك ابن داهر الاالفرار وشمالا، مستجيرا بملك كشمير. وأقام محمد بن القاسم بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها: شئون المناطق المفتوحة ونظم ادارتها، وأكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين وأطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا مايفرض عليهم من جزية عن طيب خاطر. وبعد قليل، استأنف محمد بن القاسم جهوده الحربية، فاتجه بجيشه نحو حصن «أرور» وكانت زوجة داهر وابنه قد لجئا اليها واحتميا بها، ولكنهما لم يكادا يسمعان باقتراب الجيش العربى حتى أسرعا بالرحيل وسلمت الحامية الحصن

(١) تعرف ايضا باسم «نيرانكوت» وموقعها حيدر آباد السند الحالية.

دون مقاومة، وكانت الخطوة التالية من خطوات الفتح مدينه «بكستان»، أعظم مدن السند الاعلى وأقوى حصونه، وقد قاومت المدينة مقاومة عنيفة، ولكنها لم تلبث أن خضعت وسلمت وأقبل الاعيان والتجار واصحاب الحرف الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة وأعلنوا، ولاءهم فأمنهم محمد بن القاسم على أنفسهم، وأموالهم. ودل احد البراهمة محمد بن القاسم على مكان خفى بأنه المعابد القريبة كان ملوكهم يود عون فيه أموالهم وكنوزهم فوجد به المال الكثير مماكنه من أن يرد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات الحملة السندية. وكتب ابن القاسم بعد ذلك الى الحجاج يستأذنه فى فتح مملكة قنوج أعظم امارات الهند ولكن الرسل وافته بوفاة الحجاج ثم وفاة الوليد بن عبد الملك من بعده وانتقال الخلافة الى سليمان الذى أرسل يستدعى فاتح السند للقدوم اليه. ولم ينس سليمان أن أخاه (الوليد) قد بذل الجهد الجهيد لعزله من ولاية العهد وحرمانه من تولى الخلافة ليمهد الطريق لتولية ابنه، وكان يؤيده فى هذا المسعى الحجاج ومحمد بن القاسم، ولهذا لم يلبث الخليفة سليمان بن عبد الملك أن صب جام غضبه على محمد بن القاسم وأصدر أمره بعزله عن السند وولى مكانه يزيد بن أبى كبشه فقبض على ابن القاسم وقيده وارسله فى حالة مهينة الى العراق. وحزن أهل السند لما أصاب محمدا واحتفظ أهل الكيرج بصورة كانوا قد رسموها له.

وفتر اهتمام الخلافة من بعد ذلك بأمر الفتوح فى شبه القارة الهندية، اذ كانت بوادر الانحلال والضعف قد بدأت تظهر فى الدولة الاموية. فى حين حرصت الدولة العباسية من بعدها على عدم التوسع الكثير فى الفتح بعد أن عظمت رقعة الدولة الاسلامية وترامت أطرافها. يضاف الى ذلك أن الولايات السندية، فضلا عن جدبها النسبى وضعف خراجها، كانت لاتزال محوطة فى الشمال والشرق بامارات قوية يحكمها الهنادكة، كما كان سكان البلاد

أنفسهم قد طفقوا بدورهم يثورون فى وجه ولاتهم من العرب الذين حادوا فى الغالب عما استنه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية واشاعة العدل والتسامح بينهم. وهكذا شغل أكثر الولاة المسلمين فى السند باقرار الامن والسلام بداخل البلاد وعلى حدودها، فانصرفوا عن التفكير الجدى فى المضى فيما بدأه محمد بن القاسم من الفتوح. وأخذت الاضطرابات تنتشر فى السند حتى قامت بين القبائل العربية نفسها هناك من القيسية واليمنية الذين لم يتركوا أى بقعة حلوا بها فى أراضى الدولة الاسلامية الواسعة، سواء فى أرض الدولة الاسلامية الواسعة، سواء فى أرض الشام أو بلاد الاندلس أو السند، الا واعتركوا فيما بينهم بها. وزاد من تفاقم الاحوال بالسند نفاذ الخوارج والشيعة، والقرامطة اليه، فانكمشت املاك المسلمين هناك من جراء ذلك كله فلم يبق لهم الا المنصورة، والملتان. وقد أنتهى أمر بلاد السند كلها الى استيلاء الغزنويين عليها حين أقبلوا على الهندستان فاتحين أواخر القرن الرابع الهجرى، فكانت فتوحاتهم بداية حقبة جديدة فى تاريخ شبه القارة الهندية كلها، أصحابها من المجاهدين المسلمين ولكن ليسوا من العرب.

ويمكننا فى هذه المرحلة أن نحدد النتائج الاساسية للفتح العربى للسند فيما يلى:

أولاً: لقد وفد على السند أفخاذ من القبائل العربية، التى كان قوام جيش الفتوح فى الغالب منهم، فاستوطنوا هذه البلاد ثم اصهروا الى أهلها ممايعد دليل على مافعل أفخاذ أخرى لهم بأغلب البلاد التى فتحوها.

ثانياً: شاركت القبائل العربية مشاركة ناجحة فى نشر تعاليم الدعوة الاسلامية والعربية، لغة وكتابة، بين السنديين بفضل من صاحب حكامهم وأمراءهم من علماء المسلمين أمثال الربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تدوينا للحديث فلم يمض بضع عشرات من السنين على

فتح السند حتى طفقت أفواج من أهله تترى تشارك فى بناء الثقافة الاسلامية والغربية وتبرز فى ميادينها. فكان منهم علماء فى الحديث، واللغة والادب مثل ابى معشر نجيح السندى المحدث صاحب المغازى، وابن الاعرابى وأبى عطاء السندى المخضرم الشاعر وأبو اليزيد طيغور بن عيسى البسطامى المتصوف.

ثالثاً: اذا كان الفتح العربى للسند من الناحية السياسية حدثا لاأهمية له فى التاريخ الاسلامى الا أنه صير هذه البلاد جزءا من الدولة الاسلامية تخضع لنظامها وتجرى عليه أحكامها. وكان للعرب أكبر الفضل فى اعادة الاتصال الثقافى بين القارة الهندية وبلاد الشرقين الاوسط والادنى.

رابعاً: جنى العرب بدورهم من فتحهم هذا كسبا عظيما للثقافة الاسلامية. فعندما قدموا هذا البلاد واختلطوا بأهلها، وجدوا عندهم من فنون المعرفة وألوان الحضارة مايبهرهم فالفلسفة الهندية، وفروعها من الفلك والطب والرياضيات، كانت قد بلغت من الرقى شأوا بعيدا وغدت تزخر بنظرياتها وقوانينها ومبادئها، وكذلك، الفنون على اختلاف ضروبها والدراسات الدينية لاسيما ما كان منها خاصا بعلم الكلام والتصوف.

ويقول أ.ب. هافيل (E.B. Havell) «ان المسلمين مدينون للهنادكة أولا، لالليونان، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة الجديدة فى فجا حياتهم سواء فى الفلسفة أو فى الرياضيات أو الفلك أو الطب، وقد طلبوها من بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم واشتد شغفهم بها»[1]. ومما يؤيد رأيه هذا أن أول كتب الفلك والرياضيات حملت الى بلاط الخلافة وكان ذلك أيام المنصور العباسى، هى كتاب أبرهما سد

(1) The History of Aryan Rule in Indian, PP. 254-56.

هانتا «المؤلفة العالم برهميكيت وتذكره الكتب العربية باسم كتاب «السند هند»، وهو أقدم الرسائل الفلكية على الاطلاق اذ يرجع تاريخ تأليفه الى عام ٤٢٥ ق.م، وكتاب «هند كهاديكا» المعروف باسم «أزكند»، ثم كتاب «آر - بهت» المعروف باسم «أرجهد» أعظم الفلكيين، والرياضيين الهنود، ومن أول هذه الكتب يعتقد أن العرب تعلموا الارقام الحسابية، والنظام العشرى. وقد نقلت هذه الكتب الفلكية والرياضية مع طائفة أخرى من الكتب الطبية الى العربية ببغداد فى منتصف القرن الثانى الهجرى بمشاركة علماء من المسلمين واشرافهم من أمثال ابراهيم بن حبيب الغزارى وابى الحسن الاهوازى، ويعقوب بن طارق - ويشيد الجاحظ، علامة العرب، بذكر الهند فى بيانه فيقول «أنما الامم المذكورة من جميع الناس أربع: العرب وفارس والهند والروم».

لم يكن فتح العرب للسند، أواخر القرن الاول الهجرى، الا احتلالا لولاية واحدة، فى أقصى الغرب، لاهى بالواسعة الرقعة ولابذات الموارد الغنية والارض الخصبة، وبدأ الفتح الاسلامى لهذه البلاد فى أوسع مداه، حين شرع الغزنويين الاتراك أواخر القرن الرابع الهجرى، يطرقون أبواب شبه القارة الهندية، ويتوغلون فيها، بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت غزنه وسيستان ولمغان وخراسان وأغلب بلاد ماوراء النهر. وتعد فتوح الغزنويين الهندية بداية فتح المسلمين الحقيقى لشبه القارة الهندية، ذلك الفتح سرعان ما انتهى بالفاتحين الى أتخاذهم من هذه البلاد مقاماً دائما لهم. ومؤسس الدولة الغزنوية التى أقتحم اصحابها الهند هو سبكتكين، وكان غلاما لألبتكين صاحب غزنه، جلب من تركستان الى بخارى فنيسابور ثم خلف سيده عليها عام ٣٦٧هـ/ ٩٦٦م. واتصف سبكتكين هذا بالطموح وقوة العزيمة فأفلح فى توحيد صفوف الاتراك والافغان فى أمارته وسيرهم لفتح

لمغان وسيستان وخراسان ثم استداربهم من بعد ذلك واندفع عبر مسالك الهندكوش الوعرة ينبغى الجهاد بغزو بلاد الهنادكة. ولئن لم تكن حروب سبكتكين الهندية هذه الامجرد غزوات، فهى التى مهدت سبيل الفتح امام جيوش المسلمين فيما بعد على كل حال.

وعندما توفى سبكتكين عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م خلفه ابنه محمود الذى ورث ملك السا مانيين كله فى خراسان وبلاد ماوراء النهر، كما قضى على سلطان البويهيين فى الرى، وهزم السلاجقة والقوا خانيين، وتوغل فى بلاد فارس، وملك اقليم قزوين كما فتح بلاد الغور فى الهندكوش، فيما بين غزنه وهراة، ونشر الاسلام بين اهلها على نطاق واسع لأول مرة.

وهكذا امتد سلطان محمود الى آفاق بعيدة، وذاع صيته فى انحاء بلاد المسلمين. وما لبث هذا الأمير المحارب ان ولى وجهه شطر الهندستان، التى رأى فيها ميدان الجهاد الاكبر فغزاها سبع عشرة مرة فى مدى سبعة وعشرين عاما، فيما بين عامى ٣٩١هـ/١٠٠٠م و٤١٧هـ / ١٠٢٦م. حتى خضع له شمال شبه القارة الهندية من بنارس الى غزنة ومن الهملايا الى الدكن ومن المعروف ان الهند لم تكن غريبة على محمود، فقد سبق له ان شارك والده فى غزواته لها من قبل ممايسر له الاطلاع على احوالها والوقوف على قدر غير قليل من اساليب القتال عند اهلها. وفى عام ٤٢١هـ/١٠٣٠م، توفى محمود، وقد اتخذ ابنه مسعود «لاهور» مقرا لحكمه، وتوالى على حكم الهند ابناؤه واحفاده الى ان انتهت الأسرة الغزنوية عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م.
واذا كانت فكرة الجهاد التى تسلطت على محمود هى التى دفعت بهم الى توالى غزوهم للهند، وهذا بالاضافة الى ما كان لكنوز هذه البلاد وثرائها الطائل من اغراء، فقد كان من العوامل البارزة التى ساعدت على انتظارهم كذلك ما كان يغلب عل الامراء الهنادكة من تحلل اجتماعى جعلهم ابدا

يقدمون مصالحهم الخاصة ومآربهم الشخصية على كل شئ فلايبغون عنها حولا، ولا حتى بقدر ضئيل، فى سبيل امهم الكبرى. وهكذا كانت الثقة والتماسك والتعاون لاوجود لها بينهم، فلم تغن بذلك كثرتهم البالغة عنهم شيئا امام الغزاة الذين كانوا على قلة عددهم مجتمعين على اخلاص تام لهدفهم فى تعاون ونظام وثيق محكم. ويتحدث المؤرخ الهندوكى براساد (Prasad) عن محمود الغزنوى فى كتابه (Medieval India pp. 71-77) فيقول: ان محمودا ليعد فى نظر المسلمين حتى اليوم غازيا ومجاهدا كبيرا اخذ على نفسه القضاء على الشرك فى مهاد الوثنية. وهو في نفس الوقت عند الهنادكة طاغية مخرب حطم مدنهم ودمر معابدهم واذى شعورهم الدينى فى كثير. ولكن المؤرخ المنصف حين لايسقط من حماية تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه، وسماته واعتباراته، لايسعه الا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من خيرة القادة والزعماء وحاكما حازما وجنديا عبقريا من الطراز الأول، أتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم فهو جدير بأن يعد من بين اعاظم الملوك طراً».

وبانتهاء حكم الأسرة الغزنوية توالت على بلاد الهند دول اسلامية كثيرة. فقد ورثت الدولة الغوريه، الدولة الغزنوية، واستمرت الدولة الغورية قائمة حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى عندما استبد «المماليك» بالحكم لمدة تقرب من القرن، (١٢٠٦ - ١٢٩٠) حتى خلفهم الامراء الخلجيين[١] (١٢٩٠

---

(١) يرى بعض المؤرخين أن الخلجيين ينتسبو الى الترك، بينما يرى البعض الاخر انهم ينتسبون الى قليج خان، أحد اصهار جنكيزخان. أيا ماكان الامر فان الخلجيين قد تأثروا بالبيئة التى عاشوا فيها،

- ١٣٢١) واعقبهم دولة ال تغلق (١٣٢١-١٤١٢)[1]. وفى عهد السلطان محمود - آخر سلاطين هذه الاسرة - وقعت غزوة تيمورلنك للهند، ولم تلبث دلهى أن سقطت فى يد احد القواد التيموريين عام ١٤٠٠. وكان الغزو التيمورى، بلاجدال، العامل الاكبر الذى أدى الى تفكك هذه الدولة. وظهرت فى دلهى أسرة السادات على يد خضر خان نائب التيموريين واستمرت هذه الاسرة فى الحكم (١٤١٤ - ١٤٤٨) حتى ورثهم اللدهيون الافغان. وفى الواقع لم يكن خضر خان غريبا عن الهندستان او فى أصله رجلا من رجالات تيمور، فقد نشأ عند ناصر الملك مروان أمير الملتان، ثم مالبث فيروز تغلق ان اقامه عليها بعد موت سيده. وعندما شاهد الاضطرابات فى الدولة عقب موت فيروز تغلق سقطت الملتان وأميرها، لكن خضر خان هرب بعد ذلك إلى تيمور لنك حين غزا هذه البلاد، فرضى عنه ونصبه عند رحيله نائبا له هناك. حافظ صاحب دلهى الجديد على ولائه الاسمى لتيمور واولاده فى الهند، فكان يجرى الخطبة له ثم باسمه، وكذلك فعل بالسكة، كما لم يفته كذلك أن يبعث بين الفينه والفينه بقدر من المال والهدايا الى أصحاب سمرقند.

وهكذا أدت غزوة تيمورلنك الى اضعاف كيان الدولة الاسلامية فى الهند التى انفصل عنها أغلب ولاياتها الكبرى انفصالا تاما، وأعلن أصحابها استقلالهم بها، ولم ينجح سلاطين دلهى فى بسط نفوذهم على هذه الولايات عموما من جديد الا فى عصر الدولة المغولية التى أقامها احفاد يتمورلنك نفسه بالهندستان فى القرن السادس عشر. وفيما يلى بيان بهذه الولايات او الامارات المستقلة.

(١) مؤسس هذه الاسرة هو السلطان غياث الدين تغلق، تركى الاب من قوم جفتاى من البنجاب، بدأ حياته جنديا بسيطا فظل يرتقى بجده واجتهاده حتى بلغ مرتين ومالبث ان جسده ابان حكم السلطان علاء الدين الخليجى حين ساهم بجهود بارزه فى دفع المغول عن الحدود الغربية.

١ - جونيور:

هو اقليم واسع كبير يقع الى الجنوب الشرقى من دلهى، وكانت من اعظم المراكز الاسلامية وساعد على قيام هذه النهضة طائفة كبيرة من العلماء كانوا قد لجئوا الى هذه البلاد هربا من وجه الغزو التيمورى فلقوا بها كل ترحيب واكرام وقد استقلت هذه الامارة عن دلهى ثم استولى عليها اللودهيون الافغان.

٢ - البنغال:

يعد هذا الاقليم من أخصب مناطق الهندستان الشرقية وأغناها وفى مطلع القرن السادس عشر صارت هذه الإمارية من أقوى الإمارات الهندية وأعزها جانبا وقد استقل بها حسين شاه الذى يقال بأنه دعا الى دين جديد يجمع بين عقائد الهندوكيين والمسلمين الذين انتشروا فى البلاد وتولوا الحكم فيها. وخلف الامراء الافغان هذه الاسرة الحسينية بهذه الامارة حتى انتزعها السلطان أكبر من أيديهم أواخر القرن السادس عشر.

٣ - الكجرات:

تعد هذه الامارة ثانى امارات الهند الاسلامية بعد دلهى، وباب التجارة الهندية الغربية منذ القدم ومنفذها الى افريقية واسيا. وكان اول من اقتحم، الكجرات من امراء المسلمين محمود الغزنوى وحطم معبد سومنات أحد مقدسات الهنادكة العظمى، ولكن سلطان المسلمين لم يرسخ فيها الاعلى ايدى علاء الدين الخليجى عام ٦٩٧هـ/١٢٩٧م. وقد أعلن مظفرخان، حاكم هذا الاقليم من قبل سلطنة دلهى، استقلالة به عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م وذلك على أثر الغزو التيمورى للهندستان وظلت الكجرات على هذا الوضع حتى ضمها أكبر، ثالث سلاطين المغول وأعظمهم الى ملكه عام ٩٨٠هـ/١٥٧٢م.

٤ – مالوة:

وتقع شرقى اقليم الكجرات، وكان علاء الدين الخلجى اول سلطان، مسلم ضمها الى ملكه. وانتهز اميرها لاورخان الغورى، وكان من رجال فيروزتغلق فرصة الفرضى التى عمت البلاد عقب الغزو التيمورى فأعلن عام ٨٠٣هـ/١٤٠١م، استقلاله بها، وأتخذ من مدينة دهر حاضرة له، وخلفه أبنه ألب خان (الملقب بهوشتك شاه) عام ٨٠٧هـ فنقل حكومته الى ماندو التى زخرت بجملة من المنشآت، الضخمة فى عصره. وشجع خصب اراضى مالوه السماع حكام دلهى وجونيور والكجرات وكانت جميعا تجاورها. وعندما منى هوشنك شاه بهزيمة شديدة فى حروبه مع الكجرات خلفه على العرض ابنه غازى خان الذى غلبه وزيره محمود الخلجى على امره فقتله وحل مكانه ولما ضعف شان خلفاء محمود الخنجى من بعده بانصرافهم عن الاهتمام بشئون الدولة انتزع البلاد منهم اخرا الاربهادرخان صاحب الكجرات عام ١٥٣١/٩٣٧م. ليستخلصها همايون، ثانى سلاطين المغول، لنفسه منه بعد ذلك بسنوات اربع.

٥ – خاندش:

أنسلخت هذه الامارة عن دلهى، وتقع الى الجنوب من مالوه فيما بين تلال الوندهايا والدكن. وقد شجع ثراء الاقليم وخصب اراضيه حاكمه ملك راجا فاروقى على الاستقلال به اقتداء بدلاور خان الغورى امير مالوه. وعندما ضعف خلفاء راجا فاروقى خضعت حاندش لنفوذ سلاطين الكجرات لاسيما فى عهد السلطان محمود بيكر المكجراتى، ثم ضم سلطان المغول اكبر هذه الامارة الى ملكه عام ١٠١٠هـ/١٦٠١م

٦- الدكن:

لم يتمكن احد من سلاطين دلهي منذوفاة محمد تغلق ان يبسط نفوذه الى ماوراء تلال الوندهايا جنوبا، فقد تزعم امير يدعى علاء الدين كانكوى (جنجو ظغرخان حركة اضطربات واسعة فى الدكن، فاعلن خروجه على سلطان دلهى وبسط نفوذه على كافة اقاليم الدكن التى كان كل من علاء الدين الخلجى ومحمد تغلق قد انتزعاها من الامراء الهنادكة فى الهضبة الهندية الوسطى والسهل الجنوبى واصبحت بلاده تعرف باسم سلطنة «بهمنى» نسبة الى جد له كان يدعى هو بهمن ابن اسغنديا احد ملوك الفرس الاقدمين (موقعهما اليوم وهو اقليم بومباى وولاية حيدر أباد الدكنية). وبلغت بلادهم اوج قوتها بفضل وزيرهم محمود جوان الذى كان اول من انزل هزيمة ساحقة براجا امارة «فيايانكر» الهندية. وبعد وفاة الوزير محمود جوان بعامين انفرط عقد سلطنة بهمنى تدريجيا حتى اذا ما اطل عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م اسدل الستار نهائيا على هذه الدولة التى عمرت قرابة قرنين من الزمان فقسمت اراضيها الى خمس ممالك اسلامية مستقلة متحاربة على الدوام هى برار وبيجابور واحمد نكر وغولكونده وبدر[١].

وهكذا كانت الهند مفككة الى عدة دول متجاورة متقاتلة، ولكن من الممكن القول ان التفوق الاسلامى كان حاسما فى الشمال ووسط الهند، اما الهندوكية فقد ارتكزت على معاملتها العسكرية والسياسية فى الجنوب. ويمكن القول ايضا ان مطلع القرن الخامس عشر كان يشير الى حاجة المناطق الشمالية والوسطى الى حكومة قوية تستطيع ان توقف الصراعات المحلية، وتبلور الموقف فى الشمال ليصبح فيه دولة لودهية افغانية واخرى

(١) استقلت برار فى عام ١٤٨٤، وبيجابرو فى عام ١٤٨٩، واحمد نكخر فى عام ١٤٩٨ وغولكونده فى عام ١٥١٨ وبدر فى عام ١٥٢٦.

كجراتية (اسلامية) فى الشمال الغربى وكانت بداية الدولة اللودهية لاتبشر بقدرتها على خلق حكومة قوية يكون لها اليد العليا فى حكم البلاد، بل لقد استشرت الصراعات بين رجال الاسرة الحاكمة اللودهية نفسها فكانت فرصة واسعة امام الامراء الاقطاعيين ليتخففوا من اعباء التبعية للاسرة اللودهية، واعلنوا الثورة عليها. فكانت هذه الظروف هى التى مهدت الطريق امام بابر، صاحب غزنه، ليندفع بجيوشه الى سهول الهند ليستولى على دلهى، وليؤسس امبراطورية مغولية حضارية فى الهند.

ونتيجة لهذه الفتوحات كلها انتشر الدين الاسلامى فى جميعا انحاء الهند، ولكن من الملاحظ ان هناك عاملا آخر كان اكثر تأثيرا فى انتشار الاسلام فى الهند، وهو سبيل الدعوة الدينية السلمية التى سارت مع ركب الحياة وتطورها. فعن طريق التجار واتصالاتهم، وعن طريق الفقهاء أو الوعاظ ودورسهم، وعن طريق العلماء والمتصرفة ورحلاتهم ومدارسهم انتشر الاسلام بين الهنود. وهؤلاء جميعا كانوا فى معظمهم من العرب او المثقفين بالثقافة العربية، فى حين ان الفتوح الاسلامية - باستثناء الفتح الاول الذى قاده محمد بن القاسم - قامت بها جيوش وعناصر غير عربية من الترك والفرس والمغول.

وهذه نقطة جوهرية تتخد اساسا لدراسة الاسلام فى الهند، فإن معظم هذه الجيوش والعناصر والدول التركية والمغولية كانت فى معظمها حديثة عهد باعتناق الاسلام وقد نقلت معها الثقافة الفارسية ومظاهر الحياة التركية والفارسية والمغولية، ولهذا انتشرت فى المجتمع الاسلامى بالهند الفارسية لغة الثقافة فى ذلك العصر، واللغة الأوردية[1]. ولم تنتشر اللغة العربية، وبالتالى

(١) أعظم لغات شبه القارة الهندية وهى لغة آرية وضع قواعدها ونحوها علماء المسلمين وكلمة «اوردو» معناها العسكر، والمقصود هنا معسكر اسرى المغول والترك والمسلمين حول دهلى حيث نشأت هذه اللغة فبدأت بالظهور فى القرن العاشر الهجرى. والفاظها مزيج من العربية والفارسية =

لم تزدهر الثقافة العربية فى الهند ازدهارها فى الاقاليم والدول الاسلامية الأخرى، وساعد على هذا ان معظم العلماء والشيوخ الذين وفدوا على الهند كانوا من علماء ما وراء النهر، وهؤلاء كانوا من اتباع مذهب ابى حنيفة يعتمدون على كتب المتأخرين من فقهاء هذا المذهب، كما كانوا شغوفين بعلوم اليونان القديمة، ولغتهم الثقافية الاثيرة لديهم هى اللغة الفارسية ولهذا اصطبغت الثقافة الاسلامية فى الهند بهذه الصفات الثلاث، ولم تقم على اسس سليمة قوية من الثقافة العربية. ولايعنى هذا ان الهنود لم يعرفوا اللغة او المؤلفات العربية بل لقد عرفوها وانتشرت بينهم وتعلمها الكثيرون منهم وألفوا بها. ولكن مانعنيه هنا انها كانت أقل انتشارا وتأثيرا فى المجتمع الاسلامى فى الهند اذا قورنت بالثقافتين الفارسية والتركية المغولية.

٢- امبرطورية المغول الاسلامية فى الهند:

قامت الدولة المغولية بشبه القارة الهندية فى القرن السادس عشر، فوصلت بالحكم الاسلامى فى هذه البلاد الى ارقى صوره، وبنفوذ المسلمين الى اوسع مداه، وبالعقيدة الإسلامية إلى اقصى درجاتها من الذيوع والانتشار. فقد تمكنت هذه الدولة من تحويل ملايين عديدة من اهل الهند عن معتقداتهم القديمة الى دين المسلمين، وعن فنونهم ولغاتهم ورسومهم الى فنون المسلمين ولغاتهم ورسومهم. وقد عاصرت هذه الدولة، اول نشأتها، دولتين اسلاميتين فتيتين كبيرتين هما: الدولة الصفوية الشيعية فى فارس والدولة العثمانية السنيه. وكانت الدولة المغولية - موضوع هذه الدراسة - احدث هذه الدول جميعا، وكان اصحابها من اصلاب المغول والترك الذين انزلوا الخراب والدمار بكثير من بلاد العالم الإسلامى. ولايكاد انسان فى المشرق

≠ والتركية السنسكريتية. وهى فى قواعدها آرية خالصة وتكتب بالحروف العربية مع الاضافات الفارسية وهى اليوم لغة باكستان الاولى. اما اللغة السنسكريتية فهى اشهر لغات الهند الارية القديمة واعرقها، وهى اليوم لغة جمهورية الهند الحديثة.

الإسلامي يسمع كلمة مغول حتى تقفز الى ذهنه صورة من المعارك الدموية الرهيبة التى كانت تنتهى باهرامات تبنى من جماجم القتلى عند قدمى خانات المغول وقوادهم غير أن هذه - الصورة المفزعة قد حجبت عن اهل الشرق صورة رائعة من صور الحضارة المغولية التركية عاشت زهاء خمسة قرون ونصف، ونقصد بذلك الدولة المغولية فى الهند. لقد انقلب ابناء واحفاد تيمورلنك وجنكيز خان، بفعل الحضارة الإسلامية ودخولهم فى الاسلام الى بنائين للمدنيات، وعملوا على تآلف سكان الهند واتحاد شعوبها لتقوى بهم دولتهم وترسخ أسسها. وظلت هذه الدولة المغولية تحكم الهند اكثر من ثلاثة قرون حتى انتزعها البريطانيون منها فى منتصف القرن التاسع عشر.

يعتبر بابر (١٥٢٦-١٥٣٠) من عظماء التاريخ الاسلامى بصفة عامة، وتاريخ الهند بصفة خاصة، فهو مؤسس دولة المغول فى الهند، وبابر، اوببر، هو الاسم الذى اشتهربه، وهو يعنى «النمر» واما اسمه الحقيقى فهو ظهير الدين محمد بن عمر شيخ ميرزا. وانحدر من ناحية الاب من سلالة تيمورلنك وكذلك من سلالة الفاتح المغولى الشهير بجنكيز خان. ولد بابر فى عام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م، وقد توفى عنه ابوه صغيراً ليصبح على عرش فرغانة مهيض الجناح بين عدد كبير من الطامعين فى عرشه. وانقشع عن السلطان الفتى بابر اكبر خطر كان يتهدده بموت عميه احمد ميرزا ومحمود ميرزا حاكمى سمرقند، ويتطلعان الى السيطرة على فرغانة. واستطاع بابر بعد ذلك ان يستولى على سمرقند، عاصمة وسط آسيا وحاضرة التيموريين. وهناك اقلم نفسه على عرش جده الاكبر تيمور ولم يكن قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره. وفى ملكه الجديد اعتراه مرض فاستغل وزيره الطموح فرصة غيابه ومرضه واقام على عرش فرغانة جها نجير الاخ الاصغر لبابر، مشيعا ان بابر قد مات.

وبعد شفاء بابر من مرضه اسرع بالخروج من سمرقند متجها نحو فرغانة لاستعادتها ولكن لم يكد يغادر سمرقند حتى استولى عليها ابن عم له يدعى علي. وبذلك فقد ملكه هنا وهناك ولم يبق تحت يده فى هذا العام (١٤٩٨) غير مدينة خوقند، وهى مدينة صغيرة فى الطريق بين فرغانة وسمرقند. ولكنه تمكن من استعادة فرغانة فى عام ١٤٩٩ وسمرقند فى السنة التالية، غير ان قبائل الاوزبك[1]. لم تدعه يباشر حكمه فى سلام ولم يلبث ان هزم امامهم فى معركة عنيفة عند ارشيان فى عام ١٥٠١ ونجا بحياته بصعوبة بالغة. وبذلك فقد ملكه ثانية فى كل من سمرقند وفرغانة. وعندئذ ودع بابر وطنه الحبيب فرغانة، وبدأ يحاول تكوين ملك جديد وراء جبال هندكوش ويعتبر عام ١٥٠٤ عاما سعيدا فى حياة بابر، ففى هذا العام تمكن من هزيمة الافغان والاستيلاء على مدينة كابل، وبذلك فتح له الطريق للاستيلاء على مدن افغانستان الكبيرة الاخرى قندهار وهرات وبدخشان. وأصبحت هذه البلاد بالنسبة له بمثابة قاعدة أكثر ثباتا وقوة يستطيع أن يعتمد عليها فى صد القرى المحيطه به، بل التطلع الى التوسع فى اتجاه الهند. لاعلى اعتبار أنها أرض جديدة يريد الاستحواذ عليها، وانما على أساس أنه هو وريثها اذ كانت من قبل للتيموريين. فقام بحملات الى داخل الهند وتمكن من ان يضع يده على بعض الاقاليم وخاصة «بهيرة» فى عام ١٥١٩.

وكانت امور الهند الداخلية تغرى بابر بمتابعة الفتح والتوسع فيها. ففى مطلع القرن السادس عشر كانت أسرة اللودهى التى حكمت الهند تعانى من اضطراب شديد وتقوى الهندوكيون وكونوا جبهة قوية ضد الدولة اللودهية.

(١) كلمة أوزبك تعنى «سيد نفسه» (أى المستقل). وكان الاوزبك جماعة من الرحالة تموج فى المناطق الشمالية الشرقية من بلاد فارس، وكانت وثنية لم اعتنقت الاسلام. ونظرا لتفكك هذه القبائل لم يكن لها تاريخ واضح حتى اذا ما استطاع محمد الشيبانى ان يسيطر على قسم كبير منها، فى نهايه القرن الخامس عشر، برزت هذه القبائل فى تاريخ المنطقه.

وتوجهات أخرى إنسانية . ونستطيع أن نتبين بداية منحاه الصوفى فى مثل هذه الأبيات من ديوان « أقول لكم » ١٩٦١ .

ذاتَ صباحٍ أشرَقَتْ لى حَقيقةُ الحياةْ

والبيت ضمن قصيدة طويلة ذات ثمانية أقسام ، تحمل ثمانية عناوين مختلفة ، فى القسم الخامس منها أبيات تحت عنوان القديس . وكلها موضوعات تدور حول الإنسان ، ومعظمها تأملات نفسية روحية أشبه بالمونولوج الداخلى ، أى حديث النفس للنفس ، الجسد لرؤية نفسية أو موقف تأملى يطرح فيه الشاعر ألوانا من الرؤى التأملية الروحية عن الحياة والإنسان . يقول فى مطلع القسم الخامس المسمى « بالقديس »

إلَىَّ .. إلَىَّ ، يا غرباءُ ، يا فقراءُ ، يا مَرْضَى

كسيرى القَلْبِ والأعضاءِ ، قد أنزلتُ مائدتى

إلَىَّ .. إلَىَّ ،

لنطعم كسرةً من حكمة الأجيالِ مغموسة

بطيش زماننا الممراحْ

تكَسَّرُ ، ثُم نَشْكُرُ قلبنَا الهادى

ليرسينا علَى شطِّ اليقينِ ، فقد أضَلَّ العقلُ مَسْرَانا

ويظل فى رحلة الكشف هذه إلى أن يقول :

وذاتَ صباح

رأيتُ حقيقةَ الدُّنيا

سمعتُ النجم والأمواهَ والأزهار موسيقى

رأيتُ اللهَ فى قَلْبى

السيف، وهى بلاد أجداده. وكانت مشاعر الامراء اشد سخطا على سلطانهم اللودهى السابق. لقد كان اللود هى ضعيفا اذا قيس بهذا الغازى العملاق القاسى الطباع. ولهذا امتشق الامراء الافغانيون السيف، وكانوا فى قتالهم للجيش المغولى على بأس شديد وكانت دقة معرفتهم للبلاد ومسالكها من الامور التى اعانتهم على القتال لمدة طويلة.

ولما قام الامراء الراجبوت (الهندوكيين) بجمع صفوفهم ضد هذا الغازى الكبير، آثر بابرأن يترك امر هؤلاء الافغانيين مؤقتا، ليركز جهوده ضد الراجبوت وزعيمهم «رانا سنكا» الذى كان يسيطر على معظم الوسط والجنوب. وأصبحت المعركة المقبلة بين اكبر قوتين فى الهند، كل منهما يدعى انه صاحب البلاد. وكانت جبهة الراجبوت قوية وكانوا يعتقدون ان قوة الغازى الجديد ليست بقادرة على ان تفرض نفسها على البلاد كلها، واقل من ان تصمد امام العسكرية الراجبوتية المشهورة ولكن الراجبوت كانوا من تراث الماضى، ويعتمدون على أساليب الحرب والقتال التقليدية، بينما كان بابر اوسع افقا واكثر من استخدام الاسلحة النارية التى كانت العامل الحاسم فى كسب معركة «يانى يت» من قبل.

ولكى يقوض الراجبوت ادعاء بابر بحقه فى الملك والارض، ظلوا وراء الامراء الافغانيين حتى اقنعوهم بالتحالف معهم ضد المغتصب، وايدوهم فى ان يتولى السلطنة واحد من الاسرة اللودهية، وليس مغامرا وفد من خارج البلاد. وفعلا اعلنوا محمود خان سلطانا على البلاد، وامتشقوا الحسام باسم اعادة صاحب الحق الشرعى الى عرشه فى اجرا. وهكذا كان الخطر كبيرا على بابر وكانت القوات التى تحت يده قادرة على الصمود فترة، ولكن ليس على حرب طويلة الامكان. ومن ثم كان عليه ان يخوض معركة يكسر فيها اعداءه كسرة لاقيامه لهم من بعدها، والاتعرض لسلسلة من الحروب لايعرف

كيف تنتهى. ولما كان من الضرورى رفع معنويات جنده الى درجة الاستماتة فى القتال، لجأ بابر الى العامل الدينى ليصبح الدافع القوى الذى يحث جنده على القتال دون رهبة من الموت بل رغبة فى اعلاء كلمة الله. كان بابر مؤمنا بالله، ولكنه كان مكيرا وكان قواده على شاكلته. وحيث انه كان فى حاجة الى الفكر الدينى الخالص لكى يلقى فى روع جنده انه مقبل على حرب جهاد فى سبيل الله، وحيث انه كان فى حاجة الى نفوس متطهرة من كل الأثام لكى يضعها على مستوى المسئولية الدينية ضرب هو المثل اولا فى التخلص من كل ما يتعارض مع الايمان الكامل واقسم ليتركن الشراب وليحطمن الكئوس وليغفر الله عما سلف وخاصة ان التوبة ستعقبها تضحية بالنفس فى جهاد الوثنيين (الهندوكيين).

وهكذا عبأ بابر جيشه وأعده للمعركة الحاسمة. واستطاع ان يخوض المعركة وهو واثق من صلابه جيشه وقدرته على احراز النصر وأنتزاعه من يد الراجبوت. فلقد كان بابر يدرك ان الراجبوت ليسوا بالعدو السهل المنال وللتغلب عليه ينبغى ان تبذل كافة الجهود ضده. وفى معركة «خانواه» (٩٣٣هـ/١٥٢٧م)، وهى من اعنف المعارك التى دارت فى القرن السادس عشر انتصر بابر اروع انتصار. ولم تقم لاللراجبوت ولاللافغانيين قائمة فى الهند لمدة طويلة. حقيقة بقى هناك من ظل متمسكا من الامراء الهندوكيين ومن الامراء الافغانيين بقلاعهم وحصونهم وبعض اقطاعاتهم ولكنهم لم يعودوا قوة كبيرة قادرة على اقتلاع الدولة المغولية التى ثبتت اقدامها بعد «خانواه». ولئن مكن لبابر انتصاره عند «يانى يت» من الجلوس على عرش آجرا فقد تم له فى معركة «خانواه» القضاء التام على الخطر الراجبوتى الذى ظل يتهدد سلطان المسلمين بالهند قرونا كثيرة فلم تقم لهم قائمة من بعد ذلك أبدا. وبهذا النصر الذى لم يؤته احد من سلاطين الهند المسلمين منذ

ايام محمود الغزنوى ومحمد الغورى، طار صيت بابر وازدادت هيبته بين المسلمين فى الهند وتواحد مركزه على عرش أجرا وارسخ الاساس الذى قامت عليه الدولة المغولية فلم يعد يحارب دفاعا عن عرشه وتثبيتا له فصار خروجه لتوسيع رقعة ملكه وبسط نفوذه وسلطانه فى الغالب.

وهكذا اصبح لبابر ملك عريض، وطفق يعمل لبناء دولة اسلامية قوية. لقد حكم بابر كبادشاه اوكسيد للهند مدة تقل عن الخمس سنوات ولكن حكمه امتاز بالنشاط والحزم والعزم وهى الصفات التى امتاز بها فى نضاله الحربى فقد جعل من عاصمته اجرا مدينة جميلة تتخللها الحدائق النضرة والقصور الفخمة والحمامات والصهاريج والقنوات المائية. واصدر بابر اوامره بترميم المساجد واقام المحارس ومراكز البريد على مسافات متساوية وانشأ نظاما لنقل البريد السريع بين كابل واجرا وكان ينتقل خلال ملكه الجديد فى الهند ليتفقد احواله بنفسه فجذب بذلك قلوب رعاياه من الهنود وبدأوا يطمئنون لحكمه.

وكان نظام الحكم الذى اتبعه بابر هو النظام السائد فى عصره مع ادخال بعض النظم التيمورية. فجعل على كل اقليم نائبين له يقود احدهما الجند ويراقب جمع الضرائب ويرعى مصالح السكان ويتولى الآخر الإشراف على الايرادات والمصروفات ويوازن بينهما ويدفع للجند والعمال اجورهم. كذلك كان من مبادئ التيموريين التى ساروا عليها بالهند الايتراخى العمال فى جمع الخراج والمكوس دون الحاق الأذى بالناس وحض نوابهم على اجراء العدل بين السكان جميعا لايفرقون فى ذلك بين مسلم وهندوكى. على ان بعثرة بابر لما وقع بأيديه من اموال طائلة وكنوز باجرا وما ذهب اليه من بذخ فى العطاء والبذل حتى اطلق عليه اصحابه لفظة «قلندرى»[1]، ثم رفعه

(١) قيل ان «قلندر» كان صاحب طريقة تدعو الى الزهد فى المال والنساء والقلندرى هو الزاهد من حكام الدنيا حتى ليجود بكل ماتصل اليه يده.

التمغة عن رعاياه قبيل حرب «راناسنكا» ادى ذلك كله الى اضطراب ماليته فذهب يفرض على الناس الضرائب من جديد.

وقد خلف بابر ثروة ادبية فى الشعر والنثر ضمنت له شهرة الاديب المطبوع الى جانب صيت الجندى الموهوب. وفضلا عما حوته سيرته بين دفتيها من شعر تركى كثير كان ينشده فى مناسباته فقد ترك ديوانا له بالتركية واشعارا اخرى كثيرة فارسية واصواتا فى الغناء والموسيقى. وتعد سيرته المعروفة باسم «بابرنامة» اعظم آثاره الادبية على الاطلاق وهى كتاب النثر التركى التقليدى بحق حتى اليوم. وقد كتبها بنفسه فى لغة تركية (جغتائية) سهلة واسلوب يدل على ذوق ادبى رفيع وينم عن تمكن صاحبه من اصول الثقافة الاسلامية واداب العربية والفارسية تمكنا تاما. وأغلب الظن ان الاجل لو كان قد امتد به لنقح فيها كثيراً ولصاغ الاخيرة على الخصوص فى اسلوب يتمشى مع رصانة الاسلوب فى أقسامها الاولى فلاتبقى اشبه بيوميات تبعث الملل عند قارئها. وقد نقلت هذه السيرة الى الفارسية فى عهد اكبر حفيد بابر فى نهاية القرن العاشر الهجرى (السادس عشر الميلادى) كما نقلت الى بعض اللغات الاوروبية فى العصر الحديث. وادى ببابر سعة اطلاعه التى تشيع فى سيرته الى اقتناء مكتبه قيمة خاصة به كان عليها قيم له يدعى عبد الله كتا بدار وقد ضم اليها كذلك قسما من كتبة غازى خان لودهى حين استولى على حصنه بالبينجاب وبعث بالقسم الآخر الى ابنه همايون الذى كان يحرص على تنشئته تنشئة طيبة. وقد خلدت «بابرنامة» ذكر صاحبها فى عالم الادب والتاريخ كما خلدته حروبه وفتوحاته فى عالم الغزاة والمحاربين.

وتبين وصيته السرية «وصية نامة ومخفى» التى تركها لابنه وخليفته همايون فى وضوح سياسته فى الحكم وهى السياسة التى التزمها ابنه همايون

« أغنية الشتاء » التى يبدأها بالاعتذار للأصحاب لأن هذا العام أجدبت الأرض فلم تثمر الأشجار . يقول : .

شتاءٌ هذا العامِ يُخبرُنى بأنّى
سأقضى وحيداً ذاتَ شتاء
وأن ما مضَى من حياتى مَضَى هباءْ

وفى نفس القصيدة يذكر عبد الصبور أن خطيئته هى شعره وهو من أجله صلب .

ويظهر كذلك تشاؤم الشاعر واضحاً كل الوضوح فى آخر قصيدة فى المجموعة المسماة « مذكرات بشر الحافى » المجلد الأول ص ٢٦٣ حيث يصور الحياة وقد سرى بها العفن متجاوزا كل الحدود ، وحيث يبدو الإنسان مسخاً كئيباً فى عينى الإله .

وفى ديوانه « تأملات » تراه يشكو من تأثير حلم مفزع يعاوده من حين لآخر ، يرى نفسه فيه وقد قتل ، وأفرغ جوفه ، وعلق معروضاً فى متحف .. وهو يشير بهذا إلى آماله البعيدة التى تصل به إلى حد تمزيق المارّة ، وإعادة خلقهم من جديد . فهذا هو حلمه القابع فى ضميره والذى لا يفتأ يعاوده ويشغله ، وهو إعادة الحياة الإنسانية بغية تنظيمها وتخليصها من فوضاها وتنافرها .

هذه المرحلة التأملية تكشف عن الرؤى المتعددة ، والمراحل النفسية إلتى مر بها الشاعر من حزن ويأس ، وغربة وتأمل ، ثم أخيراً التوجه إلى الإنسان بعفوية وعذوبة وروح شفافة تحاول تحقيق الصفاء النفسى والروحى للشاعر ، وتصل به أحياناً إلى حد الصوفية المشرقة ، وإلى الدخول فى معان من الحب الروحى الذى يشع سعادة وبهجة .

الموقف الإبداعى

وعلى الرغم من أن موقف الشاعر الإبداعى لا يمكن فصله عن موقفه الفكرى

مختلفة من الجغتائيين والاوزبك والفرس والمغول اثارت كثرة الغنائم التى اتخمتهم مع اختلاف العرق شحناء الحسد والخصومات فيما بينهم. ولم يكن ذلك هو كل ماتعرض له سلطان الهندستان الجديد من مشكلات فقد كان الهنادكة بدورهم وهم غالبية السكان يرون فى الحكام المسلمين عموما مغتصبين لبلادهم وغزاة دخلاء عليهم. كما كان هناك بقية من الأمراء الأفغان مازالوا باطراف البلاد يتربصون بغزاة الهند الجدد فى انتظار الفرص المواتية ليثبوا عليهم ويخرجوهم من ارضهم. واقوى مراكز هؤلاء الأمراء الافغان كانت بالاقاليم الشرقية وابرز زعمائهم كان السلطان محمود لودهى الذى انطلق يجمع شتات بنى جلدته من جديد ببهار.

ولقد حرص همايون على تنفيذ وصية والده فولى اخاه كامران اقليمى كابل وقندهار كما اقطع اخاه عسكر ولاية سامبهال فى حين اعطى هندال الوار وموات (Alwar and Mewat). اما اقليم تراجع فقد جعل عليه ابن عمه سليمان مرزا. على ان كمران لم يقنع بأرضه فاستخلف اخاه عسكر ثم اقتحم مشارف البنجاب، بدعوى سيره لتهنئة همايون. ولم يثنه عن غايته ماعرضه عليه اخوه السلطان من ضم لمغان وبشاور الى حوزته حتى انقض على لاهور واعترف له همايون بسيادته على البنجاب كله. وقد ادت سيادة كمران على البنجاب الى قطع كل صلة بين دلهى وبين البلاد الواقعة فيما وراء الهندكوش وهى التى كانت تمد حكام الهند المسلمين دوما بالامدادات اللازمة.

وراى همايون بعد ان تدبر موقف اعدائه ان يبدأ بثوار الافغان الذين عادوا الى عصيانهم السابق باقليم بهار. وعندما بلغ لكهنا دتى اكتفى بضرب قواتهم دون ان يكلف نفسه عناء مطاردتها وقد كان ذلك فى متناول يده. وسلك نفس هذا المسلك مع «شيرخان سورى» صاحب حصن جنار فاكتفى

بالحصول على الولاء الاسمى منه مفضلا الانصراف عنه الى حرب الكجرات دون ان يلقى بالاالى خطورة هذا الثائر.

وكان بهادر خان احد سلاطين الكجرات الكبار قد اخضع لسلطانه اصحاب أجدنكر وبرار وكواليا ووثق علاقاته بالبرتغاليين الذين كانت لهم مستعمرات بشواطئ بلاده ذات المركز التجارى الممتاز. كما اقتحم بهادر خان اقليم مالوه وصار بذلك يتاخم سلطانه دلهى فى مواضع كثيرة وغدت آجراء نفسها غير بعيدة. وعلاوة على ذلك ادى ازدياد نفوذ هذا السلطان الى ان لجأ الى بلاده فريق من الخارجين على صاحب اجرا الجديد وفيهم علم خان عم ابراهيم اخر سلاطين اللودهيين. ولما كتب همايون اليه يطلب منه اخراج هؤلاء اللاجئين من بلاده رفض تلبية هذا الطلب وبذلك اصبح لامناص من قيام الحرب بينهما.

وصل همايون الى مالوه فوجد بهادرخان منهمكا فى حربة مع صاحب جتور ولكن شهامته فرضت عليه الايهاجم خصمه حتى يفرغ من اشتباكاته مع الامير الراجوتى. وحاصرت قوات همايون بهادر خان غير انه تسلل منها فى نفر قليل من رجاله عندما ادرك انهيار مقاومة قواته لطول الحصار وعنف المجاعة التى بدأ شبحها يخيم عليه. وظل همايون يطارد خصمه حتى لجأ فى النهاية الى جزيرة ديو احدى حصون البرتغاليين. ولكن بهادر خان تمكن بفضل معونة البرتغاليين من جمع قوات جديدة استطاع بها ان يسترد اغلب اراضيه وبرغم ذلك لم يكتب لسلطان الكجرات الاستمتاع بثمار انتصاراته هذه اذ سقط فى البحر غدرا بتدبير من البرتغاليين وهو فى طريقه للتفاوض معهم. وهكذا استعاد اصحاب الكجرات سيطرتهم على مالوه عندما خرج همايون من جديد للقضاء على القلاقل الشرقية التى هددت ملكه تهديدا خطيرا .

كان شيرخان سورى وهو من اقدر الزعماء الأفغان وأكثرهم شجاعة وعلما قد استخلص لنفسه اقليم بهار وتوغل بقواته فى البنغال دون ان تصادفه مقاومة تذكر. وما ان توجه همايون الى البنغال واسترد اقليم حتى هذا الثائر الافغانى الى اقليم بهار قام هو رجاله بنهب كافة الاراضى الواقعه بين بهار وقنوج وجونبور. وقضى همايون ستة اشهر فى البنغال وقد تصور ان الأمر قد دان له في الغالب بالاقاليم الشرقية. ولم يدرك ان عدوه انما تركه يتوغل فيها ليقطع خط الرجعة عليه ويقضى على ملكه قضاء تماما. ولما تنبه همايون الى هذا التدبير بعد فوات الاوان استدار الى خصمه والامطار الموسمية على اشدها فاستطاع شيرخان بدهائه ومناوراته ان ينزل بقوات دلهى ضربة حاسمة اتت عليها جميعا. واثناء وجوده بالبنغال وصلت همايون اخبار خروج اخيه هندال عليه بتحريض من بعض اعيان الافغان فبادر همايون فزعا بالرجوع الى اجرا عبر طريق طويل تعرض فيه جنده لعنف الامطار الموسمية وأوبئتها حتى هلك منهم خلق كثير.

وعندما علم شيرخان بتمرد أخيه همايون عليه عمد الى خداع السلطان واوفدوا اليه من يؤكد له طاعته وولائه له ولما اطمئن همايون الى تلك العهود عرض على عدوه أمارتى البنغال وبهار ثمنا لخضوعه له ولكن القائد الافغانى هبط فجأة فى الفجر على معسكر همايون بارض جوا واحاط برجاله فمنهم من لفظ أنفاسه هو يغظ فى نومه ومنهم من لقى حتفه فى أليم غرقا ومنهم من وقع فى الاسر. وبعد انتصاره فى جوا توج شيرخان نفسه ملكا واتخذ لقب شيرشاه ثم عبر نهر الجانج وانزل بهمايون هزيمة شنعاء عند مدينة قنوج واخرجه من الهندستان كلها. وبهذا ذهبت كل الجهود التى بذلها ابوه بابر فى فتوحاته ادراج الرياح. وفر همايون بعد هزيمته فى قنوج وعبر نهر الجانج ووصل الى آجرا ثم الى سرهند اما اخوته الذين نالوا الكثير من خيره فيما

مضى فقد امتنعوا عن مساعدته او حمايته بل لقد زادوا من متاعبه وضاعفوا ازعاجه.

اصبح همايون بعد ذلك طريدا هائما فى اقليم السند لايعرف لنفسه مستقرا. وخلال هذه الازمة الحادة، جاءته الانباء بان زوجته حميدة قد انجبت له ولدا (١٥٤٢) فاذا بهمايون الطريد يتحول الى مقاتل فى اعلى مستويات الصلابة والعنف واقسم على الاستمرار فى القتال حتى يعيد بناء ملك جدير به ليرثه هذا الطفل من بعهد. لقد كانت ولادة هذا الطفل - الذى سمى جلال الدين محمود واشتهر بأكبر - قوة دافعة عظمى لهمايون ومع هذا خاض حروبا ومعارك دامية عديدة، خسرها الواحدة بعد الاخرى حتى لقد عجز عن ان يجد حصانا ثانيا لزوجته لتفر معه من وجه المطاردين فحملها من ورائه تاركا طفله الصغير أكبر ليقع اسيرا فى قبضة عمه «عسكر». ولكن عسكر كان كريما مع ابن اخيه فلم يصبه بسوء. وفى نفس الوقت اتيح شيرشاه سلطان الهندستان الجديد ان يثبت نفوذه فى البنغال ويخضع السند ومالوه كما انزل ضربات شديدة كذلك بالأمراء الهنادكة. ولكنه اصيب فى معركة مع الراجوتيين بشظية من قذيفه لم يكتب له النجاة بعدها فقضى أجله بعد قليل فى عام ١٥٤٥ بعد أن حكم الهند قرابة سنوات خمسة. وظلت اسرته من بعده تحكم هذه البلاد عشر سنوات استطاع همايون من بعدها ان ينتزع الملك منهم ثانية بمساعدة طهماسب شاه الفرس الذى اواه فى محنته. وعاد همايون الى الهند ودخل دلهى ولكن الاجل لم يطل به ليجنى ثمار جهاده الطويل الشاق. فقد انزلقت به عصاه وهو يصعد درج مكتبته بدلهى وكان من المرمر الخالص فقضى نحبه بعد قليل فى عام ٩٦٣هـ/١٥٥٦م وهو فى الحادية والخمسين من عمره ولم يمض بالهند وقد اب اليها بعد غياب طويل سوى شهور ستة.

واشتهر البلاط المغولى فى عهد همايون بالجلال والفخامة وعرف بشغفه كأبيه واجداده بالفنون والعلوم والأدب. وقد ترك فيما ترك مكتبة عامرة بالمؤلفات القيمة لايزال بناؤها قائما بدلهى حتى اليوم. كما نظم همايون ادارة ملكه فقسم حكومته الى اربعة اقسام تبعا للعناصر الاربعة: آتش (النار) وباد (الهواء) وآب (الماء) وخاك (الارض) وعين وزيراً خاصا للاشراف على كل قسم من هذه الاقسام. فأعمال المدفعية وتنظيمات الاسلحة وكل مايتصل بالنار كان يكون ادارة منفصلة تسمى «ساراكارى اتيشى» يشرف عليها خواجة عبد الملك. واعمال الاصطبلات والمطبخ واصطبلات الجمال وغيرها كانت تكون ادارة اسمها «ساراكارى هوائى» ويشرف عليها خواجه لطف الله. واعمال شربات خاناه والحواصل وانشاء الترع وكل الاعمال المتصلة بالماء كانت تجمعها ادارة واحدة تسمى «ساراكارى آبى» (الادارة المالية) ويشرف عليها خواجه حسن. وشئون الزراعة والمبانى والاشراف على اراضى الخاصة الملكية والقصور كانت تكون الادارة الرابعة وتسمى «ساراكارى خاكى» (الادارة الأرضية) ويشرف عليها خواجه جلال الدين مرزابك.

وقد صنف همايون سكان مملكته تصنيفا دقيقا واقام نظاما محكما للطبقات وانشأ القصور لاستقبالهم وحدد أياما خاصة لمقابلة كل طبقة من طبقات الشعب. وكانت الطبقة الأولى هى طبقة «أهل السعادة» وتشمل الفقهاء والأتقياء وعلماء الدوله. الطبقة الثانية «اهل الدولة» من سراة القوم فكانت تشمل اقارب السلطان ووزراءه والنبلاء وقواد الجيش والطبقة الثالثة طبقة «اهل المراد» فكانت تشمل الموسيقيين والمغنين ورواة القصص (الشعراء» واهل الفن والذوق واذا كان اهل هذه الطبقة يعتمدون فى حياتهم على الهبات التى يمنحهم اياهم السلطان فقد كان من الواجب ان يسموا «اهل الطرب» فقد كانت مهمتهم إدخال السرور على نفس السلطان عن

طريق الاغاني والموسيقى والجمال. وكان رئيس كل طائفة من هذه الطوائف يمنح سهما علامة على تشريفه وقد قسمت هذه الطبقات الثلاث الكبرى الى اثنتى عشرة طبقة صغرى وكانت تفرق عليهم سهام أخرى من ذهب مخلوط بنسب مختلفة من المعادن الاخرى وذلك تبعا لاهميتهم. ويعطى هذا التنظيم فكرة واضحة عن همايون كأمير عظيم يعنى برفاهية رعاياه كما انه يبين المكانة الرفيعة التى رفع اليها همايون العلماء والزهاد والموسيقيين والشعراء.

وبعد وفاة همايون نودى بابنه جلال الدين محمد اكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) سلطانا على عرش اباطرة المغول فى الهند ولم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعة عشرة من عمره. ولصغر سنه تولى أتابكه بيرم خان[1]. وبدأ يدبر شئون الحكم لنفسه كما عين محمد حكيم الاخ الاصغر «لأكبر» حاكما على امارة كابل. ويقسم المؤرخون مدة حكم اكبر التى استغرقت مايقرب من خمسين عاما الى فترات ثلاث: فالفترة الاولى هى التى كان زمام الحكم الفعلى فيها بايدى الوزير الشيعى المجرب بيرم خان الذى كان خير معين لهمايون فى منفاه. وقد استطاع بفضل مقدرته وسنة وتجربته ان يبسط نفوذه على الامبراطورية المغولية ولكنه مع هذا كان يغار من اصدقاء سيده مما اكسبه عداء الكثيرين من رجال البلاط ونسائه لصلفه وكبريائه وتعاليه على الحاشية. وكان فى مقدمة الناقمين عليه الملكة الوالدة البيجوم، حميدة بانو «ومرضعة أكبر» «مهام انقاه» واخوه فى الرضاع ادهم خان وحاكم دلهى شهاب الدين. ولذلك بذلوا كل جهودهم لتسوء العلاقات بين السلطان واتابكه

(١) كان بيرم خان تركمانى المولد شيعى المذهب وكان من اخلص اتباع همايون فقد وقف إلى جانبه فى اشد الاوقات واحرج الساعات وبدون نصائحه ومساعدته لم يكن همايون ليستطيع استعادة ملكه فى الهند. وفى عهد اتابكيته احتلت دهلى واجرا والمناطق المحيطة بهما كما ضمت اجمير وجوالبور وجونبور.

وبالفعل اتخذت مرضعته مهام انقاه كل ما لديها من حيل لتوغر صدر السلطان عليه، وكان اكبر فى ذلك الوقت على استعداد تام لقبول كل مايقال له ولهذا أصدار الامر التالى: شاءت ارادتنا ان نتولى نحن حكم شعبنا بنفسنا وقد اقتضى الامر إن يستقيل رائدنا من الوظائف التى يتوعدها وان يرحل الى مكة ليقضى بقية حياته فى الصلوات والعبادة بعيدا عن متاعب الحياة العامة». وبالفعل اختار بيرم الرحيل الى الحرم الشريف ولكن قتله احد اعدائه الخاصين اثناء الطريق فى يناير عام ١٥٦١.

واما الفترة الثانية فهى التى حاول فيها بعض نساء القصر املاء رغباتهن على السلطان الشاب وذلك بعد ان افلحن بالدس والوقيعة والخداع ابعاد بيرم خان من منصبه بسبب تشيعه وتقويض ماكان له من نفوذ بالغ. ويرى بعض المؤرخين ان اكبر كان يحكم خلال هذه الفترة تبعا لمشورة مرضعته «مهام انقاه». ولكن الحقائق التاريخية تدحض هذا الرأى وثبت ان اكبر كان الحاكم بامره بدليل مافعله اكبر بأدهم خان اخيه فى الرضاع وابن «مهام انقاه» فقد امر بان يلقى من برج القلعة الى الارض مرتين حتى قتل وتناثر مخه لانه تجرأ فقتل رجلا من المقربين للسلطان.

وكانت الفترة الثالثة وهى التى انفرد فيها اكبر بالامر كله اطول هذه الفترات جميعا اذ امتدت من عام ١٥٦٢ حتى وفاته عام ١٦٠٥ واصبح اكبر خلالها الحاكم المطلق فى بلاد الهند وتعد هذه الفترة كذلك من ازهى عصور الهند التاريخية. ومن اجلها اعتبر المؤرخون القدامى من هنادكة وغيرهم السلطان اكبر اعظم حاكم عرفته الهند منذ ايام «ازوكا» حامى البوذية فى القديم. اذ بدأ اكبر عهدا جديدا فى حكم الهند فقد هدته بصيرته الى وجوب العمل على توحيد سكان الهند جميعا مسلمين وهنادكة تحت رايته. كما عمل على كسب رضا الراجبوت بوجه خاص فقد كان الراجبوت

يكونون الطبقة الحربية فى المجتمع الهندى وكانوا سلاح القواد العسكريين فى الهند ولم يكن فى استطاعة الاسرة الحاكمة الجديدة ان تستغنى عن تأييدهم ولهذا بدأ اكبر يعمل على كسب رضا الراجبوت وتأييدهم للحكم المغولى بوسائل كثيرة منها:

تقريب زعماء الهنادكة وامراءهم منه وفتح ابواب بلاطه لهم وتعيينهم فى المناصب الرفيعة مدنية وعسكرية على السواء. وبهذه الوسائل حول اكبر الهنادكة وامراءهم من اعداء للدولة الى خدام لها وحماة لاراضيها. كذلك عمل الراجبوت بعد خضوعهم على مساعدة الدولة ضد الاوزبك وكل القواد الخارجين وضد الافغانيين الذين ابعدوا عن العرش.

وكما يقسم المؤرخون مدة حكم اكبر فترات ثلاث كذلك يسلكون غزواته وفتوحاته فى ادوار ثلاثة. يبدأ الدور الاول منها من عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م حتى عام ٩٨٣هـ/ ١٥٧٦م وفيه بسط اكبر سلطانه على الهندستان كلها. اما الدور الثانى فيبدأ من عام ٩٨٨هـ/١٥٨٠م حتى ١٠٠٤هـ/ ١٥٩٦م وفيه تم له تأمين حدوده الشمالية الغربية ومناطقها التى تعد اخطر ابواب الهند فهى منفذ الغزاة الفاتحين الى سهول السند والجانج منذ القديم. ويبدأ الدور الثالث من عام ١٠٠٦هـ/ ١٥٩٨م حتى عام ١٠٠٩هـ/١٦٠١م وهو الذى طفق يتوغل ابانه بالدكن حتى تم له ضم اغلب مناطقه لملكه. وهكذا تم لأكبر فى ختام القرن السادس عشر السيطرة على الدكن التى استمرت حروبه بها سنوات خمس وصارت الدولة المغولية اعظم الدول العصرية واقواها واكثرها ثراء وغنى بما دخل فى حوزتها من أراضى وما انطوى تحت لوائها من الامراء وما عمرت به خزائنها من اموال الفتح وغنائمه وكنوزه. ونورد فيما يلى بعض الامور الهامة التى توضح طبيعة تلك الانتصارات والفتوحات:

أولاً: لم يواجه اكبر اعداء متكتلين وانما واجه كل امارة على حدة وكان يدرك حقيقة الامور فى الهند من حيث انه لا احترام فيها الا للقوة. ولهذا اعتنى بقوته المسلحة خير عناية فكانت لديه اقوى مدفعية فى الهند وكانت السلاح الحاسم فى المعارك. ولهذا درس طرق صناعة المدافع وادخل تحسينات عليها لتكون سهلة الحركة.

ثانياً: كان اكبر شخصية قيادية فذة استطاع ان يحتفظ بترابط الجيش حتى فى ادق المواقف. وكان عظيم الثقة بنفسه وفى ان النصر حليفه ولكن دون ان تعميه تلك الثقة عن اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمواجهة الأعداء.

ثالثاً: كان أكبر يحترم ويقدر عدوه الذى يستبسل فى الدفاع عن نفسه وماله حتى أنه بنى تماثيل لعدد من القواد الذين قاتلوه سيفا لسيف ويداً ليد حتى آخر قطرة فى دمائهم (صنع تمثالاً للقائد الهندوكى جمال الذى دافع عن حصن جتور حتى صرعه أكبر برصاصة أطلقها عليه) وأقام تمثالا للملكة الوصية على ابنها أميريتا ولابنها ولزوجته الشابة الصغيرة لأنهم انتحروا بعد أن يئسوا من النصر.

رابعا: ان قيمة انتصارات وفتوحات أكبر تكمن فى أنها أقامت امبراطورية واضحة المعالم مستقيمة الجوانب. أما فتوحات وانتصارات اسلافه فكانت محاولات فقط لانشاء امبراطورية. حقيقة لم يسيطر على كل الهند بأسرها ولكنه سيطر على معظمها فقد أصبح يسيطر عل شمال الهند ووسطها ولم تبق سوى دولة فياياتكر الهندوكية فى أقصى جنوب الهند خارج دولته.

لم يطل العمر بأكبر حتى يتم فتح جنوب شبه القارة الهندية بأكملها بعد أن شرع فيه. وكان بوسعه تحقيق هذا الأمر فى أمد قصير بعد أن أقر

الأحوال فى الشمال كله بقضائه على أساس سورو كبحه جماح الأوزبك وفتحة للبنغال واقتحامه حصون الراجبوتيين الكبرى[1]. وتأمينه حدوده كافة لولا ماتعرض من ثورات وفتن عنيفة بسبب ماذاع عنه من افكار فلسفية ادت به الى استنباط مذهب دينى جديد.

وبرغم ان اكبر كان ينحدر من أسرة امتازت بالثقافة المتوارثة فيها فقد ادى اضطراب حياة ابيه فى الغالب الى حرمانه من قدر وافر من التعليم فى الصغر فشب ولم يكن يحسن القراءة والكتابة. ومع ذلك فقد فاضت حياته الطويلة بالنشاط العقلى فتعلم عن طريق التلقين مكتفيا بالاصغاء والتأمل. وكانت ذاكرته القوية تستوعب كل ما كان يقرأ فى حضرته من الكتب القيمة التى جاوز عددها فى مكتبته الخاصة اربعا وعشرين الفا. حقيقة ان اكبر ولد عن أب سنى وام شيعية غير انه كان فى العشرين سنة الاولى من عمره مسلما سنياً كأحسن مايكون المسلم السنى يحافظ على اصول الدين ويؤدى الصلوات فى المسجد فى اوقاتها بل لقد كان يقوم احيانا مقام المؤذنيين فيدعو الناس للصلاة. وكان اكبر لايبدأ عملا او قولا الابدأه بقوله: «ياهادى يامعين» وكان لهاتين الكلمتين اثر السحر فى نفسه كما كانتا تثيران حماس اتباعه الشديد فكان جنود جيشه مسلمين وهنود اذا سمعوه يدعو هذا الدعاء يرددونه وراءه فى صوت جهورى ثم ينقضون على العدو دون خوف أو وجل. وظل اكبر لايشغل نفسه الابعلوم اهل السنة حتى التقى بالشيخ مبارك ناجورى وولديه فيضى وابى الفضل وكان ثلاثتهم من

---

(١) فى عام ١٦٠٥ كان اكبر الحاكم الوحيد لكل شمال الهند وامتد نفوذه فى الدكن الى جود افرى. وامتدت حدود امبراطوريته فى الشمال إلى جبال الهملايا. كما كانت هذه الامبراطورية تمتد من البحر الى البحر وتضم ١٨ ولاية كبيرة هذا بيانها: دلهى - اجرا - اود - الله آباد - احمير - حوجرات - بنغال - بهار - اوريسا - مالوا - السد - ملتان - لاهور - كابل - كشمير - خاندش - احمد فنجار - جرار.

المشتغلين بعلوم الحكمة فتفتحت عيناه على كثير من المسائل الفلسفية والاسرار الصوفية ودفعوه معهم فى طريقهم طريق البحث عن الحقيقة ومحاولة الوصول الى الحق المجرد. ودفعه شغفه بهذه المسائل الى اقامة دار للعبادة تعرف باسم «عبادة خانة» بمدينة فتحيور حاضرته الجديدة وتم بناؤها عام ١٥٧٥ لتكون منتدى للفقهاء والمتصرفة ورجال الدين وصفوة رجال الدولة يتدارسون فيها كتاب الله الكريم وعلوم التفسير والحديث ورسائل الفقه والتصوف والفلسفة. ودعا الفقهاء والعلماء من السنة والشيعة مساء كل خميس لحضور هذه الدار ومناقشة المذاهب فى حضرته بغية التقريب بين الاراء المختلفة وتوحيد الاسلام فى مذهب واحد. ولم تؤد هذه المناقشات الى النتيجة المطلوبة فاخذ كل فريق منهم يتهم الفريق الاخر بالكفر والمروق .

وفى احدى امسيات الخميس فى عام ١٥٧٨ احتدم النقاش بين العلماء فى حضرة السلطان حتى اتهم بعضهم البعض الاخر بالكفر. ولم يكن هناك امل فى تآلف العلماء وهو الهدف الذى كان اكبر يرمى الى تحقيقه. وعندئذ طرح على المجتمعين سؤال عام: «من يكون صاحب الحق فى اصدار الفتاوى والاوامر الدينية الواجب اتباعها اذا اشتد الخلاف بين الفقهاء» ؟. وانبرى احد الحضور وهو الشيخ مبارك وقال: «ان السلطان يكون صاحب هذا الحق». وتنفيذا لهذا الاقتراح كتب محضر لاعلان «اكبر» «امامى عادل» اى اماما عادلا ووقع هذا المحضر العلماء والفقهاء فى رجب عام ٩٨٧هـ/١٥٨٠م ووقع عليها بالموافقة كذلك الامبراطور اكبر. وقد وضعت هذه الوثيقة السلطة كلها فى يدى اكبر ورفعته الى مرتبة أعلى من مرتبة المجتهد وهى مرتبة الامام العادل واصبح اكبر بذلك الحاكم المطلق على ان يكون حكمه الرجوع الى القرآن والسنة والقياس. واهم من ذلك ان هذه الوثيقة اعطت لاكبر - بالاضافة الى سلطاته الزمنية - السلطان الروحى على رعاياه ونتيجة لذلك

سلب من العلماء هذا السلطان ولم يعد لهم الحق فى ان يتدخلوا فى شئون الحكم.

وبعد قليل اتخذ اكبر خطوة اخرى اشد جرأة. فبدأ يفكر فى وسيلة تمكنه من توحيد المجتمعين الاسلامي والهندى ليقل الخلاف بين رعاياه وليصبحوا اكثر توائما وانسجاما. وهكذا اراد اكبر ان يوحد الهندوكيين والترك والفرس والمسلمين والبراهمة والزراد شتيين جميعهم فى بوتقة واحدة مثلما حدث للغات الهندية والفارسية والتركية. لقد كانت اللغة الفارسية هى لغة الادب والمثقفين فى الهند وكانت اللغة التركية هى لغة الجيش المغولى الذى كان يضم اعدادا كبيرة من الاتراك فى العهد المغولى الاول. ثم اصبح يضم تركا وهنودا مسلمين وغير مسلمين. فقد اختلطت اللغة الفارسية بالتركية والهندية ونتج عن هذا الخليط لغة جديدة عرفت الى اليوم – كما أسلفنا – باللغة الأوردية التى أصبحت منذ عهد المغول اللغة الأولى فى الهند. فلماذا لايتفق الناس ويتوحدوا ويمتزجوا سلمياً وفى هدوء ليشكلوا شعبا متماسكا مترابطا متحدا من جميع الوجوه مثلما اتحدت اللغات المختلفة وكونت لغة واحدة جديدة ذات طاقات حيوية نشطة؟ لقد كان اتحاد اللغات واللهجات مثالا واقعيا أثر على تفكير أكبر تأثيرا كبيرا وجعله يعمم الفكرة على جميع المستويات الاقتصادية والفكرية واتجه كذلك الى أن يعمم الفكرة فى المجالات الدينية كذلك بأن يوحدها فى اطار واحد يعيش داخله جميع الناس.

لقد سعى أكبر الى البحث عن المذهب والعقيدة الحقة التى يجب أن يتبعها والتى يجب أن يتبعها أهل الهند. فنظر حوله فاذا بالفرق الاسلامية متناحرة متعادية وأوضح مثل على هذا ذلك الصراع الدموى الذى كان بين الصفويين الشيعة من ناحية والعثمانيين السنة من ناحية أخرى، وهو صراع استاء منه أكبر استياءا شديدا. وأراد أكبر أن يتبين الطريق السوى بين الفرق

الاسلامية ولكنه لم يستطع بسبب شدة الاختلافات الموجودة بينها ولذلك كان يصاب خلال بحثه عن الحقيقة بأزمات نفسية حادة، ولقد بلغ به الهوس الصوفى والفلسفي درجة جعلته يجمع عددا من الأطفال ويربيهم بعيدا عن تأثيرات المجتمع ليعرض عليهم الأديان والعقائد والمذاهب لعل فطرتهم تهديهم إلى الدين الأصلى الفطرى الحقيقى. ولما عرض عليهم الأديان والعقائد فوجئ بأن عزلتهم عن المجتمع جعلتهم جماعة من البكم لاتعى مايقدم لها ولاتستطيع التعبير عما تنفعل به.

وبعد ذلك اتجه أكبر الى دعوة علماء الأديان الأخرى «لعبادة خانة» للمشاركة فى النقاش والجدل الدينى لكى يدافع كل عن فريقه وعن دينه ويبدى محاسنه. وخلال ذلك الجدل كان أكبر يبتعد رويدا رويدا عن جميع تلك المعتقدات وأخذ يكون لنفسه فلسفة قائمة بذاتها حتى اذا اكتملت الصورة لدية دعا الى «الدين الالهى». وفى اجتماع عام حضره كبار العلماء من كل دين وقادة الجيش، تحدث أكبر عن الأضرار التى تعود على المجتمع من كثرة الأديان وتعددها، وأعلن عن ضرورة ايجاد دين واحد يضم محاسن الأديان المختلفة الموجودة فى الهند ويعتنقه الجميع، وبهذا يمكن – كما قال– تقديس الخالق، ويمكن للسلام والرفاهية أن يسودا بين الناس، وأن يشمل الأمن الدولة. كان هذا هو مولد الدين الجديد «دين» الهى أى الدين الالهى الذى تلخصت أصوله فى : توحيد الله، وهو حجر الزاوية فى الاسلام، وتقوم طقوسه على أسس من الصوفية الممتدة من الديانتين الهندوكية والزرادشتية، وفرض على أتباع هذا الدين أن يؤمنوا بوحدانية الله، وبأن أكبر خليفته على الأرض، وأن يقدموا لجلالته أربعة أشياء: الثروة والحياة والشرف والدين. وفرض عليهم أيضا أن يمتنعوا عن أكل اللحوم بجميع أصنافها، وأن يسجدوا للامبراطور. ومن طقوس هذا الدين الجديد: تقديس الشمس والنار،

وحدد يوم الأحد ليكون يوم الاحتفال بدخول الناس في الدين الجديد، وفيه يتسلمون من صاحب الجلالة «اسم الأعظم» وشعار الدين الجديد وهو «الله أكبر». كما وضع الدين الالهى تحية جديدة تحل تحية الاسلام «السلام عليكم»، وجعل التحية الجديدة «الله أكبر» وردها «جل جلاله».

وبيبن الحين والآخر كان أكبر يصدر سلسلة من التشريعات والتنظيمات التى تمنع ممارسة بعض العادات والتقاليد المتضاربة مع الانسانية بصفة عامة ومع مذهبه بصفة خاصة. ويمكن أن نذكر بعضا منها على النحو التالى:

١- منع أكبر الساتى منعا باتا، والساتى هو أن تنتحر الأرملة، التى لاأطفال لها، في أعقاب وفاة زوجها.

٢- أحل أكبر زواج الهندوكيات الأرامل. وكان هذا محرما وفقا للعقائد البرهمية ووضع شروطا للزواج، فلايتزوج العجائز من هم فى سن أبنائهم أو بناتهم، ومنع زواج الفتى أو الفتاة الابعد اكتمال الصفات الجسمية والعقلية والفطرية حتى لايصاب الزوجان بأزمات نفسية خطيرة وحتى لايخرج الى الدنيا أطفال مشوهون نتيجة لتلك الزيجات المبكرة. ودعا أكبر الناس الى التزاوج من أسرات لايتصلون بها بصلة القرابة، لأن تزاوج الأقرباء يضعف النسل، وهو أمر أثبته الطب الحديث. هذا الى أن التزاوج من خارج الأسرة يعين على تحطيم العصبية القبلية ويزيد من سرعة وسهولة التفاهم بين مختلف أنحاء البلاد. وفى نفس الوقت منع تعدد الزوجات والحق أن الدين الاسلامي أباح التعدد ولكن بشروط[1].

٣- فرض أكبر عقوبات صارمة على مثيرى الشغب والشجار، كما منع تعاطى الشراب وتداوله، وأمر بعقاب شارب الخمر وبائعها ومشربها وصانعها، وقصر بيعها للتداوى على متجر؛ خاص بمقربة من قصره

(١) ﴿وإن خفتم ألاتقسطوا فى اليتامى، فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا﴾

«سورة النساء آية ٣»

وجعل به سجلا يثبت به اسم كل مريض يتعاطاها وأسم أبيه وجده وترخيص الطبيب له بها.

٤- امر اكبر بجمع البغايا فى دارتدعى شيطانيور (أى محلة الشيطان) ووكل بهن عاملا خاصا يقوم على شئونهن ثم اخذ من بعد ذلك يستدعى اليه كل واحدة منهن فيستوضحها عمن اغواها ودفع بها فى طريق الشر والفساد لينتهى من ذلك الى قتل كل من ثبتت هذه التهمة عليه. ولم يكتف بتعميم هذه الدور فى مناطق كثيرة من بلاده حتى امر بان يساق اليها كل زوجة ثبت ادمانها على الخصام والشجار مع زوجها.

٥- منع اكبر استرقاق اسرى الحرب. ويعد هذا الاجراء انبل ما شرعه ملك فضلا عن تحقيقه لهدف من اهداف الاسلام الإنسانية الكبرى فى الدعوة للتحرير وفك الرقاب. ولا يغيب عنا هنا ان الهنادكة كانوا يسقطون عن الاسرى قيمتهم الانسانية فيسلكونهم فى عداد المنبوذين كما منع اكبر اختلاط النساء بالرجال فى الأسواق وعند شواطئ الأنهار طلبا للسقى او الاغتسال.

٦- اعفى اكبر الهنادكة من ضريبة الرؤوس ورفع عنهم رسوم الحج حتى يشعروا بقيام المساواة التامة بينهم وبين مواطنيهم من المسلمين. ولم يكتف بان يصرح للذين اجبروا فى صباهم على الاسلام ان ينظروا متى بلغوا سن الرشد فى البقاء على اسلامهم او الرجوع الى دين آبائهم حتى راح ينادى بحرية الناس جميعا فى تخير مايروقهم من الاديان والعقائد.

ان تلك التشريعات التى نفذها اكبر كانت فى الواقع اصلاحات اجتماعية اكثر من كونها دعايات دينية او مذهبية. واذا كان فريق من الناس قد التف حول هذا المذهب الجديد جلبا للنفع وطمعا فى اكتساب الحظوة

فى الغالب فان الفشل التام قد اصاب اكبر من مشروعه هذا الذى لم يكن ليقوى أبدا على هدم التقاليد الموروثة فلبثت الغالبية العظمى على استمساكها بعقائدها ومذاهبها. ولم تكن حركة أكبر هذه الا واحدة من المحاولات القوية التى اضطلع بها نفر من المسلمين والهنادكة من قبله ومن بعده للتقريب بين الاسلام، والهندوكية وتضييق شقة الخلاف بينهما واحلال التفاهم وتحقيق الوحدة بينهما. واذا امعنا النظر فى هذا الدين الجديد نجد انه اقتبس الروح من الاسلام بينما صاغ الجسم من الهندوكية والزراد شتيه. فالروح التى تتمثل فى وحدانية الله مأخوذه عن الاسلام والجسم الذى يتمثل فى الطقوس المختلفة مأخوذة عن الديانتين الاخرتيين. وحرص أكبر على ان يرضى دينه الجديد المسيحيين فجعل يوم الاحد يوم التدشين للداخلين فيه او المؤمنين الجدد وبذلك مثل هذا الدين الالهى جميع الاديان الموجودة فى الهند فهو دين عالمى هندى.

وقد اختلف المؤرخون فى تقديرهم لهذا الدين الجديد فاعجب به الكثيرون من الغرب ورأوا فيه بشير نهضة أو حركة احياء هندية كبرى. وذكروا فى مجال دفاعهم عن اكبر انه لم يكن نبيا او رسولا جاء يبشر بدين جديد «فالعقيدة التى دعا لها لم تكن هدفا فى حد ذاتها وان كانت وسيلة لهدف اكبر وهو التوحيد بين طوائف الشعب لتكوين هند قوية موحدة». اما المعارضين فكانوا كثيرين بعضهم من الغربيين والغالبية من المسلمين وخاصة من مسلمى الهند المعاصرين وغير المعاصرين. ويمثل ماكتبه المؤرخ المعاصر عبد القادر بدوانى (Badaoni)[1]. رأى المجتمع الهندى الاسلامى فى الدين الجديد. فلقد أعتبر الدين الإلهى كفرا والحادا وذكر الجوانب التى خرج فيها عن الإسلام على النحو التالى:

---

(١) صاحب «منتخب التواريخ».

١ – اباح السجود للامبراطور والإسلام يمنع السجود لغير الله سبحانه وتعالى.

٢ – دعا الى عبادة او تقديس الشمس والنار وفى هذا رجوع للوثنية القديمة.

٣– سمح بوضع الحلاليف فى القصر الامبراطورى واعتبر النظر اليها كل صباح عملا يستحق التقدير والاسلام يحرم اكل لحم الخنزير وبالتالى يحض على كراهيته.

٤– حرم اكل لحم البقر والثوم والبصل وهذه اشياء احلها الاسلام كما حرم تربية اللحى وقد كانت اللحى الشعار المميز للمسلمين فى الهند فى ذلك الحين لان الهندوكيين كانوا يحلقون لحاهم.

٥– نفى عددا كبيرا من «الملا» اى علماء المسلمين وشيوخهم.

٦– منع ختان الاطفال قبل سن الثانية عشرة وزواج البنات قبل سن البلوغ.

٧– حارب دراسة اللغة العربية.

٨– منع الاذان والصلوات الجامعة.

٩– امر بتغيير الاسماء الاسلامية من امثال محمد واحمد ومصطفى لانها تسبب الضيق للامبراطور.

١٠– اوقف الحج الى مكة وصيام شهر رمضان.

١١– حرم دراسة القرآن والحديث.

١٢– امر بان تحول المساجد والجوامع الى مخازن واماكن للحراسة.

ولهذا كله يرى بدوانى ان الاسلام قد هدمت اركانه وانقضى بنيانه ولايمكن اعتبار اكبر مسلما بعد عام ١٥٨٢ وهو العام الذى اعلن فيه اكبر الدين الالهى.

لقد ذكرت آنفا ان بعض العلماء المسلمين قد ايدوا هذا المذهب الجديد للتقرب من السلطان ولكن نفرا من العلماء الاخرين المتمسكين بدينهم عارضوا الدين الالهى معارضة عنيفة، وكان على رأس هؤلاء العالم احمد سرهندى (١٥٦٤ – ١٦٢٥) الذى قام بحركة تجديدية وضاءه تعتبر فى الواقع رد فعل لحركة اكبر الالحادية. ويعرف احمد سرهندى باسم «مجددى الفى ثانى» اى مجدد الالف الثانية تحقيقا للحديث الشريف الذى يقول: «ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها «واحمد سرهندى واحد من كبار المسلمين والمتصوفة الذى برزوا فى الهند لتجديد الاسلام وتنقيته من الشوائب التى لصقت به ولاسيما بعد حركة الهرطقة التى قام بها اكبر فبدأ ينظم حركة واسعة لمعارضة هذه الحرب الالحادية وبث اتباعه ومريديه فى انحاء البلاد وكتب الى قواد الجيش وكبار الموظفين ممن يأنس فيهم الرشد والاسلام الصحيح ينبههم الى هذا الخطر الداهم الذى ستكون آثاره خطيرة على الاسلام والمسلمين فى الهند» ولم تظهر دعوته الابعد موت اكبر وفى عهد ابنه جهان جير (١٦٠٥ – ١٦٢٧) الذى سار على نهج ابيه واضطهد علماء السنة وقرب اليه علماء الشيعة. حقيقة ان جهان جير قبض على احمد سرهندى ولكنه سرعان ما اطلق سراحه وقربه اليه وابقاه معه فى القصر لينتفع بنصائحه. ولذلك فقد استطاع احمد سرهندى اقناع الامبراطور بالغاء كثير من البدع التى استحدثها ابوه (اكبر). فاصدر امرا ملكيا نص على: تحريم السجود للملك واباحة ذبح البقر واكل لحمه وإعاده بناء المساجد المهدمة وابطال القوانين المعارضة للشريعة الاسلامية وتعيين القضاة والمحتسبين فى مختلف المدن الهندية.

ولقد ذكر بول بريس[1]. ان اكبر استهدف من اعلان مذهبه الجديد ان

(1) Powell Price, A History of India, P.262.

يصبح خليفة حتى يرتفع شأنه عن مكانة السلطان العثماني وشاه فارس. ومن المؤكد ان اكبر لم يفكر في موضوع الخلافة ولم يضع نفسه موضع المقارنة مع الشاه او السلطان العثماني فقد كان تفكيره قاصرا على الهند وللهند ولم يكن راغبا في الانطلاق الى ما وراء الهند او الى المحيط الذى كان يزخر بالاساطيل الاوروبية. وهذا الموقف السلبي من القوى الاوروبية والعالمية في المحيطات يفسر لنا علاقة اكبر بالبرتغاليين وان موقفه منهم يعتبر نقطة ضعف شديدة في سياسته. فلقد اطل اكبر على المحيط الهندى بعد استيلائه على امارة كجرات المطلة على المحيط الهندى واصبح على مرأى من الاسطول البرتغالى الذى احتكر السيطرة على المحيط الهندى وعلى طريق راس الرجاء الصالح الى اوروبا واغلق مداخل البحر الاحمر والخليج العربى واخذ كل سفينة عربية او اسلامية غصبا يستولون على مافيها ثم يحرقونها بما فيها من حجاج بيت الله الحرام وتذكر لنا الدراسات التاريخية ان اكبر اتصل بهم عندما شرعت الاميرة جلباوان في السفر برا الى الاراضى الحجازية لاداء فريضة الحج عام ١٥٧٥. وخشى اكبر عليها من عدوان الاسطول البرتغالى فطلب من البرتغاليين عدم التعرض للاميرة وفى مقابل ذلك حصلوا على موقع على ساحل دامان. ومما سبق يتضح ان اكبر كان يدرك القوة البرتغالية البحرية ولكنه لم يواجه تلك القوة بالاستعدادات اللازمة لمجابهة السياسات والاستراتيجية العالمية إذ ان العصر الذى عاشه اكبر كان نهاية القوى البرية وبداية القوى المحيطية. ولذلك اضطرت الهند الى التقوقع وراء سواحلها بينما اخذت القوى البحرية تطرق ابواب الهند حتى انتهى الامر بوقوعها في قبضة الاستعمار الاوروبى. واذا كان اكبر قد عاش طوال نصف قرن من الزمان صاحب السلطان المطلق في الدولة الا انه لم يتردد في مشاورة رجاله في

تصريف شئون الدولة على احسن وجه يكفل صالح الاهلين فاعتمد في تصريف الامور على طائفه من كبار رجال الدولة وعلى رأسهم وكيل السلطنة وكان فى اول عهده بالحكم بيرم خان قائده ومربيه، ويأتى من بعد الوكيل فى المرتبة وزير ان الديوان وهو القيم على شئون المال فى الدولة ويليه «ميربخشى» وهو الذى يقوم بدفع مرتبات الجند والقادة ويشرف على شئون القوات جميعها ويعد مسئولاً بصفة خاصة عن جيش السلطان الخاص. ويأتى من بعده «خان سلمان» وهو صاحب شئون البلاط الذى كان يلازم اكبر فى حله وترحاله ويشرف على شئونه الخاصة جميعها. ثم قاضى القضاه، وهو الموكول به شئون العدل وفق الشرع. واخيرا المحتسب الذى كان يراقب الناس ويمنع البدع وارتكاب ما ينافى الشرع والاداب عموما.

ولم تكن الدولة الاسلامية فى الهند قبل عصر اكبر تعرف التقسيمات الادارية اذ كان تحديد الاقطاعات رهنا بمشيئة السلطان وحده. وانتهى اكبر الى تقسيم اراضى الدولة الى ولايات فى بداية الامر اثنتى عشرة حتى اذا مافتحت الدكن بلغت ثمان عشرة كما اسلفنا وكان حاكم كل ولاية يعرف باسم «السياهسالار» اى القائد العام وهو نائب السلطان بها. فكان له الحق فى الاشراف على شئون القوات والقضاء فى إقليمه، وله ان يعين صغار العمال ويقيلهم. وكان يليه فى المنزلة ثمانية من اصحاب المناصب الكبيرة وهم:

الديوان:

وكان يناط به شئون المال فى الولاية ويلى «السياهسالار» فى المرتبة.

الصدر:

وهو صاحب الشريعة فى الاقليم كله وكان فى العادة من العلماء اصحاب المهابة ويأتمر القضاة ورجال العدل بأمره.

العامل:

وهو صاحب الخراج وكان عليه ان ينظم جباية الضرائب ويراقب عماله جميعا فى يقظة تامة وحذر على وجه العدالة وان يجرى تقدير خراج الارض على درجة خصوبتها وجودتها.

البتخشى:

وهو المحاسب الذى يراجع اعمال العمال وكان يشترط فيه الالمام باصول الخراج ونظمه واسس الايرادات والمصروفات.

الخزندار:

وهو صاحب الخزانة الحافظ لاموال الدولة.

الفوجدار:

وهو القائد المباشر لقوات الولاية وكان يقوم بمطاردة عمليات اللصوص وقطاع الطرق ويخمد كل عصيان وفتنة تنشب فى الاقليم.

الكوتول:

وهو صاحب الشرطة والمنوط به مراقبة تنفيذ الاوامر والقوانين فى المدن.

وقائع نويس:

وهو مسجل الوقائع وضابط الاتصال بين الحكومة المركزية والولاية، والرقيب الذى لاتخفى عليه فى الاقليم كله خافية.

وامتدت اصلاحات اكبر كذلك الى نظام خراج الارض الذى كان يعد أهم موارد الخزينة بعد رفع ضريبة الرؤوس عن كاهل الهنادكة واعفائهم من

ضريبة الحج. فتم مسح اراضى الدولة كلها وبيان مايجود منها فيزرع على مدار السنة ومايزرع منها مرة واحدة في العام وما لاينبت الامرة واحدة فى كل بضعة اعوام وما يعتمد منها فى السقى على الامطار وما يسقى منها من الانهار والينابيع والابار وما هو فى حكم البور ما يقع منها فى السهل او يقوم على سفوح الجبال او تغطية الاحراش والغابات. حتى اذا تم له ذلك كله ربط الضريبة على متوسط الانتاج فى عشر سنوات على ان يكون للدولة ثلث المحصول هذا مالم يصب الزرع بافة او ينقطع الماء عن الارض فتجدب. وحاول اكبر كذلك ان يدرأ عن بلاده - خطر المجاعات المروعة التى كانت تدهمها حين كانت تجدب الارض بسبب انحباس الامطار الموسمية عنها. فاهتم اهتماما بالغا اهتماما باستصلاح الاراضى البوروحض الاهالى على الاشتغال بالزراعة وتوسيع رقعة الاراضى الزراعية وامدهم بما يحتاجونه من البذور وعاونهم على زيادة انتاج الارض. ومايسترعى الانتباه هنا ان البريطانيين قد اقتبسوا اغلب نظم اكبر الحكومية والادارية والاقتصادية حين آل اليهم زمام الأمور فى الهند.

ومن ناحية اخرى كان اكبر صاحب حاسة فنية دقيقة وصاحب ذوق ادبى راق. وتعتبر فتحبور اعظم مثال على روعة فن المعمار فى ايامه فقد بناها لتكون عاصمته فاخرجها تحفه من تحف الهندسة واصبح فن المعمار فيها نقطة تحول فى تطور ذلك الفن فى الهند ونقطة انطلاق جديدة له. وكانت حدائقها بورودها واشجارها ونافوراتها تضفى على المدينة جمالا شاعريا شرقيا ساحرا. وماتزال بعض مبانى هذه المدينة قائمة الى الان شاهدة على روعة الماضى القريب وصورة تعكس تعاسة تلك المدينة البائسة. ولم تكن احساسيس اكبر الفنية مقصورة على المعمار وهندسته وانما تعدتها الى فنون الرسم

والتصوير. ولشدة ولعه بهذه الفنون اسس مدرسة ابتدعت جديدا في الالوان والرسم واخرجت لوحات فنية عالمية. وقد تخلف عن فنانية لوحات كثيرة سجلت حياة البلاط ورسومه وكثيرا من مظاهر المجتمع في ابداع منقطع النظير. ولم تكن عناية اكبر بالموسيقى دون عنايته بالتصوير والنقش. ومازال الانغام المغولية والحانها لها سوق رائجة بالهند حتى يومنا هذا.

ولكن اكبر ابتلى في اواخر ايامه بكوارث عائلية حطمت من قوته النفسية وهدت من كيانه ففقد ولديه مراد ودانيل على التوالى بادمانهما على الشراب وعصاه ابنه الاكبر سليم (الذى لقب فيما بعد باسم نور الدين محمد جهانجير) ودبر مقتل الوزير العالم ابى الفضل بن المبارك اعظم خلصاء البادشاه واكبر مستشاريه. وفى عام ١٦٠٥ اشتد عليه مرض الدوسنتاريا وعجز الاطباء عن علاجه فاسلم الروح الى بارئها ودفن في ضريحه الذى كان قد بدأ بناءه في سكندرا والذى اتمه فيما بعد ابنه جهانجير. وفى عهد اورنجزيب خرب «الجات» هذا الضريح ونبشوه واخرجوا عظام اكبر واحرقوها وذروها في الهواء. وقد ترك اكبر من بعده لابنه دولة موطدة الاركان تتألف من الشمال الهندى باكمله مع كابل وكشمير والبنغال وجزء من الدكن. فكان اول من انتقل بالبابريين من محاربين وطلاب للمغامرات الى اصحاب اسرة مالكة عظيمة. ذلك ان بابر اول سلاطين المغول في الهند كان قد شغل بحروبه ومغامراته وفتوحاته طوال حياته بينما قضى همايون الشطر الاكبر من عمره في المنفى يجاهد لاسترداد ملكه الذى كان قد انتزعه منه الامير الافغانى شيرشاه سورى وطرده من الهند كلها ثم كتب الاستقرار على عرش الهند لابى الفتوح جلال الدين محمد اكبر فتجلت عبقريته في تنظيم حكومة بلاده على اتساع رقعتها حتى كانت طريقته في الحكم هى التى اذاعت من

صيته اكثر مما اذاعته فتوحاته فاجمع كثير من المؤرخين على انه اعظم ملك عرفته الهند وكان عصره آخر عصور القوة الاسلامية فى الشرق.

٣- الاستعمار البريطانى وانهيار الامبراطورية المغولية:

يعتبر نور الدين محمد جهانجير (١٦٠٥ - ١٦٢٧) ومحيى الدين محمد اورنجزين (١٦٦٩ - ١٧٠٧) آخر الاباطرة المغول الكبار ولكنهما لم يكونا على مستوى بابر أو اكبر. فلقد ورثا نفس المشاكل الكبرى التى كان اكبر قد واجهها وهى الصراع الاسرى والحروب المتصلة ضد الامارات الساعية الى الاستقلال وكان هذان العاملان كالسوس ينخر فى عظام الدولة المغولية.

فقد ثار خسروبن جهابخير على ابيه وانضم اليه عدد من التاقمين على خسروبن جهانجير وعدد من الزعماء الهندوكيين ومن بينهم جورو أرجونا زعيم طائفة السك. وارتكب جهانجير خطأ فادحا حين امر بقتل زعيم السك لمد ابنه الثائر بالمال وكان فى مقدوره ان يلقى بهذا الشيخ فى السجن حتى يوافيه اجله بسلام فيتجنب بذلك اثارة عداء طائفة السك الكبيرة القوية التى رفعت شهيدها الى مرتبة القديسين وظلت تنادى على طول الزمن بالثأر لمقتله فساهمت بعدائها هذا مساهمة فعالة فى التعجيل بانهيار الدولة المغولية كما سمل عينى ابنه خسرو وهزم الامراء الافغانيين الثائرين ولكنه لم يكن شديد الوطأة عليهم[١].

(١) لقب أورنجزيب نفسه «بالغازى بادشاه ابو المظفر محيى الدين محمد اورنجزيب بهادر عالم جبر». واورنج تعنى عرش وزيب تعنى زينة فإسم أورنجزيب معناه «زينة العرش» وجير معناها سيد او حاكم فكان عالم جير معناها سيد العالم).

ثم اصطدم بعنف مع قوة هندوكية ناشئة هى قوة «المراثها»[1] التى ستصبح فى المستقبل قوة لها شأنها فى توجيه الامور.

وثار ابن آخر لجها نجير ايضا وهو شاه جهان بعد ان ضرب شاه فارى عباس الكبير (١٥٨٧-١٦٢٩) الحصار على مدينة قندهار عام ١٦٢٢. ولكن مما زاد من حدة الصراع بين جهانجير وابنه شاه جهان تحريض نور جهان الجميلة لزوجها ضد ابنه. وكان جهانجير شديد الوله بزوجته وكانت ذات شخصية قوية وذهن حاضر وذكاء وعلى علم وسمو فكرى وارادة حتى لقد اصبحت فى وقت من الاوقات صاحبة اليد العليا فى توجيه امور البلاد بالطريقة التى تريدها الامر الذى ادى الى نشوب الكثير من الثورات.

وفى عهد شاه جهان بن جهانجير (١٦٢٨ - ١٦٥٨) وقعت فتنة كبرى بين الامراء اتت على الزرع والضرع فى مواقع الصدام. وفيما بين ١٦٣٠ و ١٦٣٢ حدثت مجاعة خطيرة راح ضحيتها عدد كثير من الهنود واضطر الفقراء الى اكل لحوم الحيوانات. وغلب على الناس تعلقهم بالحياة على حبهم لأولادهم حتى كان منهم من ذبح ولده وطعم لحمه. واعتلى اورنجزيب عرش الهند عام ١٦٦٩ والبلاد يعمها الخراب الشامل الذى اكتسح حقولها ومروجها ابان حروب الوراثة الجامحة التى قامت بينه وبين اخيه دارا شكوه. وظلت هذه الحروب الاسرية تتوالى حتى اصبح الامبراطور المغولى العوبة فى يد القوى التى يعتمد عليها من اجل الوصول على العرش فى دلهى. وبلغ هذا الضعف ذروته عندما دخل شاه علم بهادر بن اورنجزيب دلهى على أسنة رماح المراثها الهندوكيين فى عام ١١٨٥هـ.١٧٧٢م.

---

(١) المراثها: جنس من اجناس الهند كانوا يسكنون الاقليم المحيط بمدينة بومباى وقد عرفوا كجيرانهم الراجبوت بالقوة وشدة البأس.

لقد كانت الجبهة الاسلامية فى الهند فى عهد خلفاء اكبر شديدة التفكك ليس فقط بسبب تلك الصراعات الدموية الأسرية وانما أيضا بسبب نمو الحركة الشيعية بين مسلمى الهنود، والمعروف عن المغول انهم كانوا من السنة المتحمسين لسنيتهم وانهم كانوا ينظرون والالم يعتصر قلوبهم الى الهند الوثنية وقد تعددت طوائفها تعدد الالهة المائة والعشرين اوقل المائتين الذين كانوا يعبدون فى الهند وكان مسلموا الهنديرجون توحيد الهند تحت راية المغول السياسية وتحت راية الاسلام الدينية على المذهب السنى او ان يدخلوا فى دين يوفق بين معتقداتهم والدين الاسلامى. وعندما فشلت مساعيهم كان اقل ما يرجوه اباطرة المغول هو ان يظل المسلمون متمسكين بوحدتهم الدينية والمذهبية. ولكن الدعوة الشيعية بدأت تنتشر فى الهند وخاصة فى مناطق الدكن وبدأت حركات انفصالية شيعية فى تلك الجهات رأى فيها أورنجزيب خطرا شديدا على دولته.

وكان أورنجزيب على عكس بابر وأكبر، فقد اشتهر منذ أول شبابه بتمسكه الشديد بتعاليم السنة وحرصا منه على صبغ دولته بالصبغة الاسلامية الخاصة ان تشدد أورنجزيب فى تحريم الخمر والميسر تحريما تاما وابطل البدع، ثم امر بتعمير المساجد وترميم الخرب منها وامدها بطائفة مختارة من الائمة والوعاظ والمدرسين. كما اخذ أورنجزيب بابعاد الهنادكة عن مناصب الدولة الكبرى وقلل من عددهم فى الدواوين عامة، ولم يبق بها منهم سوى نصفهم حرصا على صالح العمل وانتهى امره معهم الى ان امر بغلق كثير من مدارسهم ومنعهم من اقامة معابد جديدة لهم. كما اعاد أورنجزيب فرض جزية الرؤوس على الهنادكة وأعفى من تأديتها غير القادرين عليها. وقد أدى الحرص بكثير من عامتهم الى الدخول فى الاسلام تخلصاً من دفعها.

ولكن قوة اورنجزيب لم تكن على ذلك المستوى الذى كانت عليه ايام أكبر. كما ان القوى المعادية له أصبحت أشد صلابة واعتمدت على فكر حضارى وفلسفى أكثر تطورا عن ذى قبل وكان هذا هو حال المراثها والسك[1]. والراجبوت بصفة خاصة ايام اورنجزيب أحرز أورنجزيب انتصارات كبيرة ضد تلك القوى واتسعت دولته حتى كادت أن تصل الى شبه القارة الهندية الجنوبية، ولكن نتائج تلك الانتصارات كانت بداية النهاية بالنسبة لامبراطورية المغول. فلقد صمد الراجبوت واصبحوا بعد ذلك القوة الرئيسية التى اعتمد عليها أبنه أكبر لعله يصل عن طريقها إلى العرش. وحارب أورنجزيب المراثها زهاء ربع قرن أو أكثر فأصابهم بالنكبات وأصابوا هم بلاده بالدمار واصابوا خزينته بالخراب، وبعد ذلك دب التحلل فى امبراطورية المغول كما دب التحلل فى المراثها فى نفس الوقت الذى كانت فيه القوى الشمالية الاسلامية الافغانية والفارسية تتطلع الى السيطرة على هذه البلاد المفككة، ففى عام ١٧٣٩ ، قام نادوشاه، صاحب فارس، بغزو الهند، ولم يرجع عنها حتى اغتصب عرش الطاووس لنفسه، وأرغم محمد شاه نظير أعادته الى عرشه، على التنازل له عن أرض كثيرة بالبنجاب تمتد من كشمير حتى ولاية السند، مع تعويضات مالية طائلة ومزيد من الجواهر والأحجار الكريمة نجعلته يتغاضى عن جمع الضرائب من سكان فارس لسنوات ثلاث. والواقع أن غزوة نادر شاه كانت أخطر على الدولة الاسلامية بالهند من الغزو التيمورى. فلقد

---

(١) كانت طائفة السك من الجات البنجابين، أمامها مصلح دينى يدعى غرور نانك، ظهر فى القرن التاسع عشر وحاول ان يصهر ديانات الهند فى مذهب واحد يقوم على تعظيمها جميعا، ويقضى على فروق الطوائف، ويعلن المساواة التامة بين الناس. وقد تفشت الكراهية بينهم للمسلمين عندما قتل جهانجير أورغون، خليفة امام السك، وشرع زعيمهم الجديد هارغوند يمدهم اعدادا عسكريا للدفاع عن كيانهم.

استطاعت الدولة الاسلامية عقب تخريبات تيمور أن تستعيد سيرتها الاولى من القوة فى أغلب اماراتها واقاليمها الكبرى وليمكن لها بالبلاد أعداء يتربصون بها مثل المراثها والسك ومن ورائهم المستعمر الاوروبى وعلى رأسه البريطانيون، عند شواطئها يعدون العدة لابتلاع أراضيها كلها. وظل البنجاب بأيدى الفرس أثنى عشر عاما حتى دخله عليهم. احمد ابدالى الدرانى شاه الافغان الذى نجح بعد قتله لنادر شاه فى ان يوحد قبائل الافغان بزعامته ويمد سلطانه حتى سيحون وشواطئ قزوين لينحدر بعد ذلك الى سهول الهند. وانتهت غزوات الأفغان المتكررة على الهند الى ضياع البنجاب واستيلاء الافغان عليه.

ومما لاشك فيه ان اقوى عامل ادى الى فتح الهند امام الأوروبيين الى جانب العوامل السابقة هو ان نظام الحكم والادارة والانتاج واتجاهات السياسة الخارجية لم تكن على مستوى العصر. كما ان القدرات العسكرية فى داخل الهند لدى المسلمين والهندوس على السواء كانت تنتمى الى القرون السابقة. ولم يتجه المسلمون ولا الهندوكيون الى القوة البحرية فظلت متأخرة فى عصر اصبحت فيه القوى البحرية هى أداة الحرب والتوسع الاولى، وكانت هناك على الشواطئ الهندية الغربية قوتان كبيرتان اصطدمتا بالبرتغاليين فى وقت مبكر وهما: امارة كجورات فى شمال غرب الهند وامارة قاليقوط (كاليكوت).

كانت امارة كجرات واحدة من اقوى الإمارات الاسلامية منذ القرن السادس عشر وكانت ذات علاقات تجارية على نطاق واسع مع البلاد العربية وشرق افريقية. وعندما جاء البرتغاليون ببوارجهم الكبيرة المزودة بصفوف

المدافع انقضوا على كل سفينة اسلامية، يستولون على بضائعها ويحرقونها بمن فيها من رجال ونساء واطفال ويبيعون الاسرى بيع الرقيق. واستصرخت امارة كجرات سلاطين المسلمين وخاصة قنصوه الغورى سلطان المماليك فى مصر وسليم الأول العثماني. ثم دعت السلطان سليمان القانوني للتعاون مع مسلمي الهند ضد هذا العدوان الصليبي البرتغالي. ويلاحظ هنا ان الجهد الكبير الذى كان يبذل لانقاذ خطوط التجارة العالمية البحرية اصبح ملقى على مصر لتنازل اساطيل البرتغال على مقربة من شواطئ الهند دون ان يبذل حكام الهند مجهودا مماثلا. فلم يهتم حكام الهند فى مطلع القرن السادس عشر بما يحدث على سطح المحيطات من تطورات في اساليب الملاحة والحرب المحيطية ومن معارك بحرية حاسمة. فمعركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ لم ينتصر فيها اى من الطرفين البرتغالى او المملوكى ومع ذلك فالنتائج كانت فى صالح البرتغاليين الذين ظلوا محتفظين بمواقعهم على شواطئ الهند الغربية. واذا كان البرتغاليون قد انفردوا بخطوط الملاحة العالمية المؤدية الى الهند حوالى قرن من الزمان إلا أن امبراطوريتهم البحرية انهارت تحت ضربات القوى البحرية الاوربية الناشئة مثل هولندا وفرنسا وبريطانيا. فقد عملت هذه القوى على كسر احتكار البرتغاليين لخطوط الملاحة البحرية الى الهند ونجحوا فى ذلك عن طريق الشركات التجارية الانجليزية والهولندية والفرنسية التى كانت لها اساطيلها الحربية والتجارية القادرة على التصدى للقوى البرتغالية ومن اشهر هذه الشركات شركة الهند الشرقية البريطانية التى ظهرت فى مطلع القرن السابع عشر. وكانت هذه الشركة تنشئ وكالات (Factories) فى اول الامر على السواحل الهندية وكان يحصل عليها الانجليز فى مقابل اموال

يدفعونها إلى السلطات الحاكمة المحلية. وكانت بومباى وسورات ومدارس وكلكتا اهم المناطق التى انشا فيها الانجليز وكالات لهم. ولم يشعر المغول بخطورة هذه الوكالات الصغيرة عليهم ولم يدركوا ان وراء هذه الوكالات شركة بحرية كبيرة ذات اسطول قوى يستطيع ان يضرب حصارا شديدا على الهند.

ولم يطق البريطانيون بطبيعة الحال منافسة الفرنسيين لهم بعد ماكسروا شوكة البرتغاليين واحبطوا كل محاولة قام بها الهولنديون لتثبيت اقدامهم عند بعض شواطئ الهند. وكان الفرنسيون قد بلغوا بتدبير دوبليكس مدير الشركة الفرنسية الهندية ودهائه الى مزيد من النفوذ فى الدكن وجنوب الهند. فقد استطاع هذا الداهية الفرنسى ان يدرب بعض جنود امارة حيدر آباد الدكنية وفريقا من قوات جنوب الهند على اساليب القتال الحديثة وخططه حتى صار الحاكم الفعلى لكافة الاراضى الواقعة الى الجنوب من نركرشنا والموجه لدفة الحكم فيها من وراء ستار. وعندما نشبت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ وتحارب فيها الفرنسيون والبريطانيون بأوروبا بادر دوبليكس بالهند الى اجتياح مدارس والاستيلاء على كثير من مراكز البريطانيين عند الشواطئ الشرقية وومالبث البريطانيون ان استردوا مراكزهم السابقة كلها بعد هذه الحرب اذ افلحوا بدسائسهم بالعاصمة الفرنسية فى حمل لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس. وبهذا خلا لهم الجو حتى قضوا على كل نفوذ للفرنسيين بالهند وانتزعوا منهم كل أراضيهم الاميناء يوند شرى وبعض اماكن اخرى صغيرة متفرقة فى الهند. واصطنع البريطانيون طرائق دوبليكس الاستعمارية الفذة، ومالبثوا أن ثبتوا أقدامهم بالبنغال واوده على أثر انتصارهم

الحاسم فى معركتى بلاسى (Plassy) عام ١٧٥٧ وبوكسر (Buxar) عام ١٧٦٤. وابرم البريطانيون عام ١٧٦٦ معاهدة مع نظام حيدر آباد تعهد فيها الطرفان بتبادل المعونة والمساعدة عند تعرض احد منهما للعدوان.

ويصور المؤرخ الهندى بانيكار (Panikkar) فى كتابه «آسيا والسيطرة الغربية» الحال التى أصبحت عليها البنغال بعد وقوعها فى أيدى الانجليز، فيقول:

«أنقضت على تلك الولاية المنظمة عشر أعوام كانت كل قواها فيها توجه نحو غرض واحد ... هو النهب. وكتب .. أحد موظفى الشركة ... الى سادته فى لندن بتاريخ ٢٤ مايو ١٧٦٩ يقول: لابد أن يحز فى نفس أى أنجليزى ان يكون لديه من الاسباب مايدعوه الى الظن بأنه منذ تولت الشركة جمع الديوانى سارت أحوال الناس فى هذه البلاد أسوأ مما كانت عليه من قبل ... فان هذا البلد البديع الذى كان يزدهر تحت أشد الحكام استبدادا وتعسفا أخذ يشرف على الدمار. وهناك وثيقة تسترعى الانظار شكا فيها بعض البارزين من أصحاب الاملاك الى المجلس وذكروا فى ملتمسهم: أن وكالات السادة الانجليز كثيرة كما أن كثيرا من مخازنهم التجارية موجودة فى كل مكان وبكل قرية بل تكاد تكون موجودة بكل ارجاء ولاية البنغال... وهم يتجرون ... فى جميع انواع الحبوب والمنسوجات وكل نوع اخر من انواع السلع يوجد بالبلاد ولكى يشتروا هذه السلع يفرضون نقودهم فرضا على كل فلاح حتى اذا اشتروا البضائع بهذه الوسائل الاستبدادية بثمن بخس يجبرون السكان واصحاب الدكاكين على شرائها بثمن مرتفع يزيد على

مايدفعه لها في الاسواق... الواقع انه لم يعد باقيا فى هذه البلاد شيئ تقريبا».

هكذا كان مصير البنغال على يد شركة الهند الشرقية البريطانية وقد اعان ذلك الانجليز على ان يكرروا نفس خططهم مع بقية القوى العديدة المتناحرة فى داخل الهند. فأرغموا نظام حيدر اباد على ان يسرح القوات التى كان قد دربها الفرنسيون من قبل ثم هاجموا اكبر قوة فى الهند حينذاك هى المراثها وهزموها شر هزيمة فى موقعة «اسامى» بالدكن عام ١٨٠٣ ثم قرب «بونا» عام ١٨١٥ . ولم يبق أمامهم من قوة كبيرة قادرة على التصدى للانجليز سوى امارة ميسور التى تولاها حيدر على ثم خلفه عليها ابنه فتح على اشد اعداء الانجليز.

لقد هدف البريطانيون من وراء اتفاقهم مع نظام حيدر آباد الى الحد من اطماع حيدر على امير ميسور عند الجنوب الغربى من الهند. وفى عام١٧٦٨ اضطر على بدوره الى قبول مهادنة الشركة البريطانية بسبب ضغط قواتها. وادرك حيدر على ان التفوق على الانجليز تفوقا حاسما لايمكن ان يتم عن طريق اتباع الطريقة التقليدية فى اعداد الجيوش ورأى ضرورة الاستعانة بالخبراء الاوروبيين فى تدريب وتجهيز الجيش بالمدفعية الحديثة.

ولذلك استخدم حيدر على الفرنسيين فى تحقيق هذا الهدف واستطاع ان يحقق بعض الانتصارات عندما دخل فى حرب ضد البريطانيين فاستولى عام ١٧٨٠ على كرناتيا كلها عند شاطئ كورماندل. وبعد انتهاء حرب الاستقلال الامريكية التى وقفت فيها فرنسا ضد بريطانيا نفضت فرنسا يدها

عن حيدر على وتركته يواجه الانجليز وحده ولذلك اضطر الى التراجع الى الداخل ولم يلبث ان توفى عام ١٧٨٢. وخلفه ابنه فتح على المعروف باسم تيبو فاشتبك فى حروب متواصلة مع البريطانيين عدة سنوات.

وما ان هادن البريطانيون تيبو عام ١٧٨٤ حتى عقد العزم على ان يبدأ بضرب المرائها ونظام حيدر اباد ليتفرغ من بعد ذلك للبريطانيين ويخرجهم من جنوب الهند كله وقد اخذ فى اعتباره ان فرنسا سوف تستجيب لاستنجاده بها. ولكن رسله عادوا من باريس ولم تكن فى جعبتهم سوى عبارات التشجيع والإغراء. وفى عام ١٧٩٢ اجتمع عليه اعداؤه وحاصروه فى عاصمته سرنغابتم يقودهم كورنواليس قائد شركة الهند البريطانية وأرغموه على مهادنتهم والتنازل لهم عن نصف اراضيه. ولكن انتصارات نابليون بونابرت فى اوروبا قوت من عزيمة تيبو واحرز الفرنسيون بدورهم قدرا جيدا من التوفيق فى الهند كذلك، فاسترجعوا بعض نفوذهم فى حيدر اباد وعقدوا أواصر الصداقة مع أمير ميسور واضطلعوا بتنظيم جيوش هاتين الامارتين وتدريبها. على ان القائد البريطانى ولزلى توصل بدهائه الى القضاء على النفوذ الفرنسى من جديد واسترجع اميرها الى حظيرة الشركة. فلما وجد من تيبو الاصرار على تمسكه بالضباط الفرنسيين فى جيشه وتحالف مع فرنسا سار الى مدراس فاقتحم عليه حاضرته بعد قتال عنيف سقط فيه سلطان ميسور وهو يقاتل. وبهذا قضى البريطانيون على اخر امير مسلم قوى وقف فى وجههم بالهند فى اصرار وايمان وعناء.

وبالتدريج تمكن البريطانيون من بسط نفوذهم على اهم مراكز الجنوب وعملوا على تأمين طريقهم الى الهند فوضعوا ايديهم على جزيرة سيلان عام

١٧٩٧ بعد ان كان الهولنديين يرابطون فى بعض شواطئها. كما انتزعوا من الهولنديين كذلك رأس الرجاء الصالح بعد ان تم لهم إجلاء الحملة الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ تلك الحملة التى كان نابليون يبغى من ورائها الوصول الى الهند واخراج البريطانيين منها. واحبطوا فى الغالب كل خطط الفرنسيين والروس التى هدفوا من ورائها عزلهم عن الهند وانتزاعها من ايديهم.

ولم يلبث الانجليز ان توسعوا بسرعة فى الهند ليضعوها بأسرها تحت سيطرتهم، بعد ان قضوا على مقاومة المراثها والسك والامارات الاسلامية الباقية، ولكن بقيت هناك امال لدى هذه القوى للقيام بحركة كبرى ضد المستعمر. وبالفعل تحركت قوى الهند فى ثورتها الوطنية الكبرى التى اطلق عليها البريطانيون اسم ثورة السپاهي او العصيان عام ١٨٥٧ حيث انتهى حكم بهادرشاه (١٨٣٧ - ١٨٥٧) وطويت صفحة السلاطين البابريين أبناء تيمورلنك بالهند كلها. ومما ينبغى ملاحظته هنا ان بهادر شاه نفسه لم تكن له اى مشاركة فى هذه الثورة واعتذر لزعمائها بفراغ يده من المال وانه ليس له جيش او قوة يقدمها لهم. ويصف الانجليز هذه الثورة بانها ثورة السيبوى (Sipoy) وهى كلمة انجليزية محرفة عن الفارسية وتعنى السپاهية اى الفرسان. ويتجنب البريطانيون استخدام كلمة «ثورة» وانما يستخدمون كلمة التمرد (Mutiny) غير انها فى الحقيقة كانت ثورة الهند ضد الاستعمار البريطانى برغم أنها لم تشمل كل اهل الهند ولكنها ضمت معظم القوى التى كانت قادرة على التحرك. وكانت المناطق الشمالية هى اكثرها تلبية لنداء الثورة.

ويجدربنا فى هذا المجال ان نتعرض بالتحليل للاسباب التى أدت الى قيام هذه الثورة التى تعتبر نهاية عهد وبداية عهد جديد من الاستعمار البريطانى

المباشر ومن تطور الفكر القومى فى الهند. وتتلخص هذه الاسباب فيما يلى:

اولا: انكشف وجه الحكم الانجليزى امام اهل الهند كلهم (مسلمون وهندوس) بعد ان تغلب على الامارات الاسلامية الواحدة بعد الأخرى وعلى القوى الهندوكية المختلفة واحدة واحدة. وكانت المصيبة انكى بالنسبة للمسلمين لانهم فقدوا كافة ماكانوا يتمتعون به سواء كأفراد او كأمراء. فلقد سلب الانجليز من الامراء والامبراطور حق الحكم وابقوا فى يد هؤلاء مظاهر تافهة بينما استأثرت شركة الهند الشرقية البريطانية بكل خيرات البلاد.

ثانيا: كان المسلم البسيط فى الهند يعيش جنباً الى جنب مع الهندوكى مستمرا فى عمله التقليدى ومقيما لما فرضه الله عليه من صلوات خمس. ولكنه لاحظ فى القرن التاسع عشر محاولات خطيرة موجهة ضد مذهبه ودينه. فقد انحاز الانجليز الى الهندوس وحرضوهم ضد المسلمين يسخرون بدينهم ويسومونهم العذاب وكان السك والمراثها بالذات شديدا الوطأة على المسلمين. ولم يقتصر الامر على ذلك فحسب بل كانت هناك الكثير من المذابح التى راح ضحيتها الالوف من المسلمين بسيوف السك والمراثها دون ان يجد المسلمون من الانجليز محاولات واضحة لوضع حد لهذا التقتيل الذى لامبرر له. وادراك كثير من علماء المسلمين ان هناك اتفاقا غير مكتوب بين الانجليز والسك لإفناء المسلمين بالمذابح.

ثالثاً: واذا افترضنا جدلا ان الانجليز كانوا غير مسئولين عن تلك الصدامات

«الطائفية» التى كانت تقع بين الحين والاخر فى الهند فهناك تصرفات اكدت بما لايدع مجالا للشك بان الانجليز تعمدوا تقويض دعائم الاسلام وتحويل ما يمكن تحويله من المسلمين عن دينهم فلم يهتم الانجليز بتعليم ابناء المسلمين أو حتى الابقاء على أساليب التعليم التقليدية ماضية فى طريقها فحسب، بل عمل الانجليز على تعطيل التعليم الإسلامى فى الكتاتيب والمساجد والمدارس، كما استولى الانجليز على جميع الاوقاف الخيرية الاسلامية التى كانت تعتبر المنزل الوحيد تقريبا لتلك الكتاتيب والمدارس. وفى نفس الوقت فتحوا ابواب التعليم امام الهندوس بصفة خاصة على أسس انجليزية. حقيقة كان عدد المتعملين الهندوس قليلا فى تلك المدارس قيس باعداد الهند المهولة، ولكن النتيجة التى ترتبت على تلك السياسة التعليمية هى ظهور العديد من الهندوس القادرين على المشاركة فى الدواوين الحكومية جنبا الى جنب مع الانجليز بينما لم يفز من المسلمين بتعليم راق سوى عدد ضئيل جدا بالنسبة للهندوس. وكانت هذه خطة بريطانية رسمت ونفذت بدقة متناهية. فقد عهد الى البعثات التبشيرية المسيحية بتعليم أبناء الهندوس تعليما مسيحيا، وكانت هذه البعثات تلقى بعض النجاح بين الاسر الهندوسية الكبيرة. ولكن هذا ما كان يتناسب مع المبالغ الطائلة التى كانت تنفقها شركة الهند الشرقية على المبشرين والمدارس التبشيرية. وقد اثار هذا غضب المسلمين ودفعهم الى التحرك دفاعا عن انفسهم أمام جيوش من المبشرين تنفق عليهم شركة الهند بينما منعت أموال الخيرات الاسلامية عن المسلمين وعن مدراسهم ومساجدهم التعليمية.

رابعاً: بعث اضطهاد البريطانيين للمسلمين فى الهند شعورا قويا فيهم بضرورة العمل على توحيد صفوفهم وتقوية دينهم، والتمسك بأهدابه وقوانينه، والتكاتف ضد قوى الابادة المسلطة عليهم. وفى أوائل النصف الثانى للقرن التاسع عشر، نهض سيد احمد خان، المشهور بالشهيد، يفصح عن هذا الشعور افصاحا عمليا. كان سيد أحمد خان (١٨٧١-١٨٩٨) نموذجا للزعيم الهندى الذى آمن أن الوقت قد حان للجهاد ضد قوى الوثنية، وضد الحرب الصليبية التى شنها الانجليز على مسلمى الهند. وكان سيد احمد خان متفقها فى الدين، وكانت له اتجاهات قوية نحو العودة الى نقاوة الدين الاسلامى ونبذ ماطرا على المذاهب الاسلامية من بدع أبعدت المؤمنين عن حقيقة الدين وأهدافه الاولى. وهدف سيد احمد خان الى توحيد قوى المسلمين ضد العدوان الانجليزى وعدوان السيك، وخاض سلسلة من المعارك الكبرى ضد السيك حتى خفف، كثيرا من ضغطهم على المسلمين. ولكن الجبهة الاسلامية كانت مفككة، وسرعان ماظهر من رجال الدين من ناقشه فى دعوته الى نبذ البدع والخرافات، واتهمه بالخروج عن الدين الاسلامى. ولذلك كانت حركته محدوده ولكنها ذات اثر قوية فى انعاش نفوس المسلمين خاصة بعد استشهاده.

خامساً: ويضاف الى هذا الدافع السياسى والدينى واقع اقتصادى أليم، فقد قيل: «ان المصائب التى انزلها الانجليز بالهند هى اعمق بكثير من كل ماحل بها فى الماضى، فكل الحروب والغزوات والفتوحات والمجاعات أصابت الهند سطحيا. اما انجلترا فقد دمرت اسس النظام الاجتماعى

دون ان تبدى ... رغبة فى بناء أى شئ... ان الغزاه الانجليز حطموا ودمروا المغازل الهندوسية - وبدأت انجلترا بطرد منسوجات القطن الهندية من أسواق أوروبا ثم شرعت تصدر الخيوط القطنية الى الهند، وأخيرا أغرقت بالمنسوجات القطنية التى زادت صادارتها زيادة ملحوظة فى الفترة من عام ١٨١٨ الى عام ١٨٣٦. وفى عام ١٨٢٤ بلغت صادرات الموسلين الانجليزى الى الهند أقل من مليون ياردة، وارتفعت فى عام ١٨٣٧ الى أكثر من ٦٤ مليون ياردة. وفى الفترة ذاتها هبط عدد سكان داكا من ١٥٠ ألفا الى ٢٠ ألفا. ولم يكن انحطاط المدن الهندية الشهيرة بمنتجاتها أسوأ عواقب السيطرة البريطانية. فقد دمر العلم البريطانى واستخدام الآلة البخارية من قبل الانجليز فى كل أرجاء الهند الرابطة بين الزراعة والصناعة الحرفية.

سادسا: وهناك اجماع على أن وجود المسلمين والهندوس فى الجيش البريطانى المعسكرين فى ثكناتهم فى «ميرث» هم الذين بدأوا الثورة فى مايو عام ١٨٥٧، وأن السبب المباشر لثورتهم هو ارغام الضباط الانجليز لهم على أن يقطعوا بأسنانهم قطعا من دهن مركب من دهون الخنازير والبقر لتشحيم بنادقهم. والمعروف أن المسلم محرم عليه تذوق دهن الخنزير، وأن الهندوس محرم عليه تذوق دهن البقر. ومع هذا تمادى الضباط الانجليز فى عقاب الجند الذين تذمروا، ولم يلبث الجند أن انقضوا على ضباطهم الانجليز وقتلوهم، وانطلقوا الى دلهى معلنين الثورة وسرعان ما انتشرت الثورة بسرعة كبيرة للغاية سواء فى دلهى أو خارجها فى المناطق الشمالية بصفة خاصة.

وهكذا عم الهند سخط عام على الوجود الاستعمارى فى البلاد، ولكن الهند كانت مفككة، ولم يكن هناك زعيم يستطيع توحيد الهند بشعبيها الهندوسى والاسلامى فى حركة عامة كبرى ضد الانجليز. غير ان الفكرة كانت موجودة فى المناطق الشمالية بصفة خاصة، وهى مناطق يكثر فيها المسلمون. ولهذا كانت تلك المناطق تنتظر ظرفا ملائما لكى تثور. وكانت هناك حركات سرية تبث مناشير تدعو للثورة، وكانت تحث كافة الطوائف على التحرك ضد العدو المشترك: الانجليز، وبدأت الثورة من مكان لم يكن الانجليز يتوقعه ونظراً لان الثورة قامت دون تخطيط مسبق دقيق فقد انتشرت فى دلهى دون وجود قيادة منظمة وكذلك الحال فى بقية الاجزاء الثائرة وكان أول اتجاه نحو خلق قيادة تتحكم فى توجيه الثورة يهدف الى احياء الامبراطورية المغولية واعادة السلطات كاملة للامبراطورية المغولية «بهادر شاه» الكهل. ولكن هذا الاختيار الذى وقع على الامبراطور بهادرشاه ليقود ثورة المسلمين والهندوس، كان اختيارا خاطئا. فلاهو ولا أعوانه كانوا يعرفون بأساليب الحرب والقتال الحديثة حينذاك. لقد كانوا متحمسين أكثر منهم قادة، ولهذا ستكون الثورة ثورة متحمسين يقتلون هنا وهناك، بينما كان لدى الانجليز فرص واسعة لاعادة تنظيم أنفسهم وتجميع قوات هندية من الامراء الموالين لهم فى بقية اجزاء الهند، لينقضوا على معاقل الثوار واحداً واحداً حتى صفوا الثورة والقوا القبض على الامبراطور وأخذوه أسيرا ليسير فى موكب السخرية وليطلق الضباط الانجليز النيران على أولاد الاسرى فى الطريق ليقدموهم من بعد ذلك على هيئة وجبة غذاء للاب المهيض الجناح. ولم يلبث الامبراطور نفسه أن حوكم ونفى الى رانجون فكان آخر اباطرة المغول.

وانقضت القوات البريطانية وأعوانها من رجال السيك على المسلمين بشكل وحشى فقتلوا مئات الالوف واحرقوا المدن واحرقوا الاسرى، فكانت أبشع مذبحة دبرها الانجليز الذين رأوا فى فشل هذه الثورة فرصة للقضاء قضاء مبرما على المسلمين بحيث لايستطيعون الثورة مرة أخرى. واذا كان من سوء حظ الثوار ان بريطانيا كانت قد خرجت منذ وقت قصير من حربها الظافرة ضد روسيا (فى حرب القرم ١٨٥٣-١٨٥٦) وأصبحت قواتها حرة فى التجمع فى الهند ضد الثوار وكانت فرنسا - حليفة بريطانيا حينذاك - لاتريد أن تستخدم هذه الثورة ضد حليفتها فلم تجد هذه الثورة موقفا دوليا يدافع عنها، وانما تركت لبراثن الانجليز وكانوا فى ذروة قوتهم الاستعمارية.

ويمكننا القول بأن ثورة عام ١٨٥٧ كانت بمثابة الخط الفاصل فى تاريخ الهند الحديث ففى عام ١٨٥٨، صفيت شركة الهند الشرقية بموجب بيان خاص من الملكة فيكتوريا[١]. ووضعت الهند تحت حكم التاج البريطانى مباشرة ونودى بالملكة فيكتوريا امبراطورة على الهند، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الهند مستعمرة بريطانية من جبال هيمالايا فى الشمال الى رأس كومورين فى الجنوب وان كان الانجليز قد تركوا عددا من الولايات تحت سيطرة حكامها الأصليين مع اشراف الانجليز على الشئون العامة، واصبح الحكم منذ ذلك الوقت يتولاه «نائب الملك» المسئول أمام البرلمان البريطانى عن ألمع جوهرة فى التاج البريطانى. ومنذ ذلك التاريخ تمكن خمسة الآف موظف بمساعدة سبعين ألف جندى بريطانى ومائة وثلاثين ألفا من الجنود الوطنيين من توطيد النفوذ البريطانى فى الهند ومن الاحتفاظ بالسلم فيها،

(١) انظر الملحق الخاص بذلك فى آخر الكتاب.

متبعين مقولة «فرق تسد» (Divid et imperd) الذى أصبحت تمثل بصفة اساسية سياسة بريطانية فى الهند حتى عام ١٩٤٧.

وكـات يتبع نائب الملك (Vice Roy) مجلس يختار هو أعضاؤه، ولم يملك المجلس سوى أبداء النصائح فى بعض المسائل دون أن يكون له حق الرقابة على القرارات التى يصدرها نائب الملك. وشكل برلمان هندى، أنتخب جزء صغير منه بواسطة عدد ضئيل بالغ الضآلة من مجموع السكان (نصف فى المائة)، وكان نائب الملك يعين الجزء الأكبر من أعضائه. ولم يكن من سلطة هذا البرلمان مخالفة آية رغبة من رغبات الحكومة البريطانية ويمثلها فى الهند نائب الملك، ولكن الملاحظ من ناحية أخرى أن نائب الملك؛ كان يستطيع سن القوانين، وحتى ولو كانت مخالفة لرغبات البرلمان، بمعنى أنه على الرغم من بعض صلاحيات الحكم الذاتى التى أعطيت للهنود تدريجيا الا أن جميع القرارات لا يتخذها غير نائب الملك صاحب اليد العليا فى البلاد. وقد تطور الحكم البريطانى للهند حتى قسمت البلاد الى مجموعتين:

المجموعة الأولى عبارة عن اقاليم خضعت للحكم البريطانى المباشر، فكان لكل اقليم منها حاكما بريطانياً يستمد سلطاته من نائب الملك الذى كان يقيم فى كلكتا ثم انتقل منها إلى دلهى الجديدة. وشملت هذه الأقاليم مقاطعات الحدود الشمالية الغربية والبنجاب والبنغال والسند وبلوخستان والولايات الشمالية المتحدة، ومدراس وبومبياى والولايات الوسطى وبيهار، وأورسيا فى الجنوب. أما المجموعة الثانية فتشمل الولايات التى تنازلت الحكومة البريطانية عن حكمها لأمراء مستقلين ربطت صلاتها بهؤلاء على أحد الوجهين التاليين:

١- أمراء كانوا يستمدون سلطاتهم من نائب الملك رأسا وعددهم ٣٣ أميراً ومن إماراتهم حيدر آباد والدكن وبهارولبور وبهوبال ورامبو ويحكمها أمراء من المسلمين، وميسور وترافاكور وكشمير وجواليور وجيبور وباردا وبيكانير ويحكمها أمراء من الهندوس.

٢- وكان يلى ذلك مئات من الإمارات أقل من هذه شأنا وكان معظم أمرائها يستمدون سلطاتهم من الحاكم العام للمقاطعة المتاخمة.

ويثور هنا جدل عميق حول نتائج الثورة الهندية ، ونتائج الحكم البريطانى المباشر، فلقد ذهب كارل ماركس إلى أن الاستعمار البريطانى فى الهند احدث ثورة اجتماعية فيها وهناك من يعارض هذا الرأى فيرى أن الهند لو كانت قد تركت لنفسها لسارت فى نفس التيار التقليدى نحو حكم البرجوازية ثم الثورة الشعبية والحق أن الاستعمار البريطانى أحدث ثورة اجتماعية وإدارية مضادة قام بها الانجليز عندما أنشأوا إدرات وحكومات فى الهند موظفوها من الانجليز، وليس من الهندوس أو المسلمين وعندما مدوا خطوط السكك الحديدية بواسطة الشركات البريطانية وعندما نقلوا حضارة أوروبا ليقوم على غرسها فى الهند الانجليز أنفسهم من دون أهل البلاد. ويقول ول ديورانت[١] :

«ولئن حارب الانجليز مائة واحدى عشرة حربا فى الهند، مستخدمين أموال الهند ورجالها، ليتمموا فتح الهند، فقد تمكنوا بعدئذ من نشر السلام على ربوع الجزيرة كلها، ومدوا الطرق الحديدية واقاموا المصانع والمدارس وفتحوا الجامعات فى

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة جـ٣ من المجلد الأول «الهند وجيرانها» ص ٤٠٤.

كلكتا ومدراس وبومباى ولاهور والله آباد. ونقلوا من انجلترا علومها وفنونها الصناعية الى الهند، وألمت الشرق بروح الغرب الديموقراطية. ولعبوا دوراً هاماً فى اطلاع العالم على ماشهدته الهند فى ماضيها من ثروة ثقافية غزيرة، وكان ثمن هذه الخيرات كلها طغيانا ماليا مكن لطائفة من الحكام المتتابعين أن يبتزوا ثروة الهند عاماً بعد عام قبل عودتهم إلى بلادهم الشمالية التى تثير فى الإنسان عوامل الفاعلية والنشاط، وكان ثمن هذه الخيرات طغياناً اقتصادياً قضى على الصناعات الهندية، وقذف بملايين صناعها الفنيين الى الأرض يزرعونها فلا تكفيهم طعاماً، وكان ثمن الخيرات كذلك طغيانا سياسياً كان من أثره – وقد جاء بعد طغيان «أورانجزيب» الضيق الأفق بزمن قصير – أن يميت روح الشعب الهندى قرناً كاملاً».

ونتيجة لسياسة التفرقة بين المسلمين والهندوس، نظرا المسلمون بعين الارتياب إلى المؤسسات البريطانية التعليمية أو الاقتصادية أو الاجتماعية. وابتعدوا عن الانجليز الذى قربوا بالتالى البيوتات الهندوسية اليهم، وأدى ذلك الى تفوق الهندوس على المسلمين فى مجالات الوظائف العامة والأعمال التجارية. وستكون هذه السياسة الانحيازية عاملاً أساسياً فى ظهور تيارات تحررية بعضها اسلامى المظهر، والبعض الآخر هندوكى.

فلقد ساعدت السيطرة الغربية على تفتح اذهان الهنود على أسس وقيم الحضارة الغربية فبدأت الأفكار الحرة تنتقل الى أذهان مثقفى الهند وأصبح الفكر الهندى متفتحاً على الحضارة الأوروبية. وأخذ المثقف الهندى يقرأ

مؤلفات شكسبير وديكنز ولوك وكارليل، ووصلت اليه مؤلفات كبار فلاسفة التحرر فسقط قناع التفوق البريطانى، وأصبح الانجليز مجرد شعب من شعوب أوروبا الحضارية، وانتقلت الأفكار من بعد إلى البحث فى أسباب تقدم أوروبا. واكتشف الهندى المسلم والهندوسى أن للهند مقومات حضارية تمكنها من أن ترتفع إلى مصاف الدول القيادية، ولهذا بدأت حركة التحرر، ولكنها سارت على أساس الفكر الغربى، الذى يسعى الى التحرر السياسى بالتحرر أولاً من الاستعمار البريطانى. فكانت الأهداف الأولى التى سعى اليها الهنود هى المطالبة بالحكم الذاتى.

٤ - تطور الحركة الوطنية وظهور دولة باكستان

كانت الفترة التى أعقبت فشل ثورة الهند ضد الانجليز عام ١٨٥٧ ، فترة يأس وخوف وانطواء بشكل عام. وتمثلت فى هذه الفترة قبضة بريطانيا القوية على عنق البلاد، ولاسيما على المسلمين، ولم يكن من الطبيعى أن تستمر هذه القبضة القوية. فالبريطانيون ينظرون إلى المستقبل بعين بعيدة المدى، ويعرفون نتيجة البطش المستمر، فربما يتولد عنه اتحاد قوى بين أبناء الوطن الواحد. كما كان كثير من الطلاب الهندوس، وقليل من المسلمين الذين تعلموا فى مدارس الحكومة بالهند، قد اتموا تعليمهم فى انجلترا، وما لبث الشباب المثقف بالثقافة البريطانية، والذى اطلع على مجريات الأمور الدستورية فى بريطانيا وغيرها من الدول التى أخذت بالأساليب الدستورية الحديثة، ما لبث هذا الشباب أن تكتل وأخذ يتحدث ويقارن بين الانجليز فى بلادهم، وبين ما يفعلونه فى الهند من بطش واستبداد. وهكذا ظهرت الحركات الاجتماعية التى هدفت الى تحسين حال الهند من النواحى السياسية والاقتصادية. فتأسست الجمعيات الاصلاحية فى بومباى وكلكتا ومدراس، وطافت المظاهرات الشعبية الصاخبة بالاحتجاج على حرية الصحافة الناشئة.

وبالاضافة الى هذا ، واجه البريطانيون كثيراً من الأنين والشكوى من حكم المستبد الجائر، وكانوا قد هدأت ثائرتهم بعد مضى فترة على الثورة وأحداثها. فرأوا أن يلهوا الشعب بلعبة ينفس بها عن نفسه تحت اشرافهم، فعملوا على تأسيس جمعية وطنية من أبناء الهند، يحمل أعضاؤها المظالم الى

الحاكم، وينظمونها حين عرضها حتى يمكن البحث فيها، فكانت هذه الجمعية هى نواة حزب المؤتمر الوطنى.

حزب المؤتمر الهندى The Congress:

لقد شق حزب المؤتمر طريقة الى الوجود بفضل تحمس رجل انجليزى هو ألن هيوم من موظفى حكومة الهند المتقاعدين، كما ابتكر فكرة الحزب اللورد دوفرين، نائب الملك فى الهند وقتذاك، وكان الهدف من تبنى البريطانيين لفكرة انشاء الحزب هو أن تكون هيئة المؤتمر بمثابة «صمام أمن» وأن تكون جلساته معرضاً تتبين فيه الحكومة الموالين لها من المتطرفين عليها، فحزب المؤتمر الهندى اذن لم ينشأ نتيجة قوة وطنية كتلك التى نراها فى مصر مثلاً عند انتهاء الحرب العالمية الأولى وتكوين الوفد المصرى ، ولم يدفع الى تأليفه رغبة فى استقلال ولو ذاتياً ولذلك أعلن المؤتمر فى سنواته الأولى الولاء التام للحكومة البريطانية، وكال لها ولأعمالها فى الهند المديح والثناء. وبرغم ذلك دخلت الحركة الوطنية الهندية مرحلتها الثانية عام ١٨٨٥ بظهور المؤتمر القومى الهندى الذى أصبح اللسان الناطق للحركة التحريرية الهندية.

وفى ديسمبر عام ١٨٨٤ ، اجتمع ما يقرب من ١٧ رجلاً يمثلون زعماء المجتمع ثقافياً واجتماعياً وأصدروا جميعاً برئاسة هيوم منشورا جاء فيه أن «مؤتمر الاتحاد الهندى» سوف يعقد فى بونا عام ١٨٨٥ ، ويحضره وفود تمثل كل التنظيمات السياسية، وبذلك يمكن القول أن المؤتمر الهندى قد نظم وقام رسمياً على عام ١٨٨٥ . وسوف يكون هذا المؤتمر بمثابة الخطوة

الأولى فى سبيل تكوين برلمان وطنى. وعقد المؤتمر فى بونا ورأسه بونارجى (Bonarjee) بناء على ترشيح هيوم له. وأعلن بونارجى أن بريطانيا قد فعلت الكثير لخير الهند وصالحها، واطرى ما قامت به من جهود فى سبيل اقرار النظام، وتحسين المواصلات، وادخالها التعليم الغربى فى البلاد وسعد الانجليز بمثل هذه التصريحات التى اعلنها اولئك الذين اصطنعوهم عن رأى الهند فيهم، وقد حرص الذين اصطنعوا حزب المؤتمر على ان يجعلوا فيه ممثلين للمسلمين حتى يأخذ الصبغة العامة للبلاد وسكانها، ولئن كان هذا قد لقى معارضة شديدة من جانب من المسلمين، فى الوقت الذى لقى فيه تأييداً من جانب آخر منهم، ولأمر ما كان رئيس الجلسة الاولى التى عقدت فى بومباى السيد «رحمة الله» احد التجار المسلمين المعروفين فى بومباى مع بونارجى الهندوسى ولما لم يترتب على الجلسة الاولى اى اجراء حكومى ضد اعضائها، تزايد عدد المتسببين الى الحزب حيث صاروا فى الجلسة الثانية التى عقدت فى كلكتا العاصمة وقتئذ عام ١٨٨٦ برئاسة بونارجى اربعمائة وستا وثلاثين عضواً منهم ثلاثة وثمانون مسلماً، وفى الجلسة الثالثة التى عقدت فى مدراس برئاسة «بدر الدين طيب» زاد عدد الأعضاء الى ستمائة واربعة، ولكن المسلمين ظلوا هم ثلاثة وثمانين عضواً .

ولقد اعلن حزب المؤتمر عن اهدافه التى تلخصت فيما يلى :

١- تنمية علاقات الصداقة بين زعماء الهند.

٢- تقوية روح الوحدة الوطنية والقضاء على كل التحيزات الدينية والجنسية والاقليمية.

٣- تسجيل الآراء الناضجة للطبقات المتعلمة فى الهند عن مشاكل البلاد .

وعلى هذا النحو لم يبدو حزب المؤتمر منذ البداية معبراً تماماً عن الوطنية الهندية ولكن غلبت عليه النزعة القومية الهندوسية البحتة التى تمثل الهندوس وحدهم واتضح من اهداف حزب المؤتمر انها لن تخدم مصالح المسلمين المشروعة وتواجدهم فى الهند. وظلت بريطانيا تعمل على اثارة النفوس والاحقاد بين الهندوس والمسلمين، فى الوقت الذى اضطهدت فيه المسلمين وأذلوهم خوفا من ان يرفعوا رؤوسهم - وهم الحكام السابقين للهند - فيستردوا ملكهم المسلوب، ولم يكتف الانجليز بالتفرقة بين الهندوس والمسلمين بل عملوا على ان يقسموا المسلمين الى فرق متعددة. ومن ناحية أخرى قام الهندوس بحركة قوية للقضاء على اللغة الاوردية التى اوجدها المسلمون فى الهند،و والتى تعتبر لغتهم ولغة ثقافتهم بجانب اللغة الفارسية، ويطالبون باحلال اللغة الهندية محلها مع حذف الكلمات العربية والفارسية، وتنقية اللغة الهندية منها باعتبارها آثارا بغيضة من آثار الحكام السابقين.

وكان يحرك هذه الدعوة روح تعصبية هندوسية، ترمى الى الرجوع بالهند الى عصر ما قبل حكم المسلمين، واقامة حكم هندوسى وطنى يلغى وجود «من عدا الهندوس» ولا سيما المسلمين، الذين يعتبرون فى نظر هؤلاء المتعصبين دخلاء غزاة فاتحين وتزعم هذه الدعوة هندوسى متعصب هو «تيلاك» (١٨٥٦-١٩٠٦) الذى يعتبر الهند الحاضرة احد الرواد فى بناء الهند الحديثة. فلقد اعلن كلمات رنانة دوت فى ارجاء الهند وهى «الحرية حق لى بحكم مولدى» وما يزال حتى يومنا هذا يشار إليه بالاسم الذى عرف

به فى حياته وهو «لوكامانيا تيلاك» (Lokamania Tilah) اى يتلاك الذى يحترمه الشعب وقد عبر تيلاك عن الروح القومية الهندوسية التى كانت تعادى المسمين وتكيد لهم ، فحتى عام ١٩٠٥ تركز نشاطه الاساسى فى تذكير الهندوس بما فيهم وتراثهم ومجدهم السابق وكفاحهم البطولى المرير ضد حكامهم الاجانب من المسلمين والانجليز من بعدهم.

الرابطة الاسلامية (١٩٠٦) :

وقد اثارت هذه الدعوات الفزع فى نفوس المسلمين، فرحبوا بكل اجراء يكتل جموعهم ويحمى ثقافتهم من الخطر. ونهض جماعة من المسلمين ليعملوا على تكتل يقابل التكتل او التعصب الهندوسى وان كان ذلك قد بدأ ضعيفا لأن بعض المسلمين كانوا يسيرون مع حزب المؤتمر فى اتجاهه محسنين الظن به ومعجبين بتباعده عن التبعية للحكومة، الا ان هذا التكتل كان على كل حال مقدمة طويلة جدا للتفكير فى قيام دولة اسلامية امكن أن تتحقق بعد اكثر من نصف قرن من هذه الحوادث. ويقول عباس محمود العقاد فى كتابه «محمد على جناح» (ص ٤٦) :

« ان الزعيم البرهمى تيلاك كان شريكا قويا لاحمد خان فى تدعيم بناء الباكستان وان تحريضه فى هذا الباب كان اقوى من حصن الزعيم المسلم مع اختلاف المقصد والواسطة فما من احد من رواد باكستان عمل على اقـ المسلمين بضرورة الانفصال كما عمل تيلاك». واحمد خان لم يكن يدعو الى قيام باكستان كما يفهم من كلام العقاد ولكنه كان يدعو فى اواخر

ايامه الى الحذر من حزب المؤتمر والى ان يكون للمسلمين فى الانتخابات دوائر خاصة بهم تتفق وعددهم حتى لاتطغى عليهم الاكثرية الهندوسية ويحرموا من التمثيل فى المجالس البلدية وغيرها تلك التى بدأ الانجليز يدخلونها فى الهند ليلهوا بها الشعب.

وهكذا نظر فريق من المسلمين الى المؤتمر نظرة مريبة ورأوا أنه بكثرته الهندوسية واتجاهه الذى يغلب عليه الطابع الهندوسى يمثل طغيان الاكثرية على الاقلية ويمكن ان يعمل على اقامة حكم هندوسى خالص يلغى فيه وجود المسلمين. ومن اجل ذلك حاربوا المؤتمر ودعوا الى مقاطعته وكان على رأس هذه الجماعة سيد أحمد خان. بينما كان هناك فريق آخر من المسلمين يرون فى تكتلهم مع المؤتمر مصلحة عليا. ولكن هؤلاء لم يكونوا كثيرين فى المؤتمر ولعل السبب فى ذلك يرجع الى الحملة التى شنها كثير من مفكرى المسلمين على المؤتمر واهدافه الهندوسية وعلى اشتراك المسلمين فيه. كما يرجع ذلك ايضا الى قيام جماعة اخرى ذات مظهر اسلامى فى كلية «عليكرة» بتشجيع من المدير الانجليزى مستربيك وسميت جماعة «احباء الوطن». وقد اصدرت هذه الجماعة بيانا ضد حزب المؤتمر وطاف بعض اعضائها انحاء الهند يدعون الى الانضمام لهذه الجماعة والتنفير من الانضمام للمؤتمر وكان من اعضاء هذه الجماعة البارزين سيد احمد خان الذى اعلن انه لايجوز للمسلمين ان ينضموا الى المؤتمر لأن الأغلبية الهندوسية توجهه كما تريد لمصالحها الخاصة وانضم الى الجماعة بعض العلماء واصدروا فى عام ١٨٨٨ فتاوى تؤكد ان اشتراك المسلمين فى المؤتمر

حرام. ومن ناحية اخرى قام بعض العلماء الآخرين باصدار فتاوى ضد فتوى العلماء السابقين اعلنوا فيها: ان الاشتراك فى المؤتمر ليس بحرام ودعوا المسلمين الى الانضمام اليه. كما اعلنوا ان الاشتراك فى جماعة «أحباء الوطن» التى ألفها مستربيك الانجليزى حرام. ووقع على هذه الفتوى كثير من العلماء ونشرت فى كتيب عنونوه باسم «نصرة الابرار».

وقد ادى ذلك الى اضعاف جماعة «احباء الوطن» فانسحب منها الكثيرون وفشلت ولكن مستربيك ومن معه لم ييأسوا ففى عام ١٨٩٣ الفوا جماعة اسلامية اخرى اشترك فيها المسلمون والانجليز معا وسموها «الجماعة المحمدية الانجليزية» وجعلوا من اهدافها: حفظ حقوق المسلمين السياسية من طغيان الهندوس عليها، وفى الوقت نفسه تهدئة نفوس المسلمين السياسية ومنعهم من التمرد المشهور عنهم ضد الانجليز، والحيلولة بينهم وبين الاشتراك فى الثورات والحركات السياسية المعادية لهم مع تقريب وجهات النظربين الفريقين وهو الهدف الذى كان يشغل سيد احمد خان. وعندما توفى سيد احمد خان عام ١٨٩٨ وتبعه مستربيك فى العام التالى تولى امر الجماعة «مستر مارلن» مدير عليكرة الجديد وفى ذلك الوقت قامت الاضطرابات فى مقاطعة «يوبى» الشمالية بين المسلمين والهندوس بسبب مهاجمة الاخيرين للغة الاوردية. وتالفت جماعة اخرى باسم Mohamme-dan Palitical Organization اى الجماعة السياسية المحمدية لتعمل على نفس الهدف الذى كانت تعمل عليه الجماعتان السابقتان. ومما لاشك فيه ان هذه الجماعات تألفت فى رحاب الانجليز وتبنت الفكرة السياسية التى

نادى بها سيد احمد خان. ورغم مالاقته هذه الجماعات من معارضة شديدة فإنها كانت ذات أثر كبير فى لفت نظر المسلمين الى العناية بكيانهم الخاص وتمثيلهم فى انتخابات المجالس المحلية حرصا على حقوقهم ازاء الكثرة الساحقة من الهندوس.

ومن هذا يتضح ان مصلحة الانجليز كانت تتمثل فى خلق هذه التفرقة بين الشعب حتى لايتلاقى المسلمون مع الهندوس ويتفقوا فتكون نهاية الاستعمار. واتباعا لهذه السياسة خطى الانجليز خطوتين فى اوائل القرن العشرين نحو تقوية الجبهة الاسلامية وارضائها والخطوة الاولى كانت عبارة عن قرار اتخذه اللورد كيرزون (Curzon) عام ١٩٠٥ بتقسيم البنغال بين المسلمين والهندوس. وقد اغتبط المسلمون بهذا التقسيم وعدوه مقدمة لانشاء ولايات خاصة بهم يحكمونها بانفسهم، بينما ثار الهندوس ورأوا فى ذلك تشجيعا للمسلمين لكى يقتطعوا بعض المناطق منهم وهم يعملون على ان تعود الهند هندوسية. وقد وقف حزب المؤتمر وقفة عنيدة ضد هذا التقسيم لما راى فيه من اخطار على مستقبل الهند، كما يراه ويرسمه، حتى المسلمون فى حزب المؤتمر كانوا يعارضون هذا التقسيم وكان محمد على جناح فى ذلك الوقت من اعضائه ومن اشد المتحمسين ضد التقسيم، وقد وقف محمد على جناح هذا الموقف لأنه «كان فى مبدأ امره من المنادين العاملين للوحدة بين المسلمين والهندوس والمتحمسين لها حتى اطلقوا عليه لقب رسول الوحدة واقاموا له قاعة فى بومباى باسم رسول الوحدة اعترافا من الهندوس بمساعيه فى هذا السبيل. «وبسبب ثورة» الهندوس بزعامة حزب المؤتمر

تراجع الانجليز واطلقوا التقسيم عام ١٩١١ واصابوا المسلمين بخيبة امل شديدة.

اما الخطوة الثانية التى خطاها الانجليز تملقا لعواطف المسلمين وايغا لا فى التفرقة بينهم وبين الهندوس فكانت استجابتهم لمطالب المسلمين الخاصة بتحديد مقاعد خاصة بهم فى الانتخابات المحلية حتى لاتطغى الكثرة الهندوسية عليهم لو اجريت الانتخابات بطريق التصويت العام فيحرم المسلمون من التمثيل. وكانت هذه المطالب بايعاز من الانجليز. ونتيجة لذلك قام كبار المسلمين الذين يمثلون هذا الرأى بكتابة العرائض وجمع التوقيعات عليها وفى اوائل اكتوبر عام ١٩٠٦ توجه وفد مكون من ستة وثلاثين عضوا لمقابلة نائب الملك فى «سمة» حيث كان يقضى هناك فترة الصيف وقدموا له العرائض. وكان هذا تحولا ملموسا ظل الانجليز مدة من الزمن ظامئين اليه وكان تقربا محسوسا انهى ظاهرا - جو العناد والجفاء الذى كان قائما بين عامة المسلمين والحكام الانجليز.

وكان تأليف هذا الوفد الذى رفع مطالب المسلمين لنائب الملك ونجاحه فى مهمته عاملا مشجعا للقائمين به على ان يخطوا خطوة اوسع ويؤلفوا جماعة تنطق باسم المسلمين وترعى حقوقهم. فاصدر نواب «داكا» سليم الله خان بيانا بهذا الغرض، وفى ٣٠ ديسمبر عام ١٩٠٦ اجتمع الذين وافقـ على فكرته تحت رياسة «نواب» وقار الملك واسسوا جماعة اطلقوا عليها اسم «الرابطة الاسلامية» وجعلوا اهم اهدافها:

١- حماية حقوق المسلمين والتقدم بمطالبهم الى الحكومة.

٢- تقريب وجهة النظر بينهم وبين المستعمر وازالة الفجوة التى كانت قائمة من قبل. حتى يستطيع المسلمون الحصول على حقوقهم.

٣- على ان ذلك لايعنى التحرش بالطوائف الاخرى بل يجب ان يظلل الجميع المودة وحسن التفاهم.

وبقيام هذه الجماعة اصبح للمسلمين هيئة خاصة بهم تتحدث باسمهم وترعى مصالحهم. لقد ولدت الرابطة الاسلامية فى حجر الارستقراطيين وتألفت فى المستوى الراقى من المسلمين الذين عقدوا صلات مع الحكام الانجليز. وهى وان كانت تطالب بحقوق المسلمين الا انه كان من المسلمين كثيرون فى المؤتمر يؤيدونه فى اتجاهه كما كان فى المسلمين من يرفضون اى اتصال بالانجليز مهما تكن دواعيه فلم يرق لهم مافعله القائمون بتأسيس الرابطة الاسلامية من الاتصال بهم والالتجاء اليهم. ولقد ظلت «الرابطة الاسلامية» هيئة سياسية محدودة النشاط قادرة على مواجهة تفوق «حزب المؤتمر» حتى مال محمد على جناح - عضو لمؤتمر الهندى - الى الرابطة ابتداء من عام ١٩١٣.

ومنذ ذلك الوقت بدأ فى جو الهند هيئة المؤتمر التى تقول: انها تمثل عامة سكان الهند وبجانبها الرابطة الاسلامية التى تقول: انها ترعى حقوق المسلمين واحزاب اخرى او جماعات: اسلامية وغير اسلامية. ولكن الذى بقى قويا على مجرى الحوادث وكان له طابعه فى مستقبل الهند هما: هيئتا

المؤتمر والرابطة كانا يلتقيان حينا في جهودهما ضد الاستعمار ويختلفان احيانا في ارائهما الداخلية حتى تطور الخلاف الى صراع عنيف انتهى آخر الامر الى تقسيم الهند وقيام باكتسان.

وفي خلال الحرب العالمية الاولى قويت الدعوات الى استقلال الشعوب سواء قبل صدور مبادئ ولسن الاربعة عشرة او بعدها. ولكن هذه المبادئ الهبت حماس الشعوب المهيضة الجناح. واتجهت الحركة الوطنية بزعامة غاندى الى الضغط بقوة على بريطانيا من اجل استقلال الهند، وفي الجانب الاسلامي الهندى كان المسلمون الهنود يسعون كذلك الى تحرير الهند من الانجليز والى انقاذ الخلافة العثمانية (الاسلامية) من براثن الانجليز وكانت هذه حركة عاطفية شديدة لدى مسلمي الهند ولعلهم رأوا في سقوط الخلافة سقوطا لهم في اعين كل من الانجليز والهندوس. ولكن محمد على جناح كان فوق هذه الاتجاهات العاطفية وراى ان عهد الخلافة قد ذهب وانقضى وان على مسلمى الهند ان يحددوا، اهدافهم بشكل واقعى.

ولقد اتخذت الحركة الوطنية الهندية عدة مسارات او اساليب متقاربة كاسلوب العنف واللاالتعاون والمقاومة السلبية والعصيان المدنى والمقاطعة بمعناها الواسع لكل شئ ومقاطعة البضائع الاجنبية بصفة عامة والبريطانية بصفة خاصة. وليست هذه المسميات مترادفة كما يعتقد البعض أوهي معنى لشئ واحد ولكن استخدمت كل منها بمعناها في فترة معينة حتمتها الظروف. ولقد كان المهاتما غاندى هو مؤسس تلك الافكار ورائد هذه

الحركة الوطنية. وقد تأثر غاندى فى افكاره بـ«ثورو» (Thoru) الكاتب الامريكى الذى هجر المدينة الى الريف والغابة واكتفى باقل الطعام واللباس وهو صاحب كلمة وفكرة «العصيان المدنى» (Civil Disobedience) التى نقلها غاندى وعمل بها. فهى ليست جديدة على الفكر الانسانى وليست من اختراع غاندى كما يعتقد البعض. كما تأثر غاندى بـ«تولستوى» وهو أعظم من اثر فى ذهن غاندى بمؤلفاته ومن فرط حبه له اسس فى جنوب افريقية «مزرعة تولستوى» المكونة من ١١٠٠ فدان والف شجرة وكان تأثير غاندى العظيم على الفلاحين يرجع جزئيا الى اسلوبه الواضح والقوى فى الكتابة وطبعه الهادئ واجادته للانجليزية مما سهل اتصالاته وتفاهمه مع قطاعات كبيرة من الشعب علاوة على فلسفته فى الكفاح التى كانت تساير الديانة الهندوسية وبساطة اسلوبه فى الكفاح الذى لم يكن يكلف المواطن الهندى سوى القدرة على الصبر والصوم والسلبية والتقشف بمقاطعة شراء البضائع الاجنبية والبريطانية. ويمكن تخليص فلسفة الحركة الغاندية فى عنصرين اساسيين:

أولا: الدعوة الى الاستقلال النفسى والاعتماد على القوة الروحية ومايتبعها من تقشف والمقاومة السلبية جزء من هذه الدعوة.

ثانيا: الدعوة الى الاستقلال الاقتصادى بمعاودة استعمال المغزل والاعتماد على الاقمشة الهندية ونبذ الاجنبية التى ترد الى الهند وتحققت هذه الدعوة بمقاطعة البضائع الانجليزية واحراقها فى بعض الاحيان. وقد كان

في ذلك فائدة مزدوجة لقتل فراغ الفلاح الهندى فى انتاج ما يخفف من فاقته والاضرار بالمستعمر بغلق السوق امام بضائعه وفى هذا تحقيق للاستقلال الاقتصادى وبذلك يمكن القول انه كان مصلحا اجتماعيا علاوة على زعامته السياسية.

لقد كان الاختلاف واضحا بين حزبى المؤتمر والرابطة حول العنف وعدم العنف فى كل التصريحات والقرارات التى تدين الاستعمار البريطانى فى الهند. وقد حاول غاندى أن يتبع المسلمون أسلوب عدم العنف والنضال فى سبيل الحق بالطرق السلمية وهذا لايتفق مع العقيدة الاسلامية التى تحض على الجهاد الايجابى بالمال والنفس فى سبيل الله والدين والوطن. لقد نادى الاسلام بالمثالية ونادى أيضا بالواقعية بالدفاع عن النفس والاقتصاص من الظالم. كما اعتبر المنتصفين ممن ظلمهم، والمجارين لهم، الثائرين عليهم من المؤمنين الصادقين فقال الله تعالى فى كتابه الكريم: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾[1] وقال: «ولمن انتصر بعد ظلمة فأولئك ماعليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق».

وفى نفس الوقت انتقد محمد على جناح غاندى عندما ابتدع سياسة المقاطعة والعصيان المدنى. وكانت وجهة نظر محمد على جناح وعدد آخر من زعماء المسلمين أن المقاطعة السلبية تضر بالشعب الفقير أكثر مما تضر بالانجليز وان الالتجاء الى المغزل وهو ركن أساسى فى سياسة غاندى التحررية

(١) سورة البقرة.

ليس سوى رجعة الى الماضى وخير منها انشاء المصانع كى تستطيع الهند أن تقف بقوة أمام مصنوعات بريطانيا، وفى هذه الحالة تستطيع الهند أن تقاطع البضائع الانجليزية بنجاح دون أ ى اضرار بمصالح الشعب نفسه، وكما رأى محمد على جناح فى حركة الدفاع عن الخلافة حركة تقدم على العاطفة وانتقدها رأى فى «الساتيا جراها» - اى العصيان المدنى - وفى «المغزل» اسلوبا من اساليب السياسة التى تعتمد على العاطفة لاعلى الواقع. كذلك انتقد غاندى عندما لقب بالمهاتما على اعتبار ان غاندى يسير فى طريق هندوكى واضح لايمكن ان يحفظ للمسلمين بعد استقلال الهند - حياتهم وارواحهم وعقيدتهم من تعديات المتعصبين الهندوكيين وكانوا كثرة بلاشك.

وقبيل الاستقلال اخذت الرابطة الاسلامية «تتطور وتنظم نفسها ووجدت فى محمد على جناح زعيما مقتدرا واصبح الشاعر الدكتور محمد اقبال فيلسوفها. لم يكن اقبال مشهوراً لدى المسلمين وغيرهم لاشتغاله بالأمور السياسية ولكن عرفه المسلمون واحبوه وتابعوا افكاره وخطواته عن طريق شعره الإسلامى الذى كان يلهب به مشاعر المسلمين ويثير فى نفوسهم عزة الاسلام والحرص عليه وعلى تعاليمه وثقافته. فكانت افكاره هذه تقود جماهير المسلمين وتحيى فيهم الامل فى نهضة اسلامية تعيد اليهم امجادهم القديمة. ومن هنا كانت اشعاره تعد فى نظر كثير من ساسة الهند باعثة وموجهة لشعور المسلمين الى الانفصال كطريق حتمى لتكوين شخصيتهم الاسلامية حيث يكونوا احرارا فى احياء ثقافتهم وحضارتهم. وقد انتخب اقبال رئيسا للرابطة الاسلامية فى دورة عام ١٩٣٠ ووقف يتحدث عن تكوين

دولة خاصة بالمسلمين واخذ يسرد الاسباب والحوادث التى تؤيد رأيه ودعوته وقال: «لو اننا جعلنا دستور السياسة ونظام العمل قائمين على اصول الاسلام ومبادئه فى الهند وحدها لأشهدنا العالم امة مثالية تؤثر فى حياة جميع المسلمين وربما امتد اثرها كذلك الى جميع اقطار الكون وهذا هو الهدف الذى تصبو اليه حين نحاول ان ننشئ فى الهند مدنية ممتازة وحضارة متميزة».

لقد اختلف حزب المؤتمر والرابطة الاسلامية اختلافا جوهريا بشأن طبيعة المجتمع الهندى والنظام السياسى الذى يجب ان يكون بعد انسحاب بريطانيا. وفى نفس الوقت اشتدت معارضة محمد على جناح لغاندى ولحزب المؤتمر وزاد من ارتباطه بالرابطة الاسلامية تعاون الحكم البريطانى مع حزب المؤتمر على اصدار دستور للبلاد يعطيها طابعا هندوكيا ويؤدى الى القضاء على المسلمين فى المستقبل البعيد. وحاول محمد على جناح ان يثنى غاندى وزعماء المؤتمر الهندى عن هذا الاتجاه دون جدوى ولهذا وضع مبادئه الأربعة عشرة امام المسئولين فإما ان يقبلوها فيقبل هو والرابطة الاسلامية الاشتراك فى الحركة الوطنية الواحدة ضد الانجليز والا فسيطالب بانفصال المسلمين عن الهندوس فى كافة المجالات. وقد اشتملت مبادئ وشروط محمد على جناح على مايلى:

١ - سن دستور اساسى للهند يخول لكل مقاطعة الصلاحية التامة فى الحكم المباشر.

٢- مساواة جميع المقاطعات فى الحقوق والامتيازات.

٣- مراعاة حقوق الاقليات فى سائر المقاطعات وتخويلهم حق التمثيل النيابى فى سائر المجالس النيابية والتشريعية وحماية حقوقهم ضد ضغط الاكثرية.

٤- ان يكون ربع المقاعد لممثلى المسلمين فى المجالس النيابية الذى سيؤسس بمقتضى الدستور.

٥- ان ينتخب الاعضاء الممثلون للفرق والطوائف انتخاباً مستقلا مع تمتعهم بالصلاحية التى ينص عليها الدستور.

٦- ان لايكون فى تغيير النظم التى ستجرى فى سائر المقاطعات مايمس الحقوق والمزايا التى تتمتع بها الاكثرية المسلمة الموجودة فى مقاطعات البنجاب والبنغال والحدود الشمالية.

٧- ان يضمن الدستور الهندى الجديد الحرية التامة المطلقة لجميع الملل والمذاهب من اقامة الشعائر والتعليم وغير ذلك.

٨- ان لاينفذ أى قانون أو اية لائحة فى مجلس من المجالس التشريعية او النيابية فى اية مقاطعة من المقاطعات ويكون ذلك القانون او تلك اللائحة تمس قوما من الاقوام او طائفة من الطوائف مالم يوافق على ذلك ثالثة اربا ع الاعضاء من ممثلى تلك الطائفة.

٩- فصل مقاطعة السند عن بومباى فصلا تاما بغير قيد او شرط.

١٠- ان تنظم مقاطعتا الحدود وبلوخستان تنظيما يتفق والحالة التى عليها سائر المقاطعات.

١١- مراعاة حقوق المسلمين فى سائر الامارات المستقلة بما يتفق والحرية الدينية التامة والعدالة الكاملة الحقوق والوظائف.

١٢- أن يضمن الدستور الهندى الجديد الحرية التامة للمسلمين فى إقامة شعائرهم الدينية وصيانة حقوقهم ومقدساتهم وأماكن معتقداتهم والمحافظة على ثقافتهم الدينية، فى التعليم والتبليغ واللغة فى سائر المقاطعات والولايات المستقلة وان تخصص كل ولاية منحة مالية تصرف سنويا على الشئون الاسلامية.

١٣- أن لاتؤلف وزارة من الوزارات أو حكومة من الحكومات فى المقاطعات الهندية مالم يمثل فيها المسلمون بنسبة الثلث.

١٤- أن لايقبل اى تعديل أو تغيير فى الدستور الهندى الاسلامى الابعد أخذ رأى وموافقة سائر المقاطعات.

ولكن أصر زعماء حزب المؤتمر على ان يسيروا فى الحركة الوطنية بدون محمد على جناح وبدون الرابطة الاسلامية. وشجعهم على ذلك ان عددا ليس بالقليل من الزعماء المسلمين كان متعاونا الى اقصى حدود التعاون مع المؤتمر الهندى ليس عن خيانة وانما عن اقتناع من [illegible]بهم بقيمة الهند الموحدة المستقلة. ولكن كانت كل حركة تحررية هندوسية لاتحظى بموافقة

الرابطة الاسلامية ولاتحرز نجاحا كبيرا، ولهذا فشلت الاتصالات الهندوسية البريطانية، وعاد غاندى الى سياسة العصيان المدنى ويبدوا ان الانجليز ارادوا فى هذه الظروف أن يتجاهلوا المؤتمر الهندى ويفتحوا الباب أمام اتصالات مباشرة بين الرابطة الاسلامية وبينهم عام ١٩٣١ . ولاشك أن الانجليز كانوا هم الرابحين من وراء التفاوض مع هذا الطرف تارة ومع ذلك الطرف تارة أخرى.

ومهما كانت خطورة تلك الصراعات الطائفية الا انها كانت دائما موجهة ضد الوجود البريطانى وكانت تكاليف السيطرة على الامن وعلى البلاد قد أصبحت باهظة. الامر الذى جعل الانجليز يتجهون فعّلا الى اعطاء الهند استقلالا . وكان اصدار دستور عام ١٩٣٥ مقدمة لهذه الخطوة. ونتجت عن هذا الدستور مشكلة خطيرة. لقد نص دستور عام ١٩٣٥ «على» أن تضم كل وزارة اقليمية اعضاء من احزاب الاقلية، وأن يكون لكل طائفة ناخبوها، حيث يصوتون فى انتخابات خاصة. وأوجدت هذه التفرقة معسكرات فى البلاد الهندية وأكدت فصم عرى الوحدة بينها، وأخذ الزعماء يعملون لحساب طوائفهم واصبح الطريق الى انفصال المسلمون أمراً محتماً وغاية مؤكدة، فما أن أقبلت انتخابات عام ١٩٣٧ حتى أخذ المسلمون والهندوس يعدون للفوز بأغلبية المقاعد، وأضحى الفريقان كجيشين متحاربين فى ميدان المعركة يحمل أحدهما علم الرابطة والاخر علم المؤتمر.

وبالرغم من ان هذا الدستور لم يرض به المؤتمر ولا الرابطة، الا أنهم رأوا دخول الانتخابات على أساسه. وقد اكتسح حزب المؤتمر اغلبية المقاعد فى

ست ولايات، وخسرت الرابطة هذه الجولة، وشغل رجال المؤتمر مناصب الوزارات. ولم يطمئن محمد على جناح ومن ورائه الرابطة، لهذا الفوز الذى ناله خصومه، وأعتبر حكم رجال المؤتمر واشتراكهم فى الوزارات مبدأ لتحكم الاكثرية الهندوسية فى الاقلية المسلمة. وقد أثلجت هذه النتيجة السارة صدر الزعيم الهندى جواهر لال نهرو فقال «لم يعد فى الهند غير حزب المؤتمر وبريطانيا». وغضب محمد على جناح من التصريح واعتبره الغاء أو عدم شعور، بوجود الرابطة ورد عليه بتصريح جاء فيه «بل يوجد حزب ثالث هم المسلمون،.. اننا لانأتمر بأمر أحد، بل اننا نتعاون مع أية جماعة تعمل على تقدمنا، وانجاح سياستنا ونحن لانود أن نكون أتباع أى حزب، وأن نكن على استعداد للعمل على قدم المساواة لرفاهية الهند وخيرها» ويبدو من التصريح أن محمد على جناح كان لايزال بعيدا عن فكرة التقسيم التى نادى بها الشاعر محمد اقبال عام ١٩٣٠. وظل جناح – برغم شدة تأثره باقبال، وبرغم اتصال اقبال به – ظل على رأيه فى أن يعيش المسلمون والهندوس جنبا الى جانب فى دولة كبرى هى الهند. وتوفى اقبال فى ابريل عام ١٩٣٨ والرابطة ترفض اعترافها بمشروعه. وكان كل مايشغلها هو تحقيق مطالب المسلمين المشروعة فى ظل الدولة الكبرى، والعمل لتقوية نفوذها فى الوسط الشعبى للمسلمين حتى لاتمنى بما منيت به من هزيمة فى انتخابات عام ١٩٣٧. وأخذ جناح يعمل من ناحيته على تقوية الرابطة فى القطاع الشعبى حتى فازت فى الانتخابات الفرعية التى اجريت فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٣٩.

وعندما قامت الحرب العالمية الثانية، أعلن نائب الملك فى الهند دخولها

مع بريطانيا فى هذه الحرب دون استشارة أحد من زعمائها . وعارضت جميع احزاب الهند الطريقة التى تم بها ادخال الهند الحرب، وانقسم حزب المؤتمر على نفسه بين مؤيد ومعارض حتى انتهى الامر به أخيرا الى اقرار مبدأ دخول الهند الحرب اذا أعطتها بريطانيا الضمانات الكافية لاستقلالها موحدة عقب الحرب ولما لم تعط بريطانيا وعدا صريحا بذلك، قرر حزب المؤتمر عدم الاشتراك فى الحرب، ودعا الى مقاطعتها. ومن ناحية أخرى، عقدت الرابطة الاسلامية اجتماعا عاما فى لاهور عام ١٩٤٠ شهده جميع المسلمين المنضمين للرابطة وفى هذا الاجتماع راجعت الرابطة برنامجها، وحددت أهدافها، ومطالبها، واتخذت قرارا خطيرا نادى بفكرة محمد اقبال التى اعلنت عام ١٩٣٠، وهى انشاء الدولة الاسلامية فى الهند واقامة باكستان. وذكرت الرابطة فى هذا القرار «انها لن تقبل أى تعديل فى الدستور أو ترضى اى حل الا اذا قام على أساس ايجاد حكومة»، ديموقراطية اسلامية، تجمع بين الولايات التى للمسلمين فيها أكثرية معتبرة» وهكذا أصبحت دعوة محمد اقبال التى دعا اليها عام ١٩٣٠ برنامجا محددا واضحا للرابطة فى عام ١٩٤٠ لاتحيد عنه فى محادثاتها وتفاهمها مع حزب المؤتمر أو بريطانيا.

تمسك محمد على جناح بمبدأ التقسيم لايتزحزح عنه، غير مبال بما يتهمه به خصومه من أنه بموقفه هذا يساعد على بقاء الوضع الراهن فى الهند، أى الاحتلال». لقد كانت الخلافات عميقة بين الفريقين: المسلمين

والهندوس. ولقد صور محمد على جناح فى عبارة موجزة دقيقة أسس الخلافة بين الطائفتين فقال:

«نحن من الجنس الآرى وهم درافدا ... ونحن من أهل الكتاب وهم وثنيون يعبدون البقرة ويقدسون الحيوانات وسنظل الى آخر الدهر نذبح هذا المعبود ونأكله، وسيظلون هم الى آخر الدهر يقدسونه ويعبدونه. هم يتكلمون الهندوستانية ولايريدون عنها بديلا ابطال تاريخينا أعداؤهم لأنهم دحروهم وهزموهم وأبطال تاريخهم أعدائنا لأنهم دحرونا، وهزمونا، ويوم يحتفل آحد الفريقين بذكرى أبطاله يبكى آخر حزنا وحسرة، ولايمكن أن تزول الخلافات بيننا وبينهم، ولم نثق فى وعودهم فقد حاولنا رأينا رمنيا أكثر من مرة وحكومة المؤتمر دليل على صدق قولى وفظائعها معنا شهيد على ذلك فلن نقبل بعد الآن أن يحكمنا الهندوس وهم كثرة ونحن قلة، فمثل ذلك، فناؤنا النهائى وفرصتنا الوحيدة باكستان، وسنريق دمائنا الى آخر نقطة فى سبيل تحقيقها. فالمناطق الاسلامية يجب أن يحكمها المسلمون، والمناطق الهندوسية يحكمها هندوس وستبقى أقلياتنا عندهم وأقلياتهم عندنا فيحفظ التوازن ويطمئن الطرفان الى العدالة والمساواة».

وعندما عارض حزب المؤتمر دخول الهند الحرب الا بعد الحصول على ضمانات معينة ألقت بريطانيا القبض على بعض زعماء الحزب البارزين وعلى رأسهم غاندى وأبو الكلام آزاد، وحكمت عليهم بالسجن لفترات قصيرة. ورأت اللجنة العامة لحزب المؤتمر أن الاجراء الحقيقى لممارسة الحرية والديمقراطية هو انهاء الاستعمار. وفى عام ١٩٤٥، دعا اللورد ويفل زعماء حزب المؤتمر مع غيرهم من الزعماء لحل مشكلة الهند فى مؤتمر «سملا»، وكان مصير هذا المؤتمر هو الفشل، فلقد أظهر عمق الهوة بين اتجاهى كل من حزب المؤتمر والرابطة الاسلامية. وعندما تولت حكومة العمل فى بريطانيا الحكم عام ١٩٤٦، عملت على اجراء انتخابات عامة جديدة فى الهند. وقد انتهت الانتخابات هذه المرة بفوز ساحق للرابطة الاسلامية ووجهة نظرها فى التقسيم. فأحرزت الرابطة كل المقاعد المخصصة للمسلمين فى المجلس المركزى و ٤٧٧ مقعدا من ٤٩٥ مقعدا فى المجالس الاقليمية المخصصة لهم، بينما أخذ المسلمون التابعون للمؤتمر، والذين يمثلون وجهة نظره، هم والمستقلون ٤٩ مقعدا فقط، كما أسفرت الانتخابات عن فوز المؤتمر فى دوائر الهندوس.

وأرسلت الحكومة البريطانية السير ستافورد كريبس الى الهند ليبحث مع الزعماء فى ايجاد حل للنظام المقبل. وفى أثناء ذلك تجددت الاضطرابات بين المسلمين والهندوس وكثرت المذابح الطائفية. وعندما اختار نائب الملك جواهر لال نهرو نائبا لرئيس الوزراء فى ٤ أغسطس عام ١٩٤٦ وأهمل الرابطة الاسلامية وزعيمهما، حمل محمد على جناح على هذا التصرف

حملة شعواء، ودعا المسلمين الى الاحتجاج عليه برفع أعلام سوداء على بيوتهم ومتاجرهم كاحتجاج صامت على تولى الهندوس السلطة وتزايدت الاضطرابات العنيفة بين المسلمين والهندوس فى كلكتا مما أفزع مضاجع المسئولين فى لندن والهند، وأرادوا الوصول الى حل للخروج من شبح الحرب الأهلية الرهيب. ولم يعد هناك مفر من التسليم بالأمر الواقع والرضوخ لفكرة التقسيم، التى أصبحت عقيدة المسلمين حتى يمكن أن تهدأ هذه الفتنة الهوجاء.

وفى ديسمبر عام ١٩٤٦، عقد مؤتمر فى لندن حضرة أتلى، رئيس وزراء بريطانيا ونهرو ومحمد على جناح. وقد فشل هذا المؤتمر لعدم امكانية وضع دستور يرضى كل الأطراف والاحزاب المعنية، فقد عارضت كل منهما الأخرى ولم تتمكن من الوصول الى اتفاق يرضيها. وقد بدا فى هذا المؤتمر وضوح السياسة البريطانية فى تأييدها لحل تقسيم الهند بعد الاضطرابات الخطيرة التى وقعت بين المسلمين والهندوس. وفى فبراير ١٩٤٧ عينت الحكومة البريطانية اللورد مونتباتن نائب للملك فى الهند وزودته بتعليمات جديدة لوضع نظام سريع حول تقسيم الهند. وفى نفس الوقت، أعلن أتلى فى مجلس العموم البريطانى «ان الحكومة البريطانية ترى عمل اجراءات ضرورية لنقل السلطة فى التاريخ المحدد بميعاد غايته يونيو عام ١٩٤٨ الى حكومة هندية مسئولة، وأن حكومة صاحب الجلالة تدرس امكانية قيام حكومة مركزية للهند البريطانية لنقل السلطة فى التاريخ المذكور اليها بما يحقق مصالح الشعب الهندى».

وفى ٢٢ مارس عام ١٩٤٧، وصل اللورد مونتباتن الى الهند، ولكن الوضع كان لايزال خطيرا. فقد وصل الشغب فى البنجاب ذروته وبدأت الاضطرابات أيضا فى اقليم الحدود الشمالي الغربى. وأصدر غاندى ومحمد على جناح اعلانات مشتركا استنكرا فيه استعمال القوة للوصول الى الاهداف السياسية، وطالبا بوقف أعمال العنف والفوضى، وهكذا أيد محمد على جناح والرابطة سياسة عدم العنف بعدما وضحت السياسة البريطانية واقتناعها بوجوب استقلال المسلمين عن الهندوس. وبسبب القلق المتزايد، ولتحاشى المزيد من الثورات والاضطرابات، لم تلتزم الحكومة البريطانية بالموعد الذى حددته لنقل السلطة وهو يونيو ١٩٤٨. وقبل حزب المؤتمر تحت ضغط هذه الظروف فكرة التقسيم، وأعلنت الموافقة على مشروع التقسيم يوم ٣ يونيو عام ١٩٤٧. وأذاع زعماء الطوائف الثلاثة الكبرى فى الهند (جواهر لال نهرو، ممثل الهندوس، ومحمد على جناح ممثل المسلمين، والسردار بالديف سنغ ممثل السيك)، أذاعوا على الشعب المشروع وأوصوا أتباعهم بقبوله، ولم يخف كل من جواهر لال نهرو وبالديف سنغ خيبة أملهما فى المشروع.

واشترط حزب المؤتمر أن تقسم كل من البنغال والبنجاب، حسب كثرة سكانها من المسلمين والهندوس، واستجاب محمد على جناح لهذا حسما للنزاع، مع أن فيه بعض الغبن على المسلمين لأن المنطق كان يقضى بضم الولاية كلها باعتبار أغلب سكانها، ولكن حزب المؤتمر أصر على تقسيم هذه الولايات الى قسمين، ولو لم تقسم لانضمت كلها الى باكستان، وهكذا

وافق الزعماء فى الهند على أن يعلن استقلال الهند وتسليم الحكم لكل من الدولتين فى ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ . وبذلك تحققت فكرة قيام دولة اسلامية مستقلة، مكونة من الولايات التى يكون فيها المسلمون أكثرية. وكان أول حاكم لها ذلك الذى أفنى حياته في سبيلها القائد العظيم محمد على جناح، وأعتبر يوم ١٥ أغسطس عام ١٩٤٧ موعداً لاعلان استقلال كل من الدولتين الجديدتين، فتتكون الهند من الولايات التى يكثر فيها الهندوس، وتتكون الباكستان من الولايات التى يكثر فيها المسلمون. وتكونت الباكستان من قسمين: شرقى، وهو البنغال، وعدد سكانه نحو اثنين واربعين مليونا، وغربى وهو ولايات الحدود الشمالية الغربية، وبلوخستان، والسندز، والبنجاب الغربية، وعدد سكانها كلها نحو ٣٣ مليونا. وفى يناير ١٩٤٨ ، اغتالت ايدى الهندوس المتعصبين المهاتما غاندى الذى كان ينادى بوقف هستيريا التعصب الدينى وان يعيش الهندوس والمسلمون فى سلام وتسوية العلاقات بين الهند وباكستان.

وكلمة باكستان هى كلمة فارسية – أوردية، وتتكون من حروف لاسماء البلاد الاصلية التى قامت عليها دولة باكستان وهى زينجاب وأفغانيا (وهى أقليم الحدود الشمالى الغربى) وكشمير وايران وسند وتيرخارستان وتسمى أرض الباكس (the land of the paks) النقية والنظيفة روحيا. ويتكون الاقليمان اللذان تقوم عليهما باكستان من مساحتين واضحتين من الارض، ويسميان جناحاها الشرقى والغربى، مما كان عاملا فى اضعاف وحدتها منذ قيامتها، وأن هذين الجناحين – علاوة على البعد الطبيعى بينهما، يختلفان

كثيرا فى شخصيتهما فى أمور كثيرة مثل المساحة وطبيعة السكان والتاريخ والعوامل الطبيعية والمناخ والانتاج الزراعى، هذا بالاضافة الى اللغة والعادات والتقاليد ونتيجة للتقسيم لم تصبح كلكتا تلك المدينة الهامة السابقة فى الامبراطورية ضمن باكستان بل اصبحت عاصمة جزء من البنغال الغربى، الذى صار ضمن الاتحاد الهندى عام ١٩٤٧، وأصبحت دكا باكستانية، وأضيف اليها معظم اقليم سلهت من آسام.

ولقد قامت مجموعات من المسلمين المحدثين بمحاولات كثيرة للاصلاح الاجتماعى والاخذ بأسلوب الحضارة الغربية الحديثة بما يلائم الشريعة الاسلامية، وكما حدث فى كل من مصر والهند وتركيا. ومن بين هؤلاء المفكرين المسلمين فى الهند من رواد حركة الاصلاح واحياء التراث الاسلامى قبل ميلاد باكستان، سيد أحمد خان وسيد أمير على ومحمد اقبال. كما كان محمد على جناح على رأس هؤلاء الرواد الذين قادوا الحركة السياسية والفكرية، ولقد أخرج فكرة باكستان الى حيز التنفيذ وقامت سياسته على أساس نظرية الامتين وقد أهتم جناح فى سنى حياته الاخيرة بالدعوة لتجميع قوة الارادة الاسلامية للحفاظ على التراث الاسلامى فى شبه القارة الهندية ضد الاغلبية الهندوكية ولقد قال فى عام ١٩٣٩ «ان الديموقراطية – تعنى فى نظر الهندوس – السيطرة الهندوكية على كل الهند ولن يخضع المسلمون لذلك أبدا».

ولكن باكستان تعانى كثيرا من المشاكل الاجتماعية والسياسية وذلك لوجود عدة قوميات فيها، رغم اتحادها فى الدين والتراث ووحدة التاريخ والمصالح المشتركة فالباتان (Pathans) أو الباختون (Pakhtoon) الذين يتحدثون لغة الباشتو (Pashto)، هم أحد الشعوب الرئيسية لباكستان ويعيشون على الحدود بينها وبين أفغانستان. وقد سبب هؤلاء بعض المتاعب لباكستان. كما يوجد النجابيون في بنجاب الباكستانية، والبنغاليون فى باكستان الشرقية (بنجلاديش)، حاليا وتستعمل اللغة البنغالية فى باكستان الشرقية ولغة الباشتو فى الجنوب الشرقى كذلك، والفارسية فى الغرب ثم لهجات تركستان فى الشمال، واللغة الاوردية هى اللغة الرسمية لباكستان كل ذلك سبب المتاعب المستمرة وهدد وحدة باكستان حتى الان ورغم ذلك، فان المشكلة الطائفية الاساسية فى باكستان، تتمثل فى القومية الهندوكية فى الجناح الشرقى، حيث كان يوجد ٩,٧٨٠,٠٠٠ نسمة، وهؤلاء كانوا يشكلون مشكلة صعبة ساعدت على انفصال ذلك الجناح الشرقى عن باكستان بقيام دولة بنجلاديش.

الملاحق

ملحق (١)
حكام وسلاطين آل عثمان

عثمان	(١٢٨٨ - ١٣٢٦)
اورخان	(١٣٢٦ - ١٣٦٠)
مراد الأول	(١٣٦٠ - ١٣٨٩)
بايزيد الأول	(١٣٨٩ - ١٤٠٢)
محمد الأول	(١٤١٣ - ١٤١٢)
مراد الثانى	(١٤٢١ - ١٤٥١)
محمد الثانى	(١٤٥١ - ١٤٨١)
بايزيد الثانى	(١٤٨١ - ١٥١٢)
سليم الأول	(١٥١٢ - ١٥٢٠)
سليمان القانونى	(١٥٢٠ - ١٥٦٦)
سليم الثانى	(١٥٦٦ - ١٥٧٤)
مراد الثانى	(١٥٧٤ - ١٥٩٥)
محمد الثالث	(١٥٩٥ - ١٦٠٣)
احمد الأول	(١٦٠٣ - ١٦١٧)
مصطفى الأول	(١٦١٧ - ١٦١٨)
عثمان الثانى	(١٦١٨ - ١٦٢٢)

مصطفى الثانى (١٦٢٢ - ١٦٢٣)

مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠)

ابراهيم الأول (١٦٤٠ - ١٦٨٧)

محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٧٨)

سليمان الثانى (١٦٨٧ - ١٦٩١)

احمد الثانى (١٦٩١ - ١٦٩٥)

مصطفى الثانى (١٦٩٥ - ١٧٠٣)

احمد الثالث (١٧٠٣ - ١٧٣٠)

محمود الأول (١٧٣٠ - ١٧٥٤)

عثمان الثالث (١٧٥٤ - ١٧٥٧)

مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤)

عبد الحميد الاول (١٧٧٤ - ١٧٨٩)

سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧)

مصطفى الرابع (١٨٠٧ - ١٨٠٨)

محمود الثانى (١٨٠٨ - ١٨٣٩)

عبد الحميد (١٨٣٩ - ١٨٦١)

عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٦١)

مراد الخامس (١٨٧٦)

عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ - ١٩٠٩)

محمد رشاد (الخامس) (١٩٠٩ - ١٩١٨)

محمد وحيد الدين (السادس) (١٩١٨ - ١٩٢٣)

ملحق (٢)
اباطره مغول الهند العظام

بابر	(١٥٢٦ – ١٥٣٠)
همايون	(١٥٣٠ – ١٥٥٦)
اكبر	(١٥٥٦ – ١٦٠٥)
جهان جير	(١٦٠٥ – ١٦٢٧)
شاهجهان	(١٦٢٧ – ١٦٦٦)
اورانجزيب	(١٦٦٩ – ١٧٠٧)

ملحق (٣)

نقل حكم الهند من الشركه الى التاج

فى اول نوفمبر عام ١٨٥٨ وفى عهد الملكه فيكتوريا نقل حكم الهند من الشركه الى التاج البريطانى وتم تعيين كانينج اول حاكم عام بالاعلان التالى:

«من الملكه الى الامراء والزعماء والامه الهندية».

« نحن، فيكتوريا حاميه العقيده، بفضل الله – ملكة المملكه المتحده لبريطانيا وايرلندا والمستعمرات وملحقاتها فى اوربا واسيا وافريقيه وأمريكا واستراليا.

تعلن، بهذا، ونصح بانه بناء على نصيحه المجلس وموافقته – قد اخذنا على عواتقنا الحكومه المذكوره وبهذا ندعو جميع رعايانا فى داخل حدود هذه الاراضى ان يكونوا مخلصين موالين حق الموالاه لنا ولورثتنا وخلفائنا وان يقدموا خضوعهم الى سلطه الذين سنقوم بتعيينهم بعد من آن الى آخر حيث تأنس فيهم الكفايه والاداره حكومه اراضينا باسمنا ولمصلحتنا. ومن اجل هذا قد عينا تشارلزجون فايكونت كانينج اول وال حاكم عام على ارضينا ولكى يدير شئون حكومتنا باسمنا وليعمل باسمنا ولمصلحتنا وفقا للأوامر والقواعد التى سيتلقاها من وقت الى اخر منا عن طريق وزرائنا ونحن نثبت جميع الموظفين العسكريين والمدنيين الذين فى خدمه شركه الهند الموقرة طبقا

للقوانين والقواعد التى سوف نسنها، ثم اننا نعلم الامراء الوطنيين اننا قد وافقنا وابقينا فى الهند جميع المعاهدات والتعهدات المعقوده معهم تحت سلطه شركه الهند الشرقيه الموقره كما اننا لسنا نريد مزيدا فى توسيع ممتلكاتنا الحاليه. ولانقبل اى اعتداء عليها او على حقوقنا. وسنحترم ماللامراء الوطنيين من الحقوق والمكانه اسوه بنا. ونرجو لهم ولرعايانا ان ينعموا بالرفاهيه والتقدم الاجتماعى اللذين لايكفلهما الا السلم الدولى والحكومه العادله.

ونحن مرتبطون لابناء اراضينا الهنديه بما علينا من الالتزامات نحو رعايانا وسنؤديها بفضل الله تعالى فى امانه ونزاهه ضمير. ونحن لانعتزم ان نفرض عقيدتنا المسيحيه على احد من رعايانا، الذى سوف ينعمون بحمايه القانون من غير فارق بين الاديان وفى غير محاباه. كذلك ندعو كل من يعملون تحت حكمنا ان يمتنعوا عن التدخل فى العقيدة الدينيه او عباده احد رعايانا. كذلك تعلمون ان ارادتنا قد اقتضت ان يتاح للجميع شغل الوظائف التى يؤهلهم لها تعليمهم وكفايتهم واستقامتهم ونحن نعلم ونحترم شعور الرابطه التى تربط سكان الهند بالارض التى ورثوها عن ابائهم ونرغب فى حمايتهم فى حقوقهم فيها طبقا لطلبات الحكومه. وفى تطبيق القانون سوف تراعى الحقوق القديمه والعادات فى الهند . ونحن نبدى اسفنا الشديد لما تزل فى الهند من اعمال الرجال الطامعين الذين خدعوا مواطنيهم بالانباء الكاذبه وقادهم الى العصيان الذى قمعناه بقوتنا. ونحن نبسط عفونا على هؤلاء الذين يرغبون فى العوده الى واجباتهم العاديه ولكننا لن نعفوا عمن ارتكبوا

مباشره قتل الرعايا البريطانيين. اما الذين قبلوا مختارين ايواء القتله مع العلم بخيانتهم أو الذين كانوا فى الثوره بمثابه زعمائها او المحرضين عليها فاننا نضمن بقائهم احياء. على ان يحاكموا، وان تقدر العقوبات التى ستوقع عليهم بمراعاه جميع الظروف التى حملتهم على اطراح الولاء لنا. اما اولئك الذين يثبت انهم قد ارتكبوا جرائمهم بسبب تصديقهم الانباء الكاذبه التى كان ينشرها ذووا الاغراض فسيعاملون بقدر كبير من التسامح. اما بالنسبه لجميع الذين حملوا السلاح ضد الحكومه فاننا نعدهم باعلاننا هذا بالعفو الشامل غير المقيد والاعفاء وتناسى كل ما اقترفوه ضدنا. وضد تاجنا وكرامتنا. وبالعيش فى سلام، ويمتد هذا العفو الى جميع من يؤدون هذه الشروط قبل اول يناير التالى. ثم انه حين يأذن عفو الله بان يعود السلام الى الهند فاننا نشهد الله على اننا سنمضى بالبلاد الهنديه فى طريق التقدم والسلم والنهوض بالاعمال العامه واداره حكومتنا لمصلحه جميع رعايانا المقيمين بها. غير مدخرين وسعا ولامجهودا لأن سعادتهم وسلامتهم سعادتنا وسلامنا. وفى عرفانهم بمجهودنا خير مكافأة لنا. والله القوى القدير، نسأل ان يمدنا بعونه وان يمد من يعملون تحت سلطتنا، بالقوة التى تحقق امانينا فى سبيل مصلحه الأمة.

المحـــتوي


مطبعة باسو
٥٣٢٣٦٣٠ - اسكندرية
اوفست - سلوفان